انتباه للآيات

أثر الشام الحضاري في مصر

في العصر الأيوبي

أثر الشام الحضاري في مصر
في العصر الأيوبي

تأليف
صلاح حسن محمد الطائي

1432 هـ 2011 م

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

الفهرس

المقدمة
التمهيد: الأيوبيين، أصلهم ،ودورهم في توحيد الشام ومصر
الفصل الأول : الميدان الإداري
أولاً : نظام الحكم
1- السلطنة
2- نائب السلطنة
3- الوزارة
4- وظائف أخرى
ثانياً : القضاء
ثالثاً : الإقطاع
رابعاً: الدواوين
1- ديوان الإنشاء
2- ديوان الأسطول
3- ديوان بيت المال وما يلحق به
4- ديوان الخاص أو النظر
5- ديوان الزكاة
6- ديوان الجيش
7- ديوان البريد
الفصل الثاني : الميدانين الاقتصادي والاجتماعي
أولاً : الميدان الاقتصادي
1- الزراعة
2- الصناعة
3- التجارة
4- الضرائب
ثانياً : الميدان الاجتماعي
1- الرحلات والهجرات الشامية
2- الأعياد والمناسبات
3- آثار أخرى في الحياة الاجتماعية
الفصل الثالث : الميدان الثقافي
أولاً : العلوم الدينية (الشرعية)
1- علوم القران الكريم
أ- علم القراءات
ب- علم التفسير
2- علم الحديث النبوي الشريف
3- الفقه والمذاهب الفقهية
أ- المذهب الشافعي
ب- المذهب الحنفي

ج- المذهب الحنبلي
د- المذهب المالكي
4- علم التصوف
ثانياً : علوم اللغة العربية وآدابها
1- علوم اللغة العربية
2- الأدب
ثالثاً : العلوم العقلية
1- علم الطب والصيدلة
2- علم الكلام والفلسفة
3- الرياضيات
الفصل الرابع : الميدان العمراني
أولاً : القلاع
1- قلعة صلاح الدين (الجبل)
2- قلعة الروضة (الجزيرة)
ثانياً : الأسوار
1- سور القاهرة
2- أسوار أخرى
ثالثاً : المدارس
رابعاً : دار الحديث الكاملية
خامساً : الخوانق والربط والزوايا
سادساً : البيمارستان
سابعاً : القباب
ثامناً : عمائر أخرى
الخاتمة
ثبت المصادر و المراجع

المقدمة

ارتبطت الشام مع مصر بروابط سياسية وحضارية وثيقة على مر العصور التاريخية، وكان التأثير الحضاري المتبادل بين الإقليمين أهم ما يميز هذا الارتباط .فالمصادر التاريخية تشير إلى هذا الترابط والتأثير منذ عصور قديمة، واستمر هذا الارتباط المتنوع بين الإقليمين في العصور اللاحقة ومنها العصر الإسلامي مع وجود بعض التفكك أو الضعف نتيجة الظروف التي مر بها الإقليمين.

وفي ظل الارتباط السياسي للشام بمصر في العصر الأيوبي، يمكننا ملاحظة التأثير الحضاري للشام على مصر في الميادين الإدارية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعمرانية. وأتسم التأثير في بعض الأحيان بالتطوير والتجديد إلى جانب ما أستحدث فعلاً من تأثيرات جديدة.

أما عن الدافع لاختيارنا موضوع (أثر الشام الحضاري في مصر في العصر الأيوبي) هو ما أضطلع به العصر الأيوبي من دور مهم على الساحتين الشامية والمصرية ،بعد إسقاط الأيوبيين حكم الخلافة الفاطمية التي حكمت مصر مدة (270 سنة) وإنهاء حكم الدولة الزنكية ببلاد الشام، فعادت بذلك مصر إلى حاضنة الخلافة العباسية في بغداد ،كما واجهت بلاد الشام ومن بعدها مصر في هذه المرحلة خطر الحملات الصليبية المتتالية التي استهدفت الإقليمين. ولقد كان من نتائج الوحدة السياسية والإدارية بين الشام ومصر انتقال الكثير من المعالم الحضارية من الشام إلى مصر.

أما عن المشاكل التي واجهتنا في تأليف الكتاب، فتمثلت بعدم توفر بعض المصادر والمراجع التي بإمكانها أغناء الرسالة بمعلومات تضاف للمعلومات التي عثرنا عليها في المصادر والمراجع التي عملنا بها، بالإضافة إلى قلة المعلومات عن التأثير الشامي على مصر من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية. والسبب تركيز معظم المصادر على الناحيتين السياسية والثقافية بالمقارنة مع النواحي الأخرى مما دفعنا إلى دمج الميدانين الاقتصادي والاجتماعي بفصل واحد ليتوازن مع فصول الكتاب الأخرى.

لقد تم تقسيم مواضيع الكتاب إلى تمهيد وأربعة فصول، تناولنا في التمهيد أصل الأسرة الأيوبية ودورها في توحيد الشام ومصر، في العصر الزنكي وفي عصر دولتهم.

أما الفصل الأول فقد بحثنا فيه الجانب الإداري وأبرز النظم الإدارية التي عرفتها مصر في هذا العصر بفعل التأثير الشامي عليها، والمتمثلة بنظام السلطنة، ومنصب نيابة السلطنة الذي يؤدي صاحبه مهام السلطان في حال غيابه عن البلاد. بالإضافة إلى وجود وظائف أخرى منها ما أستحدث ومنها ما تم تعديله، وما ألحق من تطور في نظام الإقطاع ودواوين الدولة بما يتناسب وطبيعة المرحلة الجديدة للبلاد .

وتناولنا في الفصل الثاني الميدانين الاقتصادي والاجتماعي، أما الاقتصادي فقد ضم الزراعة التي تمثل عصب الحياة بمصر بسبب وجود نهر النيل وما طرأ على الزراعة من تطوير في هذه الفترة، والصناعة التي مثلت مصدر العيش الثاني للمصريين مع أهم الصناعات التي عرفتها مصر في هذا العصر بفعل هذا التأثير، والتجارة التي كانت من أهم العوامل التي ساعدت على نقل تراث وحضارة الشعوب من بلد لأخر. وتناول الميدان الاجتماعي أهم الرحلات والهجرات الشامية إلى مصر وأسبابها، وتغيير وإلغاء العديد من الأعياد والمناسبات التي كانت تقام بمصر، وتطرقنا أيضا إلى أهم الآثار التي تركها الإقطاع والتصوف على الحياة الاجتماعية للمصريين .

وفي الفصل الثالث بحثنا الميدان الثقافي واثر الشام على هذا الميدان بكل علومه ومنها، الدينية من علوم القران كالقراءات والتفسير وعلم الحديث النبوي الشريف. والفقه والمذاهب الأربعة وعلم التصوف. بالإضافة إلى علوم اللغة العربية وتفرعاته والأدب وتفرعاته. وكان

للعلوم العقلية نصيباً في هذا الميدان من علوم الطب والصيدلة والكلام والفلسفة وأخيراً الرياضيات.

أما الفصل الرابع فبحثنا فيه الميدان العمراني وأهم المنشآت العمرانية التي عرفتها مصر في العصر الأيوبي بفعل المؤثر الشامي عليها ، ومنها القلاع والأسوار والتحصينات الدفاعية لمواجهة أعدائها في الخارج ،والمدارس و دار الحديث الكاملية والخوانق والزوايا والربط لتكون مقاراً للعلم والمتعلمين، بالإضافة إلى بناء البيمارستان والقباب وذكرنا عمائر أخرى قامت في مصر في هذا العصر، وقد أشرنا إلى الطرز المعمارية التي سادت هذه العمائر والذي تأثرت بالطرز السائده في الشام.

لقد اعتمدنا في إعداد الكتاب على عدد كبير من المصادر والمراجع العربية والمعربة والموسوعات والرسائل العلمية والدوريات، وقد تنوعت طبيعة المصادر التي اعتمدنا عليها فمنها كتب التاريخ العام والتواريخ الخاصة بالدول والبلدان، لاسيما الكتابات التاريخية التي عاصر أصحابها العصر الأيوبي أو كانوا قريبين منه، فعلى الرغم من تركيز هذه الكتب على الجانب السياسي، إلا أنها قدمت لنا بين طياتها بعض المعلومات التي أغنت الرسالة بمادة علمية غنية. ومن هذه الكتب ، كتاب (النوادر السلطانية و المحاسن اليوسفية) لبهاء الدين بن شداد (ت 632هـ/1234م) الذي قدم مادة مهمة عن حياة صلاح الدين ودوره وجهوده في العمل على نقل العديد من المعالم الحضارية من الشام إلى مصر، من خلال حثه أبنائه وأقربائه على التعلم ، وبالتالي إسهامهم جميعا في بعث الحركة العلمية في مصر. وتعود أهمية هذا الكتاب كون صاحبه احد الرجال المقربين من السلطان صلاح الدين. أما كتاب (مرآة الزمان في تاريخ الأعيان) لسبط بن الجوزي (ت654هـ/1256م)، فقد أسهم بمعلومات مهمة باعتباره من كتب التاريخ العام فضلا عن التراجم التي احتواها فيذكر فيه ابرز رجال الإدارة والعلماء الذين انتقلوا إلى مصر. ويعد كتاب (الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية) لأبي شامة (ت665هـ/1266م)، من أهم المصادر التي كتبت عن تاريخ الأيوبيين في الشام ومصر، فذكر أهم المستجدات السياسية والإدارية والثقافية التي طرأت على مصر مع دخول الأيوبيين إليها، وقد أستقى أبو شامة معلوماته من كتابات من سبقوه كالعماد الأصفهاني وابن الأثير وابن شداد، مما أعطى قيمة علمية للكتاب والنصوص التي أوردها، هذا بالإضافة إلى ذكره تراجم أهم الشخصيات التي أسهمت في مصر في المجال السياسي والحضاري. أما كتاب (مفرج الكروب في أخبار بني أيوب) لأبن واصل (ت697هـ/1297م)، فقد أسهم بسرد الأحداث السياسية ومجرياتها بالتفصيل مع وجود بعض المعلومات عن الإدارة والاقتصاد والثقافة والعمران. أما كتاب (تاريخ الإسلام و وفيات المشاهير والأعلام) للذهبي (ت748هـ/1347م)، فقد قدم معلومات مهمة عن الحوادث التاريخية،وذكر عدد كبير من تراجم رجال الشام الذين ساهموا بمختلف المجالات الحضارية التي شهدتها مصر آنذاك، وقد تميز هذا الكتاب بترتيب الحوادث على السنين وكذلك الحال بالنسبة لتراجم الأعلام المرتبين على حروف المعجم. أما كتاب (صبح الأعشى في صناعة الأنشا) للقلقشندي (ت821هـ/1418م)، فيعد من المصادر الأساسية بمعلوماته التي تخص جميع الجوانب، وتركيز الكتاب لاسيما في جزئه الرابع على قيام الدولة الأيوبية بمصر وأبرز المتغيرات التي طرأت عليها بفعل رياح التغيير التي جلبتها دولة الأيوبيين معها من الشام. ولاتقل أهمية كتاب (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزي) للمقريزي (ت845هـ/1442م)، عن كتاب صبح الأعشى، فقد قدم لنا معلومات عن جميع الميادين الإدارية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعمرانية، مع التركيز على الجانب العمراني والمنشآت العمرانية ألتي تم استحداثها في مصر زمن الأيوبيين ذات الطراز الشامي.

والى جانب هذه المصادر المهمة كنت هنالك مصادر أخرى قدمت لنا مادة علمية لاتقل أهمية عن سابقتها، على الرغم من قلة معلوماتها، ومنها كتاب(كنز الدرر وجامع الغرر) لأبن أيبك الداوداري (ت737هـ/1336م)، وكتاب (البداية والنهاية) لأبن كثير (ت774هـ/1372م)،

وكتاب (السلوك لمعرفة دول الملوك) للمقريزي، وكتاب (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة) لأبن تغري بردي (ت874هـ/1469م)، بالإضافة إلى مصادر أخرى.

أما كتب التراجم والطبقات فقد اعتمدنا عليها بصورة كبيرة حيث وفرت لنا مادة علمية متميزة من خلال ترجمتها لعديد الأشخاص الشاميين الذين أسهموا وشاركوا في نقل معالم وثقافة الشام إلى مصر في هذا العصر وقد تراوحت طبيعة تراجم كل كتاب ما بين تراجم عامة تشمل جميع الميادين الحضارية وما بين تراجم اختصت بطبيعة اختصاص كل عالم. ومن كتب التراجم العامة، كتاب (التكملة لوفيات النقلة) للمنذري (ت656هـ/1258م)، و(وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان) لأبن خلكان (ت681هـ/1282م)، و(سير أعلام النبلاء) للذهبي، و(الوافي بالوفيات) للصفدي (764هـ/1362م)، و(حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة) للسيوطي(911هـ/1505م)، و(شذرات الذهب في أخبار من ذهب) لأبن العماد الحنبلي(ت1089هـ/1678م).

أما كتب التراجم التي اهتمت بتراجم فئة معينة من الرجال، فهناك كتاب (معجم الأدباء) لياقوت الحموي(626هـ/1228م)، و(عيون الأنباء في طبقات الأطباء) لأبن أبي أصيبعة (ت668هـ/1269م)، و(معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار) للذهبي، و(طبقات الشافعية الكبرى) للسبكي (ت771هـ/1369م)، وسواها من كتب التراجم التي سنذكرها في قائمة المصادر.

أما كتب الرحلات فقد تميزت بدقة المعلومات التاريخية التي أوردتها، كون أصحابها شهود عيان للكثير من المعالم التاريخية والعادات الاجتماعية والحياة الاقتصادية للبلدان التي يحطون بها رحالهم، ومن هذه الكتب (رحلة ابن جبير) لأبن جبير (ت614هـ/1217م) الذي تميز بسرد تفاصيل مهمة عن المنشآت العمرانية التي عرفتها مصر في العصر الأيوبي، كونه معاصر للأيوبيين،وقد زار مصر، وقدم معلومات أخرى عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية . بالإضافة إلى كتاب (الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر) للبغدادي (ت629هـ/1231م)، و(رحلة أبن بطوطة) لأبن بطوطة (ت779هـ/1377م).

واعتمدنا على مجموعة من كتب اللغة لمعرفة تفسير وتعريف بعض المصطلحات والأسماء والغامض من الأمور، ومنها كتاب (لسان العرب) لأبن منظور(ت711هـ/1311م)، و(التعريفات) للجرجاني (ت816هـ/1413م)، و(كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون) لحاجي خليفة (ت1067هـ/1656م).

أما كتب الجغرافية، فقد قدمت لنا تعريفات مهمة لأسماء المدن والقلاع والحصون ومناطق عديدة في بلاد الشام ومصر، ومن هذه الكتب، كتاب (معجم البلدان) لياقوت الحموي، و(الروض المعطار) للحميري (ت900هـ/1494م).

وكان للكتب العربية والمعربة والرسائل العلمية، دوراً هاماً في انجاز صفحات الكتاب من خلال ما قدمته من دراسات وتحليلات ومعاينة للكثير من القضايا التي تخص الموضوع، ومن أهم هذه المراجع التي لا يمر فصل من فصول الرسالة إلا وقد أسهمت في رفده بوافر المعلومات، كتاب (أيام صلاح الدين) لعبد العزيز سيد الأهل، و(مصر في العصور الوسطى) لعلي إبراهيم حسن، و(الأدب في العصر الأيوبي) لمحمد زغلول سلام، و(الحياة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي و المملوكي الأول) لعبد اللطيف حمزة، و(أثر الحضارة السلجوقية في دول شرق العالم الإسلامي على الحضارتين الأيوبية والمملوكية بمصر) لمنى محمد بدر محمد بهجت، بالإضافة إلى عدد كبير من المراجع والرسائل العلمية والدوريات التي قدمت لنا مادة غذّت الرسالة بالمعلومات المهمة.

وأخيرا نسأل الله تعالى أن لا يؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، فكل عمل لبني أدم لايكتمل لأن الكمال لله وحده، فأن أصبت في عملي فهو من فضل الله علي، وان أخطأت فمن نفسي، ومن الله التوفيق.

التمهيد

الأيوبيين، أصلهم ، ودورهم في توحيد الشام ومصر

تنتسب الأسرة الأيوبية إلى الأكراد الروادية[1]، وهم فرع من الهذبانية، وهي من أكبر القبائل الكردية[2]، وهم من قرية أجدنقان، من بلدة دوين[3]. وأخذت هذه الأسرة تسميتها من جدهم أيوب بن شاذي بن مروان الملقب بوالد الملوك[4] .

لقد أنكر جماعة من بني أيوب النسبة إلى الأكراد، وقالوا "إنما نحن عرب، نزلنا عند الأكراد، وتزوجنا منهم"، وأدّعى بعضهم النسب إلى بني أمية[5] .

وربما يكون الدافع في هذا الادعاء، هو رغبة البعض منهم الوصول إلى أعلى مراتب السلطة في بلدان عربية لم يسبق أن سكنها الأكراد وخاصة مصر واليمن والحجاز [6] .

ويظهر من ذلك بأن الأيوبيين ليسوا عرباً بالدم والجنس والأصل، لكنهم عرب باللغة والمشاعر، وفوق ذلك كله فإنهم مسلمون، ساهموا في صنع أحداث التاريخ الإسلامي على مدى أكثر من ثلاثة أرباع القرن، تُعد من أهم مراحل تاريخ الحروب الصليبية[7] .

وتعود بداية ظهور الأسرة الأيوبية من مفارقتهم لبلدتهم دوين[8]، حيث أخذ شاذي ولديه نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه، وخرج بهما إلى بغداد، التي كانت آنذاك تحت سيطرة السلاجقة وهناك التحق بصديق له[9]، هو مجاهد الدين بهروز[10]الذي عينه حافظاً على قلعة

([1]) أبو الحسن بن علي بن أبي الكرم عبد الكريم ابن الأثير: الكامل في التاريخ، تحقيق: جوهانس تورنبرغ، دار صادر، (بيروت، 1966)، 341/11 ؛ جمال الدين محمد بن سالم بن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: جمال الدين الشيال، مطبعة جامعة فؤاد الأول، (القاهرة، 1953)، 3/1 ؛ أبو البركات محمد بن أحمد المعروف بابن إياس: تاريخ مصر المعروف ببدائع الزهور في الوقائع والدهور، بولاق، (مصر، 1311هـ)، 69/1 ؛عبد العزيز سيد الأهل: أيام صلاح الدين، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، (القاهرة، 1964)، 28 .

(2) ابن الأثير: الكامل 341/11 ؛ ابن واصل: مفرج الكروب، 3/1 ؛ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي: سير أعلام النبلاء، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط1، دار الكتب العلمية، (بيروت، 2004)، 151/13 ؛ سيد الأهل: أيام صلاح الدين، 28 .

(3) دوين: وهي بلدة أعجمية قرب خلاط في نواحي ألران في آخر حدود أذربيجان قرب تفليس . شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي: معجم البلدان، دار صادر، (بيروت، 1977)، 491/2 .

(4) بهاء الدين أبو المحاسن يوسف ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، تحقيق: جمال الدين الشيال، ط1، المؤسسة المصرية العامة، (القاهرة، 1964)، 6 .

(5) ابن واصل: مفرج الكروب، 3/1 ؛ أبو بكر بن عبد الله بن أيبك الداوداري: كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق: سعيد عبد الفتاح عاشور، دار الكتب العربية، (القاهرة، 1972)، 6/7 .

(6) ابن واصل: مفرج الكروب، 3/1-4 .

(7) محمد سهيل طقوش: تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة، ط2، دار النفائس، (بيروت، 2008)، 17 .

(8) دريد عبد القادر نوري: سياسة صلاح الدين الأيوبي في مصر وبلاد الشام والجزيرة 570-579هـ، مطبعة الإرشاد، (بغداد، 1976)، 65 .

(9) ابن واصل: مفرج الكروب: 7/1 ؛سيد الأهل، أيام صلاح الدين، 28.

(10)وهو من أهالي دوين انتقل إلى بغداد، وقصد خدمة غياث الدين مسعود السلجوقي وكان شحنة بغداد (رئيس الشرطة).أبو العباس شمس الدين احمد بن محمد بن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، (بيروت، 1972)، 142/7؛ تقي الدين أحمد بن علي المقريزي: كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة، ط2، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، (القاهرة، 1956)، 40/1 .

تكريت[1] . وبقى في منصبه هذا حتى مماته فيها فتولاها أبناءه نجم الدين وأسد الدين من بعده[2].

وكان نجم الدين وأخوه أسد الدين يسعيان ليبلغا منزلة رفيعة لدى الأمراء والسلاطين، ففيهما الشجاعة والأقدام، والدهاء والسياسة، والإخلاص والمثابرة ، وحظيا بمكانة عظيمة عند الأتابك عماد الدين زنكي صاحب حلب، وابنه نور الدين محمود فيما بعد[3] .

بقي نجم الدين بقلعة تكريت مع أخيه بعد ذلك زمناً حتى إذا ما ضاقت بهما الحياة غادراها إلى الموصل[4] وفي ليلة الرحيل سنة 532هـ/1138م، ولد صلاح الدين، وفي الموصل كان عماد الدين زنكي الأمير القوي، فأحسن استقبالهما وأنزلهما منزلة تليق بهما، فآواهما وأقطعهما عنده[5]، وساروا في ركب الفتح الذي قاده زنكي عبر الجزيرة إلى الغرب . وبعد فتح بعلبك، وليّ نجم الدين عليها وكان صلاح الدين إذ ذاك صبياً يافعاً، حيث عاش وإخوته مرحلة الطفولة فيها[6].

انقسمت دولة عماد الدين زنكي بعد مقتله سنة(541هـ/ 1146م) بين أبنائه سيف الدين غازي على الموصل والجزيرة ونور الدين محمود على الشام وحلب[7]، وأثناء ذلك أشتد الأمر بنجم الدين في بعلبك، فخشى أن يلحقه سوء، فلم يجد بداً من مفاوضة أقوى الأمراء الذين يهددونه، وهو أمير دمشق، مجير الدين أبق وأتابكه معين الدين أنر، فسلم البلد لأمير دمشق، ورعى الأمير ذلك لنجم الدين فأقطعه إقطاعاً حسناً، وعاش نجم الدين أيامه بعد ذلك في دمشق إلى أن التأمت دولة نور الدين[8] .

أما أسد الدين شيركوه فقد اتصل بخدمة نور الدين محمود وصار من أخص أصحابه ومقدماً على سائر أمرائه[9]. وأصبح بمنزلة الوزير لدى دولة نور الدين وقائداً عسكرياً، ولم يزل حاله ينمو عنده إلى أن أقطعه مدينتي حمص والرحبة[10] .

---

(1) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 7/141-142 ؛ المقريزي: السلوك، 1/40 ؛ نوري: سياسة، 65 .

(2) ابن شداد: النوادر، 6؛ ابن واصل: مفرج الكروب، 1/8؛ عز الدين أحمد بن إبراهيم الحنبلي: شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تحقيق: ناظم رشيد، دار الحرية للطباعة، (بغداد، 1979)، 23 ؛ سيد الأهل: أيام صلاح الدين، 28 .

(3) الذهبي: سير، 12/451-452؛ محمد زغلول سلام: الأدب في عصر صلاح الدين الأيوبي، ط1، مؤسسة الثقافة الجامعية، (الإسكندرية، 1959)، 19-20 .

(7) ابن الأثير: الكامل، 11/341؛ ابن واصل:مفرج الكروب، 1/8؛ تقي الدين احمد بن علي المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، تحقيق: محمد زينهم ومديحه الشرقاوي، ط1، مكتبة مدبولي،(القاهرة، 1998) ، 3/113.

(5) ابن واصل: مفرج الكروب، 1/8 ؛ المقريزي: الخطط، 3/113؛ سلام: الأدب في عصر صلاح الدين،20 .

(6) ابن شداد: النوادر،6 ؛ شمس الدين أبي المظفر يوسف سبط بن الجوزي: مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ط1، دائرة المعارف العثمانية، (حيدر آباد، 1951)، 8/425 ؛ علي إبراهيم حسن: مصر في العصور الوسطى(من الفتح العربي إلى الفتح العثماني)، ط5، مكتبة النهضة المصرية، (القاهرة، 1964)، 169.

(7) ابن واصل: مفرج الكروب، 1/8-9؛ الذهبي: سير، 12/655 .

(8) ابن واصل: مفرج الكروب، 1/9-10 ؛ سلام: الأدب في عصر صلاح الدين، 20-21 .

(9) ابن الأثير: الكامل، 11/342 ؛ ابن واصل: مفرج الكروب، 1/10 ؛ المقريزي: الخطط، 3/113 ؛ علي بيومي: قيام الدولة الأيوبية، ط1، دار الفكر الحديث، (القاهرة، 1952)، 90 .

(10) ابن الأثير: الكامل،11/342 ؛شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل أبي شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية، (بيروت، 2002)، 1/355؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، 7/144؛ ابن واصل: مفرج الكروب، 1/10 .

وكان صلاح الدين قد صار شاباً، فولاه نور الدين منصب الشحنة[1]، على إن يتقيد برأي قاضي دمشق، فجعله هذا الأمر في صحبة الشيوخ وعلماء الدين، فنشأ نشأة دينية خالصة[2]، ثم ولاه نور الدين دمشق[3]، وبدأ نور الدين يستعين به وبعمه أسد الدين شيركوه في تحقيق أغراضه الوحدوية[4] .

تمكن نور الدين بعد صراع طويل من انتزاع دمشق من يد الأمير مجير الدين آبق، ومعين الدين أُنر، بمساعدة نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه، ثم فتح أجزاءً من إمارة أنطاكيا، وأسر عدد من أمراء الصليبيين . ولم يبقى أمامه سوى بيت المقدس وحاكمها بلدوين الثالث، وقد خاض نور الدين معارك عدة ضدها[5]، إلا أنه أدرك إن تحريرها لن يتم إلا بعد ضم مصر إليه والاستفادة من إمكانياتها البشرية والاقتصادية .

وكان نور الدين محمود قد قام بأعمال مهمة في الشام قبل التوجه لمصر، فقد بنى المدارس وسوّر دمشق وأسقط ما كان يؤخذ من جميع المكوس وبنى المكاتب للأيتام ووقف عليها الأوقاف وشيد الربط والخانات والبيمارستان وأقطع الاقطاعات لئلا يتعرضوا للحجاج[6]، وهذا ما سيكون له الأثر الواضح في بعث النهضة الثقافية والعلمية والإدارية والعمرانية في مصر خلال حكم الأيوبيين .

لقد انتقلت دائرة الصراع بين نور الدين والصليبيين من شمال الشام إلى شرق دلتا النيل بمصر. فمنذ البداية أدرك نور الدين و الصليبيون قيمة مصر في الصراع الدائر بينهما، فقد فرض منطق التاريخ وحقائق الجغرافية السياسية أن تكون مصر ميداناً رئيسياً في الحروب الصليبية[7]. وقد استغل نور الدين حالة الفوضى والاضطراب، التي سادت مصر في منتصف القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، والتي اختل على إثرها ميزان الحكم، واضطربت الأوضاع الاقتصادية والسياسية[8] .

قام في أواخر العصر الفاطمي بمصر تنافس شديد بين شاور بن مجير السعدي وضرغام أبو الأشبال اللخمي على منصب الوزارة واستنجد شاور بنور الدين سلطان حلب، واستنجد ضرغام بعموري ملك بيت المقدس، وانتهز كل منهما تلك الفرصة لتحقيق أهدافه في ضم مصر بحجة الدفاع عمن استنجد به[9] .

---

(1) الشحنة: منصب كمنصب الشرطة فيه سلطة الاتهام والقبض والتأديب. سيد الأهل: أيام صلاح الدين، 34

(2) حسن: مصر في العصور الوسطى، 169 ؛ عبد الرحمن زكي: قلعة صلاح الدين الأيوبي وما حولها من الآثار، الهيئة المصرية العامة، (القاهرة، 1971)، 32 .

(3) سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، 425/8 .

(4) حسن: مصر في العصور الوسطى، 169 .

(5) وليم الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: سهيل زكار، دار الفكر،(بيروت، 2003)، 733/2-734؛ سلام: الأدب في عصر صلاح الدين، 18 .

(6) أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير: البداية والنهاية، دار الفكر، (بيروت، 1982)، 278/12 ؛ أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: لجنة التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، (بيروت، د/ت)، 228/4 .

(7) قاسم عبده قاسم وعلي السيد علي: الأيوبيون والمماليك، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، (القاهرة، د.ت)، 24-25 .

(8) ابن شداد: النوادر، 36-37؛ ابن واصل: مفرج الكروب،137/1-140؛ محمد زغلول سلام: الأدب في العصر الأيوبي، دار المعارف،(القاهرة،1968).28؛ علي محمد الصلابي: صلاح الدين الأيوبي، ط2، دار المعارف،(بيروت، 2008)، 167؛ طقوش: تاريخ الأيوبيين،14.

(9) حسن: مصر في العصور الوسطى، 170 .

سارع نور الدين لاغتنام الفرصة وتحقيق هدفه بضم مصر إلى الشام فأرسل قواته إليها ثلاث مرات[1] وعهد إلى أسد الدين شيركوه بهذه المهمة[2]، فكانت المرة الأولى التي سار فيها أسد الدين إلى مصر سنة 559هـ/1164م، لإعادة شاور إلى منصب الوزارة[3]، إلا أن شاور سرعان ما غدر بأسد الدين وبدأ بمراسلة الصليبيين، مما دفعهم للتوجه إلى مصر،لكن الطرفين وقعا على صلح بينهما، إلا أن شيركوه كان عازماً على أن يعيد الكرة، بعد أن أدركته خيانة شاور[4] . وفي سنة 562هـ/1167م، سيّر نور الدين محمود أسد الدين شيركوه إلى مصر ليملكها، وكان صلاح الدين يوسف بن نجم الدين مع عمه أسد الدين في هذه الحملة[5]، ومن هنا بدأ نجم صلاح الدين في الظهور على الساحة السياسية[6] .

ولما سمع شاور بقدوم قوات أسد الدين من الشام، أرسل يستنجد بالصليبيين، فأتواه خوفاً من تملك العساكر النورية التي سارت باتجاه الصعيد إلى أن بلغت مكان يعرف بالبابين وحدثت عنده معركة انتهت بانتصار المسلمين[7]، ثم سار أسد الدين إلى الإسكندرية، فسلمها أهلها إليه وأناب عليها ابن أخيه صلاح الدين، لكن الصليبيين وشاور توجهوا إلى الإسكندرية، وكان أسد الدين في الصعيد ،ولما بلغه أمر ابن أخيه، توجه نحو الإسكندرية وهنا حدث صلح بين الطرفين شرط جلاء الصليبيين عن مصر، فتم ذلك، وعاد أسد الدين إلى الشام[8] .

وفي سنة 564هـ/1169م، سار أسد الدين إلى مصر للمرة الثالثة، بسبب سيطرة الصليبيين على مصر بمعاونة شاور. ولما وصل أسد الدين رحل الصليبيين مدحورين ناكصين على أعقابهم، وتم قتل شاور[9]، فلم يعد للصليبيين من ينصرهم في مصر، وكان هذا الفتح حفظاً لسائر بلاد الشام[10] .

تولى أسد الدين شيركوه منصب الوزارة، وخلع عليه الخليفة العاضد لدين الله عبد الله بن يوسف (557-567هـ/1161-1171م)[11] خلع الوزارة، وقيادة الجيوش، ولُقب الملك المنصور أمير

---

(1) عز الدين بن محمد بن عبد الكريم بن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، تحقيق: عبد القادر أحمد طليمات، دار الكتب الحديثة، (القاهرة، 1963)، 119 ؛ الفتح بن علي البنداري: سنا البرق الشامي، تحقيق: فتحية البزاوي، مكتبة الخانجي، (مصر، 1979)، 19 ؛ أبو شامة: الروضتين، 1/355-356 ؛ عبد الرحمن بن محمد بن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مؤسسة جمال، (بيروت، 1979)، 5/246 .

(2)صبحي عبد المنعم: تاريخ مصر السياسي والحضاري، دار العربي للنشر، (القاهرة، د.ت)، 143 .

(3) ابن شداد: النوادر، 36 ؛ أبو شامة: الروضتين، 1/354-357 ؛ ابن واصل: مفرج الكروب، 1/137-139 ؛ شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي: العبر في خبر من غبر، تحقيق: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، (بيروت، 1985)، 3/31.

(4) ابن شداد: النوادر، 37؛ ابن واصل: مفرج الكروب، 1/131-139.

(5) ابن الأثير: الباهر، 132 ، الكامل، 11/298-299 ؛ ابن شداد: النوادر، 37-38 ؛سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، 8/425 ؛ أبو شامة: الروضتين، 2/7 ؛ ابن واصل: مفرج الكروب، 1/148-149 ؛ شمس الدين محمد بن احمد الذهبي: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والإعلام، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، ط1، دار الكتاب العربي ، (بيروت، 1995)، 8/39 ؛ جمال الدين يوسف بن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، (القاهرة، د.ت)، 5/34 .

(6) سلام: الأدب في عصر صلاح الدين، 21 .

(7) ابن شداد: النوادر، 37-38 ؛ أبو شامة: الروضتين، 2/7-8 ؛ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، 5/247 .

(8) أبو شامة: الروضتين، 2/9-10 ؛ ابن واصل: مفرج الكروب، 1/149، 152 ؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، 39/8-9 ؛ ابن كثير: البداية والنهاية، 12/252-253.

(9) ابن الأثير: الباهر، 139-140 ؛ الكامل، 11/335-336 ،338، 340 ؛ ابن شداد: النوادر، 38-40 ؛ البنداري: سنا البرق، 39-40 ؛ أبو شامة: الروضتين، 2/32-33، 38؛ ابن واصل: مفرج الكروب، 1/161 ،163.

(10) عبد المنعم: تاريخ مصر، 148 .

(11) تقي الدين أحمد بن علي المقريزي: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق: محمد حلمي أحمد، لجنة إحياء التراث العربي، (القاهرة، 1973)، 3/241، 244، 328 .

الجيوش[1]، كما أشرف صلاح الدين على تسيير دفة الإدارة نيابة عن عمه، وقام أسد الدين بإقطاع البلاد للعساكر التي قدمت معه من أسرته ورجال الجيش النوري[2]، الوافدين من الشام .

لم يلبث أسد الدين شيركوه طويلاً في منصب الوزارة، فقد وافته المنية بعد شهرين من توليه المنصب[3]، لتنتقل الوزارة إلى صلاح الدين الذي استدعاه الخليفة الفاطمي وخلع عليه[4]. فكان هذا المنصب سبباً لربط مصر بالشام[5]، وإيذاناً بنهاية الدولة الفاطمية، حيث اتخذ صلاح الدين عدة خطوات فعمل على تقليم أظافر الخليفة العاضد وقواد جيشه ورجال قصره، فأبعد القواد عن القاهرة[6]، وحرص على استمالة أهلها فبذل كثيراً من الأموال، ووزع الاقطاعات على قواده [7]، وجعل أباه على بيت المال كما أقطع أخوته بعض الأراضي[8] . ويبدو أن وصول صلاح الدين إلى هذه المكانة قد لاقى ترحيب ومساندة أسرة عمه والأمراء النوريين [9]، وأما عن علاقته مع نور الدين محمود في الشام، فعلى الرغم مما قيل من حدوث خلافات، إلا أنها لا تعدو أن تكون بسيطة، و أنه لم يتنكر لنور الدين، ولم يتحول عن إخلاصه له[10]. وانه يعتبر نفسه نائباً عنه بمصر، وكانت الخطبة لنور الدين في البلاد كلها. وكان نور الدين يكاتب صلاح الدين بالأمير الاسفهسلار[11] تعظيماً له ولا+*يذكر اسمه[12] .

لم يكن بوسع صلاح الدين خدمة، خليفة في القاهرة، وسلطان في دمشق يدين بالطاعة لخليفة في بغداد، فكان لابد من إنهاء هذه الازدواجية، وجاءت المبادرة من الخليفة العاضد نفسه، فتأمر على صلاح الدين عن طريق أجناده السودانيين وبمعاونة الصليبيين، ولم يقّدر له النجاح في الحالين، فقضى صلاح الدين على هذه الثورة [13].

لقد كان لدى نور الدين محمود رغبة في إعلان الخلافة العباسية بمصر من جديد، وقد أعلن صلاح الدين وأمراؤه الخطبة له وإعلان اسم الخليفة العباسي المستضيء (566-

---

(1) ابن الأثير: الكامل، 340/11 ؛ أبو شامة: الروضتين، 43/2 ؛ ابن واصل: مفرج الكروب، 164/1-165 ؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، 14/39.

(2) ابن الأثير: الكامل، 339/11-340 ؛أبو شامة:الروضتين،43/2 ؛ ابن واصل: مفرج الكروب، 1/ 65.

(3) أبو شامة: الروضتين، 47/2 .

(4) ابن الأثير:الكامل، 342/11-343؛ سبط بن الجوزي: مرآة الزمان،278/8-279؛ أبو شامة: الروضتين، 47/2-48، الذهبي: سير، 151/13؛بيومي: قيام الدولة الأيوبية، 155-156 .

(5) عبد السلام الترمانيني: أحداث التاريخ الإسلامي بترتيب السنين، ط1، دار طلاس، (دمشق، 1994)، 464/3 .

(6) خاشع المعاضيدي ورشيد عبد الله ألجميلي: تاريخ الدويلات العربية الإسلامية في العصر العباسي، ط1، مطبعة واوفسيت الحديثة، (بغداد، 1979)، 283 .

(7) أبو شامة: الروضتين، 49/2 ؛ أسمت غنيم: الدولة الأيوبية والصليبيون، دار المعرفة الجامعية، (الإسكندرية،1990)، 21 .

(8) المعاضيدي وآخرون: تاريخ الدويلات، 283 .

(9) نوري: سياسة، 92 .

(10) علي حسني الخربوطلي: مصر العربية الإسلامية، مكتبة الأنجلو المصرية، (القاهرة، د.ت)، 242 .

(11) الاسفهسلار: معناه مقدم العسكر، وهو مركّب من لفظتين . أولهما فارسي وهو "أسفه" ومعناه: المقدم، والثاني تركي معناه: العسكر . أبي العباس أحمد بن علي القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، المؤسسة المصرية العامة للتأليف، (القاهرة، 1963)، 483/3، 6/7-8 .

(12) كمال الدين عمر بن أحمد بن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق: سامي الدهان، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، (دمشق، 1951)، 329/2 ؛ أبو شامة: الروضتين، 49/2 .

(13) ابن الأثير: الكامل، 345/11-346 ؛ أبو شامة: الروضتين، 86/2-87 ؛ ابن واصل: مفرج الكروب، 174/1، 179؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، 19/39، 21؛ عبادة بن عبد الرحمن رضا كحيلة: العقد الثمين في تاريخ المسلمين، ط1، دار الكتاب الحديث، (الكويت، 1996)، 248 .

575هـ/1170-1179م) سنة 567هـ/1171م[1]، وأعقب ذلك موت العاضد، وأصبح نور الدين مقلداً على مصر والشام، وصلاح الدين نائباً له بمصر، وبذلك أعيدت وحدة مصر والشام[2] .

إن وفاة العاضد ونور الدين محمود فيما بعد، هيأ الفرصة تماماً لتسلم صلاح الدين زمام القيادة من بعدهما وتأسيس الدولة الأيوبية[3]، فمن المعروف أن صلاح الدين وأبوه وعمه لم يولدوا في مصر، ولم ينشئوا فيها، وإنما جاءوا إليها كباراً ولم يقتصر ميدان نشاطهم على مصر وحدها، بل شمل الشرق الأدنى كله، وذلك قبل إن يعرفوا مصر[4] .

بعد أن تم لصلاح الدين ما أراد بمصر، كانت خطوته التالية هي كسب الشام إلى جانبه وتوحيدها مع مصر للضغط على الصليبيين[5]، لأن مركزه في مصر يبقى مهدداً بالأخطار ما بقيت الشام منفصلة عن مصر، وذلك لقرب الدويلات الصليبية منها، بصورة خاصة[6] . كما انه أراد استمرار السياسة التي بدأها عماد الدين زنكي، وسار عليها ابنه نور الدين محمود والتي تقضي بتوحيد كلمة المسلمين، والقضاء على الصليبيين[7] .

تولى الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين الحكم بعد وفاة والده، وكان عمره آنذاك إحدى عشرة سنة وقدم له الأمراء والمقدمون بدمشق الطاعة[8].

وتحت شعار الوفاء لسيده نور الدين وللبيت الزنكي، والولاء للصالح إسماعيل وتربيته والقيام بأموره[9]، بدأ صلاح الدين بالمسير إلى الشام في شهر صفر من سنة 570هـ/1174م على رأس سبعمائة فارس، واستناب على مصر أخوه الملك العادل أبو بكر، ووصل إلى دمشق ولم يتعرض لأية مجابهة ، وفعلاً تسلمها " ونزل في دار والده المعروفة بدار العقيقي"[10] .

توجه صلاح الدين إلى حمص فدخلها وطرد الصليبيين، ثم توجه بعدها إلى حماة، فضمها تحت السيطرة الأيوبية. ثم فتح بعلبك التي سلمت بالأمان، ولم يبقى أمامه سوى مدينة حلب و فيها الملك الصالح إسماعيل، فأرسل له رسالة بين فيها أهدافه النبيلة وخدمته له. فسار إليها ووصلها في جُمادى الآخرة من سنة 570هـ/1174م، إلا أنه واجه مقاومة شديدة من أهلها فظل محاصراً لها إلى رجب ثم انسحب عنها. ثم فتح مدن وحصون وقلاع مهمة منها بزاغة ومنبج وعزاز، ليقطع الصلة بين حلب والموصل[11]، التي وقفت مرات عائقاً ضده .

وفي سنة 571هـ/1176م توجه صلاح الدين إلى حلب للمرة الثانية فحاصرها مدة ثم انسحب عنها صلحاً[12]، وقطع حينئذ خطبة الملك الصالح إسماعيل، وأزال اسمه عن السكة[1]،

---

(1) ابن الأثير: الكامل، 368/11 ؛ ابن شداد: النوادر، 45 ؛ البنداري: سنا البرق، 58-59.

(2) ابن الأثير:الباهر، 156-157،الكامل، 371/11؛ البنداري: سنا البرق،61؛الذهبي: تاريخ الإسلام، 34/39.

(3) ابن إياس: تاريخ مصر، 70/1 ؛ غنيم: الدولة الأيوبية، 27 ؛ بيكر: مادة "الأيوبيين"، دائرة المعارف الإسلامية، نقلها إلى العربية: محمد ثابت الفندي وآخرون، (1933م) 222/3.

(4) بيومي: قيام الدولة الأيوبية، 16 .

(5) سلام: الأدب في العصر الأيوبي، 38-39 .

(6) كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة: نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، ط5، دار العلم للملايين، (بيروت، 1968)، 354 .

(7) طقوش: تاريخ الأيوبيين، 54 .

(8) نوري: سياسة، 122 .

(9) سعيد عبدالفتاح عاشور:الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، دار النهضة العربية،(القاهرة، 1996)،42

(10) ابن الأثير: الكامل، 415/11-416؛ ابن شداد: النوادر، 50 ؛ سبط بن الجوزي: مرآة الزمان،326/8-327؛ ابن العديم: زبدة الحلب، 19/3-20؛أبو شامة:الروضتين، 222/2.

(11) ابن الأثير: الكامل، 417/11، 420؛ ابن شداد: النوادر، 50-52؛ البنداري: سنا البرق، 104-105؛ سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، 327/8-328؛ ابن العديم: زبدة الحلب، 20/3-22؛ أبو شامة: الروضتين، 244/2 ابن واصل: مفرج الكروب، 21/2-23، 29، 42-44؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، 63/39، 9/40.

(12) ابن العديم: زبدة الحلب، 24/3 ؛ ابن واصل: مفرج الكروب، 33/2-34 .

ومما زاد موقف صلاح الدين قوة وصول خلع الخليفة إليه[2]، وأصبح سلطاناً شرعياً بنظر المسلمين، ووارثاً حقيقياً لدولة نور الدين [3].

وفي سنة (577هـ/1181م) توفي الملك الصالح إسماعيل، فقرر صلاح الدين التوجه إلى حلب لضمها[4]،فضم الرها، والرقة سنة 578هـ/1182م قبل وصوله لحلب[5]، التي وصلها في سنة 579هـ/1183م، ودخلها بعد الاتفاق مع عماد الدين الثاني[6] الذي حصل على حكم سنجار وتوابعها[7]، على أن تكون قواته ضمن عسكر صلاح الدين في جهاده ضد الصليبيين[8]. وبضم حلب تم انضمام الشام إلى الوحدة مع مصر، لأن حلب هي خط الدفاع الأول لصد الغزاة من الشمال، وقد بُنيت قلعتها لهذا الحساب من قديم، وصارت حلب كلها قلعة، وعين صلاح الدين عليها ابنه الظاهر غازي[9] .

وبعد هذا الانتصار تحرك صلاح الدين نحو المدن الإسلامية لتحريرها من الصليبيين، فكانت طبرية أولى فتوحاته سنة 583هـ/1178م[10] . ثم توجه إلى عكا ففتحها ثم ضم صفورية[11]، وسبسطية[12]، ونابلس، كما فتح ابن أخيه المظفر تقي الدين عمر تبنين[13]، بمساعدة عمه صلاح الدين[14]. واصل صلاح الدين جهوده في ضم المدن والحصون الساحلية، فضم مدن مثل صيدا، وبيروت، وجبيل[15]، ثم توجه لفتح عسقلان متجنباً صور التي أصبحت مركز تجمع الصليبيين في الساحل الشامي، فاستسلمت له[16]، وقد ساعده في فتحها أخوه العادل سيف الدين أبو بكر[17]. ثم ضم مدن أخرى قبل التوجه لتحقيق هدفه الرئيسي في ضم بيت المقدس[18] .

لقد سبق فتح بيت المقدس معركة خلّدها التاريخ، تلكم هي معركة حطين[19]، في سنة 583هـ/1187م[1]، وقد كسب صلاح الدين خلال هذه المدة محبة المسلمين فأخذوا يراسلونه

---

(1) ابن شداد: النوادر، 52 ؛ ابن واصل: مفرج الكروب، 32/2 ؛ الحنبلي: شفاء القلوب، 87 .
(2) البنداري: سنا البرق، 86،88؛ ابن العديم: زبدة الحلب 24/3؛ ابن واصل: مفرج الكروب، 21/2، 23.
(3) نوري: سياسة، 173 .
(4) ابن الأثير: الباهر، 181-182 ؛ ابن شداد: النوادر، 55 ؛ أبو شامة: الروضتين، 75/3، 79 .
(7) المنصور محمد بن تقي الدين عمر الأيوبي: مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق: حسن حبشي، عالم الكتب، (القاهرة، 1968)، 105-106 ؛ ابن واصل: مفرج الكروب، 117/2-118 .
(6) عماد الدين الثاني: أبو الفتح وأبو الجود عماد الدين زنكي بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي، المعروف بصاحب سنجار، ملك حلب بعد ابن عمه الملك الصالح إسماعيل، توفي في سنجار سنة 594هـ/1197م. ابن خلكان: وفيات الأعيان، 330/2-331 .
(7) عماد الدين محمد بن محمد الأصفهاني: البرق الشامي، تحقيق: فالح حسين، ط1، مؤسسة عبد الحميد شومان، (عمان، 1987)، 128/5.
(8) الأيوبي: مضمار الحقائق، 142-145 ؛أبو شامة: الروضتين، 161/3.
(9) الأصفهاني: البرق، 113/5-114 ؛ ابن الأثير: الكامل 496/11 ؛ ابن شداد: النوادر، 59 ؛ البنداري: سنا البرق، 222 ؛ سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، 376/8؛ سيد الأهل: أيام صلاح الدين، 78.
(10) المقريزي: السلوك، 417/1 .
(11) صفورية: كورة من نواحي الأردن بالشام قرب طبرية . الحموي: معجم البلدان، 414/3 .
(12) سبسطية: بلدة من نواحي فلسطين بينها وبين بيت المقدس يومان . الحموي: معجم البلدان، 184/3 .
(13) تبنين: بلدة في جبال بني عامر المطلة على بلد بانياس بين دمشق وصور. الحموي: معجم البلدان، 14/2
(14) طقوش: تاريخ الأيوبيين، 160 .
(15) جبيل: بلد في سواحل دمشق، وهو بلد مشهور في شرقي بيروت . الحموي: معجم البلدان، 109/2 .
(16) ابن الأثير: الكامل، 543/11، 546 ؛ ابن شداد: النوادر، 80.
(17) ابن واصل: مفرج الكروب، 209/2-210 .
(18) ابن الأثير: الكامل، 546/11 ؛ ابن واصل: مفرج الكروب، 211/2 .
(19) حطين: قرية بين ارسوف وقيسارية غرب طبرية يقال بها قبر شعيب ﴿عليه السلام﴾ . الحموي: معجم البلدان، 273/2 .

ويطلبون الانضمام لوحدته، وهذا ما سعى إليه صلاح الدين ليضم القوى الإسلامية هذه في ظل دولة واحدة تحت حكم الشريعة للوقوف بوجه هجمات الصليبيين المتتالية[2] .

سار صلاح الدين إلى بيت المقدس، فوصلها في رجب من سنة 583هـ/1187م، فضرب عليها الحصار، ولما علم الصليبيين عدم قدرتهم طلبوا الأمان، على أن يغادروا بيت المقدس وفق شروط تم الاتفاق عليها، وتسلم صلاح الدين القدس في يوم الجمعة السابع والعشرين من شهر رجب، وأقيمت صلاة الجمعة فيه، وعرف فتحه بالفتح الأكبر[3] .

وهكذا أصبح الجزء الأكبر من بلاد الشام تحت إمرة صلاح الدين، فضلاً عن تأييد الخلافة في بغداد له، وتعينه سلطاناً على مصر والشام، وهذا ما سعى إلى تحقيقه بهدف طرد الصليبيين من المنطقة من خلال توحيد الشام ومصر[4] .

إن صلاح الدين هو الذي أسس الدولة الأيوبية وحفظ على الشام ومصر وحدتهما وتمكن من أن يجعل هذه الوحدة نقطة الانطلاق في تحرير الأراضي الإسلامية وتحطيم الصليبيين ومن بعدهم المغول[5] .

بعد وفاة صلاح الدين عام (589هـ/1192م) شهدت البلاد نزاعات من أجل السيطرة وتوسيع النفوذ وبسبب هذا تكونت أحلاف وقتية بين الملوك الأيوبيين في الشام ومصر ذات تفاصيل معقدة، وفي هذه المرحلة حقق الصليبيين بعض المكاسب[6]، لكن الشام ومصر بقيتا مرتبطتان سياسياً وإدارياً وثقافياً حتى مجيء الغزو المغولي من الشرق وظهور المماليك في مصر .

---

(1) عماد الدين محمد بن محمد الأصفهاني: الفتح القسي في الفتح القدسي، مطبعة الموسوعات، (مصر، د.ت)، 17، 21 ؛ سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، 392/8، 398.

(2) هاملتون جب: دراسات في حضارة الإسلام، ترجمة إحسان عباس وآخرون، ط2، دار العلم للملايين، (بيروت، 1974)، 133 .

(3) الأصفهاني: الفتح القسي، 36، 46 ابن الأثير: الكامل، 546/11، 553 ؛ ابن شداد: النوادر، 81-82 ؛ ابن العديم: زبدة الحلب، 98/3، 100 ؛ أبو شامة: الروضتين، 417/3 ؛ محمد ماهر حمادة: وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي، ط2، مؤسسة الرسالة، (بيروت، 1982)، 120، 150 .

(4) أحمد رضا أحمد: المدارس في بلاد الشام في العصر الأيوبي (570-658هـ/1174-1260م)، رسالة ماجستير غير منشورة، (جامعة الموصل، كلية التربية ، 2008)، 9 .

(5) محمد ماهر حمادة: الوثائق السياسية والإدارية، مؤسسة الرسالة، (بيروت، 1977)، 69/4 .

(6) غانم عبد الله خلف: الحياة العلمية في بلاد الشام على عهد الأيوبيين، أطروحة دكتوراه غير منشورة، (جامعة الموصل، كلية الآداب ، 1995)، 14 .

الفصل الأول

الميدان الإداري

الفصل الأول

الميدان الإداري

كان لضعف الدولة العباسية، وتدهور نفوذ سلطتها المركزية في بغداد، سبباً في انقسام الدولة، وتفكك أجزائها وتحولها إلى دول شبه مستقلة بإدارتها ونظمها، والتي ارتبطت بالخلافة بروابط واهية وضعيفة لا تتعدى العامل الروحي للتأكيد على شرعيتها.

ومن بين هذه الدول التي قامت في مصر والشام الأيوبيين، التي حكمت مدة تقرب من الثمانين عاماً، منذ سقوط الخلافة الفاطمية سنة 567هـ/1171م، وحتى مجيء المماليك للحكم سنة 648هـ/1250م، وتحتل دولة الأيوبيين مكانة بالغة الأهمية في تاريخ الأمة الإسلامية، لابسبب ما حققته في هذه الحقبة من صمود وانتصار على الخطر الصليبي فحسب، بل لما شهدته مصر والشام في هذه المرحلة من تطورات داخلية تركت أثراً عميقاً في صورة المجتمع وحياة الناس من ناحية، وفي التنظيمات الإدارية والحكومية للإقليمين من ناحية أخرى[1].

أولاً: نظام الحكم

أما عن طبيعة النظم الإدارية في دولة الأيوبيين في مصر من حيث الاستحداث والتطوير، فكانت حولها نقطة اختلاف بين المؤرخين، وهذا ما نجده عند كل من القلقشندي (ت821هـ/1418م)، والمقريزي (ت 845هـ/1442م)، الذين أعطيا وجهات نظر ناقض كل واحداً منهما صاحبه بهذا الشأن.

فالقلقشندي يذكر ذلك قائلاً: " أن الدولة الأيوبية لما طرأت على الدولة الفاطمية وخلفتها في الديار المصرية، خالفتها في كثير من ترتيب المملكة، وغيرت غالب معالمها وجرت على ما كانت عليه الدولة الاتابكية عماد الدين بالموصل ثم ولده الملك العادل نور الدين محمود بالشام..."[2]، أما المقريزي فيذكر أنه: " لما انقضت دولة الفاطميين بدخول الغز[3] من بلاد الشام، واستولى صلاح الدين يوسف بن أيوب على مملكة مصر، تغير الحال بعض التغير لاكله..."[4]. فالواضح من خلال ذلك إن الدولة الأيوبية قامت على أساسين تاريخيين هما الدولة النورية في دمشق والدولة الفاطمية في القاهرة [5].

إن الإدارة الأيوبية قامت على أنقاض الخلافة الفاطمية في مصر، وخالفتها في الكثير من نظمها الإدارية، وعملت على تغيير أغلب معالمها، في حين ورثت من السلاجقة والأتابكة أنظمتهم في بلاد الشام وغيرها من الأقاليم التابعة لها. فقيام دولتهم واستمرارها يتطلب إيجاد مؤسسات إدارية تلائم الحاجات الجديدة مع الاستفادة من المؤسسات القديمة في دولتهم الجديدة[6]

---

(1) سعيد عبد الفتاح عاشور: " نظام الحكم والإدارة في عصر الأيوبيين والمماليك"، موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، ط1، دار النفائس، (عمان، 1995)، 335/3.

(2) صبح الأعشى 5/4.

(3) ويقصد بذلك الأيوبيين.

(4) الخطط 250/1.

(5) حسنين محمد ربيع: النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين، مطبعة جامعة القاهرة، (القاهرة، 1964)، 6.

(6) محمود ياسين أحمد التكريتي: الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة، دار الرشيد، (بغداد، 1981)، 319 ؛ محمد نجيب مصطفى نعمان ألبدري: بهاء الدين قراقوش، رسالة ماجستير غير منشورة، (كلية التربية ابن رشد، جامعة بغداد، 2005)، 23.

فالأيوبيين أدخلوا نظماً جديدة تختلف عما كان سائداً أيام أسلافهم الفاطميين، فكانت هذه النظم أكثر ارتباطاً بالسلاجقة وأتباعهم من الأتابكة الزنكيين والنوريين في الشام[1]. وعلى وجه الخصوص النظم التي عمل بها نور الدين محمود في الشام، والتي سار عليها الأيوبيين ومن بعدهم المماليك في مصر بعد انتقالها إلى هناك نحو مزيد من النضج والتخصص والشمول[2].

أما الدولة الفاطمية التي يقلل القلقشندي من تأثيرها، فمن المعروف أنها عمّرت في مصر أكثر من قرنين من الزمان، كانت القاهرة في أثنائها مركزاً لدولة واسعة النطاق امتدادها من أعالي الفرات إلى أقصى بلاد المغرب، لذلك امتلأت العاصمة المصرية الفاطمية بدور حكومية ذات نظم معقدة، وهذه النظم كبيرة ومبنية على خبرة واسعة، فقام صلاح الدين مؤسس الدولة الأيوبية بأخذ ما كان موجوداً منها، واكتفى في الوقت نفسه بإجراء التعديلات الملائمة عليها[3]. بما يتناسب وطبيعة المرحلة الجديدة.

غير إن الفرق من الناحية الإدارية، إن حكومة الفاطميين كانت مدنية، بينما حكومة الأيوبيين حكومة عسكرية[4]، تقليداً لحكومة الشام الزنكية التي انتقلت معظم معالمها إلى مصر في هذا العصر. وقدر لهذه الأسس الجديدة أن تستمر وتظل سائدة في مصر حتى في عصر المماليك عندما حكموا خلفاً للأيوبيين[5].

ولصلاح الدين يعود الفضل في رسم وترسيخ أسس النظم الإدارية للدولة الأيوبية في مصر والشام[6]، وواجهت صلاح الدين في بداية حكمه مشكلة الفرقة في قوى المسلمين، فالدولة التي يتبعها (الزنكية) على غير مذهب الدولة التي يتولى الحكم فيها، ولذا كان لزاماً عليه أن يعد العدة والتدبير للتخلص من الخليفة الفاطمي وإتباعه [7]، فراح يضع المناصب الكبيرة والإدارة في أيدي أهله وذويه وصفوة إتباعه القادمين من الشام، ليجعل منهم ستاراً بشرياً يحميه[8]، وهذا الأمر طبيعي بالنسبة لكل حاكم جديد لكي يضمن مركزه ويقوي سلطته من خلال الاستعانة بهؤلاء المؤيدين والمناصرين له.

ومما يدل على استخدام صلاح الدين للوافدين من الشام إلى مصر في خدمة الدولة والإدارة، هو إنفاقه على الوافدين الغرباء من الغرب إلى مساجد ومشاهد القرافة[9] بالقاهرة، وتوفير مأوى لهؤلاء الغرباء، فيما يترك صلاح الدين للوافدين من الشام إلى مصر يكسبون معاشهم بممارسة ما يلائمهم من الخدمة[10].وسبب انتقال هؤلاء هو حالة الوحدة السياسية بين الشام ومصر آنذاك.

---

(1) عاشور: نظام الحكم 336/3-337 ؛ طقوش: تاريخ الأيوبيين، 211.

(2) حسن الباشا: الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، الدار الفنية للنشر والتوزيع (القاهرة، 1989)، 78؛ عماد الدين خليل: "الجانب الإداري في مملكة نور الدين محمود (541-569هـ=1146-1173م)، مجلة آداب الرافدين، العدد (8)، كلية الآداب، جامعة الموصل، (1977)، 45.

(3) ربيع: النظم المالية في مصر، 9؛ نوري: سياسة، 410.

(4) عبد اللطيف حمزة: الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول، ط8، دار الفكر الحديث، (القاهرة، 1968)، 45.

(5) حسن: مصر في العصور الوسطى، 376 ؛ عاشور: نظام الحكم، 337/3.

(6) ربيع: النظم المالية في مصر، 18.

(7) سلام: الأدب في العصر الأيوبي، 35-36.

(8) أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، ط2، مكتبة النهضة المصرية، (القاهرة، 1972)، 165/5.

(9) القرافة: خطة بالفسطاط من مصر، وقرافة بطن من المعافر نزولها فسميت بهم، وهي مقبرة أهل مصر وبها أبنية جليلة ومحال واسعة، وبها قبر الإمام الشافعي (ﷺ). الحموي: معجم البلدان، 317/4.

(10) منى محمد بدر محمد بهجت: أثر الحضارة السلجوقية في دول شرق العالم الإسلامي على الحضارتين الأيوبية والمملوكية في مصر، ط1، مكتبة زهراء الشرق، (القاهرة، 2002)، 59/1.

وانتقلت العديد من المظاهر الحضارية في الشام إلى مصر، من خلال القواد والجنود والأمراء والعلماء الذين تولوا المناصب المهمة في مصر، حيث تعرضت المنطقة ومن ضمنها الشام للعديد من الحروب مع الصليبيين والمغول، فكانت من أهم دواعي الهجرة إلى مصر بوجه خاص حيث الأمان[1]، على الرغم مما يذكر الدكتور محمد كامل حسين الذي يصف الوافدين من الشام إلى مصر قائلاً: "هم الذين يأكلون على الموائد ولا يعملون إلا لأنفسهم ويحاولون الإفادة من كل تغيير، فهم أتباع كل جديد لا لشيء سوى الإفادة من النظم الجديدة"[2]. ولكن هؤلاء الوافدين رأوا بعيونهم مصر تتدهور وتكاد تقع في أيدي الصليبيين بسبب الأوضاع السياسية والعسكرية الشائعة فيها، ومن ثم فضّلوا إدارة قوية تمثلت لهم في شخص صلاح الدين[3].

ويُعد عهد السلطان العادل (597-615هـ/1200-1218م)، وعهد ابنه الكامل (615-636هـ/1218-1238م)، أزهى عهود التاريخ الأيوبي في مصر والشام بعد عهد صلاح الدين ليس في التاريخ السياسي والجهادي ضد الصليبيين فحسب، بل بالنسبة لنظمهم الإدارية والمالية أيضاً[4]، حيث استمر التقسيم الإداري على ما هو عليه في هذه الفترة، باستثناء عهد السلطان الكامل الذي رأى ضرورة إعادة النظر في الجهاز الإداري بعد أن مضى عليه أربعين سنة منذ أيام صلاح الدين، واستدعى الكامل من أجل ذلك سنة 630هـ/1231م، أعظم الموظفين الماليين في عصره وهو فخر الدين عثمان النابلسي الذي وربما كان يتولى وظيفة شاد الدواوين[5] في ديوان النظر[6].

وقد ظهرت مناصب ووظائف جديدة في مصر زمن الأيوبيين، وتم تطوير وظائف أخرى كانت موجودة من قبل، وهذا الاستحداث والتطوير جاء بفعل رياح التغيير القادمة من الشام بفعل الحالة السياسية الجديدة التي عاشها الإقليمين في ظل حكم الأيوبيين، وانتقال العديد من أبناء الشام إلى مصر بفعل هذا الارتباط السياسي والحضاري بين الإقليمين.

ومن أبرز الميادين الإدارية التي ظهرت وطورت وأبدع فيها الشاميين هي:

1. السلطنة:

هناك اختلاف في اشتقاق كلمة "سلطان" فقيل إنها، مشتقة من الأصل الثلاثي (سَلَطَ) بمعنى الغلبة والقهر، وقيل أنها مشتقة من السليط وهو ما يضاء به.

والسلطان في اللغة، الحجة والبرهان، لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾[7]، وتأتي كلمة سلطان بمعنى الوالي[8]. وفي كتب الحديث معناها قوة الحكومة في الغالب مصداقاً لقول الرسول محمد (ﷺ): (أيما امرأة لم يُنكحها الولي، فنكاحُها باطل، فنكاحها

---

(1) بهجت: أثر الحضارة السلجوقية، 69/1.

(2) دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين، دار الفكر العربي، (د.م ، د.ت)، 10.

(3) هادية دجاني شكيل: القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني العسقلاني، دوره التخطيطي في دولة صلاح الدين وفتوحاته، ط2، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، (بيروت ، 1999)، 135

(4) ربيع: النظم المالية في مصر، 19.

(5) شاد الدواوين:وموضعها في الديار المصرية، وعادته إمرة عشرة، وربما وليها جندي، وولايتها عن النائب النائب بتوقيع كريم، ويكون صاحبها رفيقاً للوزير متحدثاً في استخلاص الأموال. القلقشندي: صبح الأعشى، 22/4، 218.

(6) ربيع: النظم المالية في مصر، 37-38.

(7) سورة هود، آية (96).

(8) أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور: لسان العرب، تحقيق: نخبة من العاملين بدار المعارف، دار المعارف، (القاهرة، د.ت)، 2065/23.

باطل، فنكاحها باطل، فإن أصابها، فلها مهرها بما أصاب منها. فإن اشتجروا، فالسلطان ولي من لا ولى لهُ)[1]. وقد وردت أيضاً في آيات كثيرة في القرآن الكريم[2].

أما من الناحية الفقهية، فكلمة سلطان كان يشار بها إلى الحاكم من حيث هو، لو كان قاضياً حتى كان يقال فيمن ليس لها ولي خاص "يزوجها السلطان"[3]. أما اصطلاحاً فهو اسم خاص في العرف العام بالملوك[4]، ولا يطلق هذا اللقب إلا على من يكون في ولايته ملوك كمصر، أو الشام، أو أفريقية، أو الأندلس، ويكون عسكره عشرة آلاف فارس[5].

وظهر لقب سلطان في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) بمعنى حاكم قوى أو عاهل مستقل على إقليم من الأقاليم، ويمكن القول إنه منذ أن بدء في استعمال هذا اللقب كان جميع الحكام العظام الذين حملوه من أهل السنة مع استثناء الخوارزمية[6]، وخصوصاً ملوك المشرق الذين تغلبوا على الخلفاء العباسيين واستبدوا عليهم، وشاركهم بهذا اللقب ملوك الأطراف والنواحي[7].

وفي الشام كان نور الدين محمود بن زنكي الذي لم يتلقب بالسلطان بادئ الأمر، لأن هذا اللقب كان لمن يملك إقليمين، وهو لم يمتلك سوى إقليم الشام فسمي بالملك، ولما افتتح صلاح الدين مصر وخطب له على منابرها تسمى نور الدين محمود بالسلطان ولذلك قال بعض من امتدحه إذ ذاك:

وملكت إقليمين ثمت ثالثاً فدعيت بعد الملك بالسلطان[8]

أما لقب السلطنة في مصر فلم يعرف إلا في العصر الأيوبي[9]، عندما وحّد صلاح الدين الشام مع مصر بعد وفاة نور الدين محمود[10]، وحصل على لقب "سلطان" من الخليفة العباسي المستضيء بالله (556-575هـ/1170-1179م)، سنة 572هـ/1176م، الذي كان يمنح هذا اللقب لبعض سلاطين السلاجقة[11].

لقد لعب مجموعة من الأشخاص من أمراء وقادة ممن جاءوا من الشام في حملات أسد الدين الهادفة لضم مصر إلى الشام ، دوراً مهماً في إيصال صلاح الدين إلى منصب الوزارة الذي كان باب الدخول إلى منصب السلطنة، ومن أبرز هؤلاء القادة هم: الأمير عز الدين

---

(1) أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني ابن ماجة: سنن ابن ماجة، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب العلمية، (بيروت، د.ت)، 605/1.

(2) كرامرز: مادة "سلطان"، دائرة المعارف الإسلامية، نقلها إلى العربية: محمد ثابت الفندي وآخرون، (د.م،1933)، 82/12.

(3) القلقشندي: صبح الأعشى، 448/5 ؛ باشا: الألقاب الإسلامية، 324.

(4) القلقشندي: صبح الأعشى، 447/5.

(5) جلال الدين عبد الرحمن السيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، دار إحياء التراث العربية، (القاهرة، 1968)، 125/2.

(6) كرامرز: سلطان، 81/12-82، 86.

(7) القلقشندي: صبح الأعشى، 404/9.

(8) تاج الدين أبي نصر عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ط2، دار المعرفة، (بيروت، د.ت)، 13/4.

(9) حسن: مصر في العصور الوسطى،167 ؛ فرانتس تشنر وآخرون: تاريخ العالم العربي، دار صادر، (بيروت، 1975)، 154-155؛ ناصر الأنصاري: المجمل في تاريخ مصر، ط2، دار الشروق، (القاهرة، 1997)، 150 ؛ أحمد فؤاد سيد: تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بني أيوب، ط1، مكتبة مدبولي، (القاهرة، 2002)، 179 ؛ أحمد عوف: أحوال مصر من عصر إلى عصر، العربي للنشر، (القاهرة، د.ت)، 67.

(10) الذهبي: سير، 153/13-154؛ تشنر وآخرون: تاريخ العالم العربي، 154 ؛ عوف: أحوال مصر، 67.

(11) حسن: مصر في العصور الوسطى، 167، 377 .

جرديك المتوفى سنة (592هـ/ 1195م)[1]، والأمير ضياء الدين عيسى بن محمد الهكاري المتوفى سنة (585هـ/1189م)[2]، والأمير بهاء الدين قراقوش المتوفى سنة (597هـ/1200م)[3]، فقربهم السلطان صلاح الدين وأعطاهم المناصب الإدارية في الدولة عرفاناً منه لمواقفهم وإخلاصهم، هذا بالإضافة إلى دور الأمراء النوريين في ذلك[4].

أصبح صلاح الدين حاكماً على مصر وبلاد الشام بعد زوال دولة الفاطميين ووفاة نور الدين محمود، لكنه لم يتخذ لقب "سلطان" بشكل رسمي، وإن كان بعض المؤرخين قد أضفوا عليه هذا اللقب الذي تمسك به خلفاؤه من الأيوبيين ومن بعدهم المماليك، تأكيداً على سيادتهم العليا على الدولة[5]، إلى إن حصل على هذا اللقب من قبل الخليفة العباسي في بغداد، كما حافظ على لقب الملك "الناصر لدين الله" وهو اللقب الذي طغى عليه[6].

أما ما قيل عن عدم وجود أدلة تؤيد تلقب صلاح الدين بالسلطان وخاصة المسكوكات[7]، فان سبب ذلك هو ولاء صلاح الدين ودولته للخلافة العباسية في بغداد بسيادتها الفعلية على العالم الإسلامي[8]، بالإضافة إلى انشغال صلاح الدين بالجهاد ودفع خطر الصليبيين عن مصر والشام.

وبكل الأحوال فان صلاح الدين تلقب بالسلطان وفي عهده استقرت النظم الإدارية للدولة الأيوبية في مصر على نمط الدولة النورية في الشام، فصار هو رئيسها الأعلى ويلقب بالسلطان وصار ولاة أقاليمها من أسرته، وخاصته ومن رافقه من الأمراء الشاميين يلقبون بالملوك[9]، وقد عرفت مصر الكثير من مواكب الاحتفالات في العصر الفاطمي، إلا أنها لم تعرف تقليد (تتويج) السلطنة إلا بعد دخول الأيوبيين لمصر[10]. وهذا ما كان يحدث في الشام أيام الزنكيين من وصول خلع السلطنة والتقليد ومواكب السلطنة الزنكية التي حكمت الشام ثم مصر في آخر أيامها.

أما عن جهاز الحكم في مصر زمن الأيوبيين، فنجد السلطان على رأس هذا الجهاز[11]، مستقلاً في حكمه على الرغم من أنه يدين بالطاعة لخلفاء بني العباس في بغداد، وهذا ما زاد من قدر مصر وقيمتها وملكها[12]، وربما إن ظروف الحكم والحكام في ذلك العصر توحي والانفراد بالسلطة إلا أن ذلك لم يكن من دأب صلاح الدين، فقد ألف الشورى، وكان له من مجلس السلطنة، أعوانه الأمراء والقواد والوزراء كالقاضي الفاضل عبد الرحيم علي بن حسن

---

(1) عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم أبي شامة: الذيل على الروضتين ، تحقيق: إبراهيم شمس الدين ، ط1، دار الكتب العلمية، (بيروت ، 2002)، 18 ؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، 316/4.

(2) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 497/3 ؛ ابن كثير: البداية والنهاية، 334/12.

(3) زكي الدين أبي محمد عبد العظيم بن عبد القوي المنذري: التكملة لوفيات النقلة، تحقيق: بشار عواد معروف، مطبعة الآداب، (النجف، 1969)، 280/2، ؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، 91/4-92.

(4) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 497/3؛ سيد الأهل: أيام صلاح الدين، 70؛ نوري: سياسة، 92.

(5) سعيد عبد الفتاح عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية، (بيروت، 1972)، 135، الأيوبيين والمماليك، 157.

(6) القلقشندي: صبح الأعشى، 272/3، 487/5؛حسن: مصر في العصور الوسطى، 167.

(7) هاملتون ا.ر.جب: صلاح الدين الأيوبي، تحرير: يوسف أيبش، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، (بيروت، 1973)، 193 ؛ كرامرز: سلطان، 84/12.

(8) ذكرى عزيز محمد صالح الصائغ: عصر الملك الكامل الأيوبي، رسالة ماجستير غير منشورة، (كلية الآداب، جامعة الموصل، 1988)، 162.

(9) الداوداري: كنز الدرر، 130/7-140 ؛ السيوطي: حسن المحاضرة، 125/2 ؛ حسن الباشا: الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، دار النهضة العربية، (القاهرة ، 1965)، 150/1.

(10) بهجت: أثر الحضارة السلجوقية، 89/1-90.

(11) غنيم: الدولة الأيوبية، 135 ؛ عاشور: نظم الحكم، 344/3-345.

(12) القلقشندي: صبح الأعشى، 428/3.

بن احمد البيساني المتوفى سنة (596هـ/ 1199م)[1]، والفقهاء والقضاة، مجلس الشورى يستأنس به في الملمات ويرجع إليه كلما استشكل أمراً وأرد الاستفسار عن شيء ما[2]. وهذا ما اكتسبه من خدمته لنور الدين محمود في الشام.

كانت القاهرة مركز حكم الأيوبيين، يقيم فيها النواب والوزراء والموظفين، ومنها تصدر الأوامر إلى مختلف ما يتبعها من أقاليم[3]، أما مركز السلطنة ففي قلعة الجبل (جبل المقطم)[4] التي شرع في بنائها صلاح الدين وأكمل عمارتها نائب السلطة الكامل الأيوبي سنة 604هـ/1207م، فغدت موضع السلطة المركزية في الدولة، ومقر الأجهزة الرئيسية التي تدير شؤون البلاد[5].

فصلاح الدين أول من تولى السلطنة ممن جاؤوا من الشام، صحبة عمه أسد الدين شيركوه[6]، رغم أنه ولد في تكريت، إلا أنه اكتسب الثقافة التي كانت سائدة في الشام بحكم إقامته في بعلبك التي تولى إمارتها أبوه نجم الدين. حيث تأثر بالجماعة التي عاش بينها هناك، وأصبح في النهاية قائداً لها، كما أنه أثر في هذه الجماعة أيضاً[7]، التي لعبت دوراً حضارياً في مصر بعد دخولهم إليها.

وأبرز من تولى منصب السلطنة بعد صلاح الدين أخوه الملك العادل بن أيوب الذي ولد في بعلبك ودخل مصر مع عمه وأخيه وله أعمال كثيرة في مصر[8]. وبعد وفاته جاء ابنه الكامل الذي عرفت مصر في عهده تطوراً كبيراً في الميدان الإداري والحضاري[9]. أما آخر أبرز سلاطين الدولة الأيوبية في مصر فكان الصالح نجم الدين أيوب (638-647هـ/1240-1250م) الذي تولى السلطنة بعد وفاة أبيه الكامل، وله أعمال وإنجازات عظيمة في مصر[10].

2. نائب السلطنة:

تُعد من الوظائف الهامة التي ارتبطت في ظهورها إلى حد كبير بمنصب السلطان [11]، ونائب السلطنة "يحكم بما يحكم السلطان، ويعلم في التقاليد والمناشير وغير ذلك"[12]، أي أنه

---

(1) سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، 472/8-473 ؛ المنذري: التكملة، 209/2-211 ؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، 158/3-162 ؛ الذهبي: سير، 183/13-184 ؛ السبكي: طبقات الشافعية، 253/4-254.

(2) سلام: الأدب في العصر الأيوبي، 37.

(3) سيد الأهل: أيام صلاح الدين، 93.

(4) المقطم: وهو الجبل المشرف على القرافة مقبرة فسطاط مصر والقاهرة، ويمتد جبل المقطم من أسوان وبلاد الحبشة على شاطئ النيل الشرقي حتى يكون منقطعة طرف القاهرة وفيه صوامع ومساجد وسمي مقطم وهو من القطع لأنه ليس فيه شجر ولا نبات. الحموي: معجم البلدان، 176/5.

(5) عاشور: نظم الحكم، 349/3-350.

(6) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 139/7، 151 ؛ المقريزي: السلوك، 41/1، 48.

(7) شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي، 170/5.

(8) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 74/5، 78 ؛ الذهبي: سير، 351/13، 353 ؛ محيي الدين عبد القادر بن محمد ألنعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق: جعفر الحسني، ط2، مكتبة الثقافة الدينية، (القاهرة، 2006)، 359/1-360 ؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، 65/5.

(9) المنذري: التكملة، 270/6 ؛ الذهبي: سير، 358/13-360 ؛ صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي: الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، ط1، دار إحياء التراث العربي، (بيروت، 2000)، 158/1.

(10) الذهبي: سير، 203/14-206.

(11) القلقشندي: صبح الأعشى، 16/4 ؛ بهجت: أثر الحضارة السلجوقية، 84/1.

(12) تاج الدين عبد الوهاب علي بن يوسف السبكي: معيد النعم ومبيد النقم، ط2، دار الحداثة، (بيروت،1985)، 21.

على درجة واسعة من النفوذ، يمارس الحكم كما يمارسه السلطان، ولم تكن هذه الوظيفة موجودة أيام الفاطميين بل ظهرت زمن الأيوبيين، وكان السلطان صلاح الدين أول من استحدث هذه الوظيفة[1].

ولما كان السلطان صلاح الدين كثير التغيب عن مصر بأمر الجهاد ضد الصليبيين بالشام، فلا بد أن يترك شخصاً يعتمد عليه في حكم البلاد وإدارة شؤونها أثناء غيابه عنها، لذلك تم استحداث هذه الوظيفة التي استمرت طيلة حكم الأيوبيين ومن بعدهم المماليك[2].

ليس من الضروري أن يكون النائب في مصر يحكم كل البلاد،بل قد يكون هناك نائب في كل مدينة من مدن مصر،فيكون بذلك أشبه بنظام الولاة،فقد أدى نظام اللامركزية الذي اتبعه الأيوبيين بمصر إلى ظهور مراكز إدارية وثقافية،كالقاهرة والإسكندرية ودمياط وغيرها من المدن [3].

ويختار نائب السلطنة من الأمراء المتقدمين، للإشراف العام على المدن والقلاع التي يعينون فيها أو مركز السلطنة التي يرحل عنها السلطان[4]، فليس هناك اختلاف كبير في تراتيب الإدارة بين ما يسمى النائب أو الوالي أو الأمير المقطع، فكل واحد من هؤلاء ينوب عن السلطان في مدينته أو المنطقة التي أقطعت له، ولاسيما النيابة عنه في الأمور العسكرية، لذا اعتبر النائب من أرباب السيوف، وان كان هذا التصنيف قد أصبح أكثر وضوحاً في الفترات اللاحقة، وخلطت بعض المصادر في تصويرها لمؤسسة النيابة، وخاصة غير المعاصرة منها، فاعتبرت أن نائب السلطنة هو منفصل انفصالاً تاماً عن باقي التراتيب الأخرى[5].

ومن نواب السلطنة في مصر، النائب الكافل[6]، ونواب الوجه البحري، والقبلي والإسكندرية وهؤلاء النواب لا تصدر عنهم الولاية بتاتاً، لأن التولية والعزل كانت من اختصاص السلطان حصراً[7]، ولكنه كان يشترك مع السلطان في منح لقب الإمارة، وتوزيع الاقطاعات وتعيين الموظفين، ويعرض عليه كشفاً بأسماء الأشخاص الذين يرى وجوب ترشيحهم للمناصب المختلفة، فيقر السلطان ذلك[8].

وتولى منصب نائب السلطنة في مصر مجموعة من الأمراء والقواد المقربين من السلطان ممن جاءوا من الشام، ومنهم: الملك العادل الأيوبي أخو السلطان صلاح الدين، حيث كان السلطان يستشيره ويعتمد على رأيه وعقله ودهائه، في إدارة الدولة، ولم يكن يقدم عليه أحد في الكثير من الأمور التي تخص الدولة[9]، وقد استنابه السلطان على مصر عندما سار إلى الشام سنة 570هـ/1174م[10]، وأما عن سبب توليته لمصر فيذكر البنداري ذلك قائلاً: "وكان الملك العادل سيف الدين أبو بكر أخو السلطان على عادته في تولي الديار المصرية مستمراً، ولأمورها بفضل سياسته وحسن رعايته ممراً، وهو مستقل بالأمر والنهي يولى ويلعى وينزل، وهو سلطان الديار المصرية على الحقيقة ومرتب أمورها الجليلة والدقيقة. والسلطان بالشام

---

(1) عاشور: نظم الحكم، 359/3 ؛بهجت: أثر الحضارة السلجوقية، 84/1.

(2) حمزة: الحركة الفكرية، 48؛ عاشور: مصر والشام، 135، نظم الحكم، 359/3 ؛ غنيم:الدولة الأيوبية ، 135.

(3) ابن واصل: مفرج الكروب، 300/3-301 بهجت: أثر الحضارة السلجوقية، 82/1.

(4) الباشا: الفنون الإسلامية، 1230/3 ؛ ألبدري: بهاء الدين قراقوش، 29.

(5) السيوطي: حسن المحاضرة، 130/2 ؛ خالد سليمان حمد بني عبد الرحمن: إدارة بلاد الشام في العصر الأيوبي، أطروحة دكتوراه غير منشورة، (كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، 1997)، 36.

(6) النائب الكافل: وهو أعلى نواب السلطان مرتبةً، فهو على درجة عالية وواسعة من النفوذ ؛ فهو يحكم في كل ما يحكم فيه السلطان. عاشور: نظم الحكم، 359/3.

(7) القلقشندي: صبح الأعشى، 280/12 ؛ الباشا: الفنون الإسلامية، 1231/3.

(8) الأنصاري: المجمل، 150 ؛ خليل: الجانب الإداري، 59.

(9) الذهبي: العبر، 167/3 ؛ ألنعيمي: الدارس، 359/1 ؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، 65/5.

(10) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 74/5 ؛ الذهبي: سير، 351/13 ؛ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 161/6.

في مهام ا لإسلام..."[1] أي انه النائب الكافل في مصر ويحكم بما يحكم به السلطان، فهو أشبه بالسلطان في غياب السلطان الرسمي الناصر صلاح الدين.

تولى منصب نائب السلطنة في مصر بعد العادل، تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين المتوفى سنة (587هـ/1191م)، بعد تعيين العادل على حلب[2] وزاد السلطان من إقطاعه بالشام إقطاعاً في مصر وأنعم عليه بأعمال الفيوم[3] ونواحيها وأبقى له مدينة حماة وقلعتها وجميع أعمالها [4].

وممن عمل نائباً في مصر، الملك المعظم توران شاه بن أيوب، أخو السلطان صلاح الدين، وأكبر منه سناً، الذي سار من الشام إلى مصر وعُين نائب عن السلطان صلاح الدين في الإسكندرية وبقى عليها إلى إن توفي سنة 576هـ/1180م بالقولنج[5].

وفي سنة 572هـ/1176م تولى الأمير صارم الدين خطلبا بن موسى الكاملي منصب النيابة عن السلطان صلاح الدين في ولاية القاهرة، ثم أضيفت له ولاية الفيوم في سنة 577هـ/1181م، ثم عزل عن الفيوم، وسار إلى اليمن وتولاها، ثم عاد إلى القاهرة وأصبح من الأمراء فيها، وتوفي في أيام الملك الكامل بن العادل الأيوبي سنة (635هـ/1237م)[6]. وممن تولى منصب نائب السلطنة في مصر في أثناء تواجد السلطان صلاح الدين بالشام، الأمير سيف الدولة بن منقذ المتوفى سنة (589هـ/1193م) [7].

وممن اختصه صلاح الدين بهذا المنصب الفقيه عيسى بن محمد بن عيسى بن أحمد بن محمد الهكاري، الذي رحل إلى مصر مع أسد الدين شيركوه، ولما تولى صلاح الدين السلطنة اعتمد عليه في كثير من الأمور الإدارية في مصر، ولم يخالف السلطان رأيه، حيث كان يخاطب السلطان صلاح الدين بما لا يقدر عليه غيره من الكلام، كما كان واسطة خير حيث انتفع به الناس بحكم جاهه ومكانته. ولم يزل في منصبه ومكانته إلى أن توفي سنة (585هـ/1189م) [8].

ومن الأمراء المقربين من السلطان صلاح الدين ممن اعتمد عليهم في تسيير أمور دولته وتثبيت أركانها، الأمير بهاء الدين قراقوش بن عبد الله ألأسدي، الذي استنابه السلطان صلاح الدين في مصر[9]، وكان بهاء الدين يمتلك الشهامة والشجاعة والمقدرة الإدارية، وله أعمال عظيمة في مصر على الرغم مما قيل وكتب عنه من قبل بعض المؤرخين الذين نسبوا له القصص المكذوبة، فالأسعد بن مماتي[10] مثلاً، له كراس سماه "الفاشوش في أحكام قراقوش" أشياء مكذوبة نسبت لقراقوش، لو صحت لما اعتمد السلطان صلاح الدين عليه في إدارة دولته[11]، فبهاء الدين قراقوش يمتلك حظاً وافراً من الثقافة والإدارة والعلاقات الاجتماعية

---

(1) البنداري: سنا البرق، 233.

(2) البنداري: سنا البرق، 234 ؛ الذهبي: سير، 107/13 ؛ ألنعيمي: الدارس، 216/1، 219.

(3) الفيوم: ولاية غربية بينها وبين الفسطاط أربعة أيام وهي أخصب بلاد الله وقيل أنها سميت فيوم لأن خراجها ألف دينار كل يوم. الحموي: معجم البلدان، 286/4؛محمد بن عبد المنعم الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، دار القلم، (بيروت، 1984)،445.

(4) البنداري: سنا البرق، 234.

(5) ابن كثير: البداية والنهاية، 306/12 ؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، 255/4-256.

(6) المقريزي: الخطط، 643/2 ، السلوك، 72/1.

(7) الأصفهاني: الفتح القسي، 344 ؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، 144/4، 146.

(8) أبو شامة: الروضتين،65/4 ؛ابن خلكان: وفيات الأعيان، 497/3 ؛ ابن كثير: البداية والنهاية، 334/12.

(9) المنذري: التكملة، 280/2 ؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، 91/4 ؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، 312/42.

(10) الأسعد بن مماتي: أبو المكارم أسعد بن الخطير مهذب الدين بن مينا بن مماتي، الكاتب، ناظر النظار بمصر له مصنفات عديدة توفي سنة 606هـ/1209م. الذهبي: سير، 264/13.

(11) الذهبي: تاريخ الإسلام، 312/42 ؛ الصفدي: الوافي، 166/24.

من إدارة القصور السلطانية والمدن التي تولاها نائباً عن السلطان في مصر[1]، كما إن الأعمال الإدارية التي كلف بها بهاء الدين قراقوش كانت بظروف عصيبة تعطي دليلاً ملموساً على أنه كان يمتلك من فن الإدارة الشيء الكثير وأنه أهلاً لها[2].

كما ناب بهاء الدين قراقوش عن الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين المتوفى سنة(595هـ/1198م)، في حكم الديار المصرية، على الرغم من الأوضاع السياسية السيئة في الشام ومصر في تلك الفترة، إلا أن الأمير قراقوش كان أهلاً لهذه المهمة والجدير بها، حتى إن الملك العزيز لما مات أوصى بأن يكون وصياً على من يتولى الحكم من بعده[3]. وظل بهاء الدين قراقوش يتولى المناصب الإدارية في البلاد المصرية إلى أن توفي فيها سنة (597هـ/1200م) [4].

وناب في حكم الإسكندرية أبو الحسن علي ابن المفضل المقدسي المتوفى سنة(611هـ/1214م)' الذي رحل من الشام إلى مصر سنة 574هـ/1178م[5].

وعندما تولى الملك العادل منصب السلطنة، نصّب ابنه الكامل ناصر الدين محمد نائباً للسلطنة في مصر، واقطعه الشرقية[6]. كما ناب الفقيه ابن البياع عبد المحسن بن نصر الشامي، في الحكم بأعمال مصر إلى وفاته سنة (621هـ/1224م)[7]. كما تولى علي بن أبي الفتح نصر الله بن الحسن بن أبي علي ألكلابي الدمشقي نيابة السلطنة بمصر، والقاهرة مدة ثم تم عزله، وتوفي في القاهرة سنة (635هـ/1237م)[8].

وتولى الأمير فخر الدين إياز بن عبد الله البانياسي النيابة عن السلطان بمصر في عهد السلطان العادل والكامل[9]. وفي عهد السلطان الصالح نجم الدين أيوب تولى فخر الدين بن شيخ الشيوخ، النيابة، ولما قُتل السلطان نجم الدين قدمه الأمراء للسلطنة لكنه امتنع، وسبب تقديمه لما عرف عنه من خبره ودور كبير في إدارة البلاد أيام حكم السلطان الصالح نجم الدين أيوب[10].

3. الوزارة:

تعتبر الوزارة من أسمى الرتب السلطانية، فهي ليست من محدثات الإسلام بل هي فارسية الأصل اتخذها المسلمون في عهد الدولة العباسية[11].

وعرفت مصر الوزارة أيام الفاطميين، وكان شاغلها تارة من أرباب السيوف وتارة من أصحاب الأقلام[12]، ويلاحظ المكانة التي كان يتمتع بها الوزير في العصر الفاطمي الأول 487هـ/972-1094م)، غير إن تلك المكانة لم تلبث أن تبدلت ولاسيما في العصر الفاطمي الأخير

---

(1) ألبدري: بهاء الدين قراقوش، 18.
(2) ألبدري: بهاء الدين قراقوش، 64.
(3) الذهبي: سير ، 157/13؛ ألبدري: بهاء الدين قراقوش، 31.
(4) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 92/4 ؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، 312/42 ؛ المقريزي: السلوك، 158/1.
(5) المنذري: التكملة، 15/4، 17-18 ؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان ، 290/3_292؛ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي: طبقات الحفاظ، تحقيق: على محمد عمر، ط1، مكتبة وهبة، (القاهرة، 1973)، 489- 490.
(6) المقريزي: الخطط، 467/3، 475.
(7) الذهبي: تاريخ الإسلام، 68/45 ؛ السبكي: طبقات الشافعية، 132/5.
(8) المنذري: التكملة، 255/6.
(9) المنذري: التكملة، 162/6.
(10) الذهبي: سير، 153/14-154.
(11) توفيق اليوزبكي: الوزارة نشأتها وتطورها في الدولة العباسية، مطبعة الإرشاد، (بغداد، 1970)، 19، 24.
(12) القلقشندي: صبح الأعشى، 478/3.

(465-567هـ/1093-1171م)، بمعنى أن الوزارة أصبحت وزارة تفويض[1] بعد أن كانت وزارة تنفيذ[2].

وقد قبض أمير الجيوش بدر الجمالي على زمام السلطة سنة 465هـ/1072م، وظل في مصر إلى أن مات في نهاية خلافة المستنصر (427-487هـ/1035-1094م) سنة (588هـ/1192م)، فتولى الوزارة بعده ابنه الأفضل الذي استبد بالسلطة حتى أصبح المستنصر في عهده كالمحجور عليه حتى مات[3].

وكان النزاع الذي قام بين الخلفاء والوزراء من مميزات العصر الفاطمي الأخير، نتيجة تولي الأطفال لمنصب الخلافة في هذه الدولة، وقد بلغ من ازدياد سلطة الوزير في هذا العصر أن أضيف إلى ألقابه ألقاب تدل على هذا المعنى... وفي آخر عهد الخليفة الفاطمي العاضد (555-567هـ/1160-1171م)، تقلد الوزارة أسد الدين شيركوه بعد أن قتل شاور بأمر نور الدين محمود بن زنكي. ولكن شيركوه مات بعد أن حكم شهرين، وخلفه ابن أخيه صلاح الدين، الذي تلقب بالملك الناصر بعد أن قضى على الدولة الفاطمية وأسس الدولة الأيوبية في مصر[4]، "فصارت سلطنة مصر متوارثة في بني أيوب، وانقرضت منها الخلافة ووزارتها"[5]. وبذلك تكون مصر قد انتقلت من طور إلى طور جديد في ميدان الإدارة ونظام الحكم.

فمن الثابت تاريخياً أن إنشاء وظيفة نائب السلطنة في العصر الأيوبي قد أضعف من أهمية الوزير، وذلك لغلبة إدارة الولاة الإقطاعية والصلاحيات الكبيرة التي تمتع بها صاحب النيابة السلطانية[6].

وإذا كان صلاح الدين قد اعتمد على وزيره القاضي الفاضل ووثق به وعهد إليه بكثير من الأمور، فإن خلفاء السلطان صلاح الدين استغنوا في كثير من الأحيان عن وظيفة الوزير، حتى أصبح هذا المنصب شاغراً في فترة سلطنة العادل دون أن يعين أحداً، واستمر هذا الأمر في عصر الأيوبيين، وازدادت مكانة الوزير انحطاطاً في عصر سلاطين المماليك[7].

وسبب ذلك هو المؤثرات التي قدمت من المشرق، والتي دخلت مصر بدخول الأيوبيين إليها وظهور مناصب ووظائف جديدة لم تعرفها مصر من قبل، ومن أبرزها السلطنة ونائب السلطنة[8].

وأول من تولى منصب الوزارة في مصر أيام الأيوبيين ممن هم من الشام، هو القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي بن الحسن بن أحمد بن المفّرج اللخمي البيساني، ولاه السلطان

---

(1) وزارة التفويض: هي أن يستوزر الخليفة رجلاً يفوض إليه تدبير الأمور برأيه وإمضاءها على اجتهاده. أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ط3، دار الكتب العلمية، (بيروت، 2006)، 28؛ جرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي، ط2، دار مكتبة الحياة، (بيروت، د. ت)، 154/1.

(2) وزارة التنفيذ: والناظر فيها مقصور على تنفيذ ما يراه الخليفة، فيكون الوزير واسطة بين الخليفة وبين الرعية. الماوردي: الأحكام السلطانية، 29-30 ؛ زيدان: تاريخ التمدن، 155/1.

(3) الذهبي: تاريخ الإسلام، 33/236-237.

(4) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ط14، دار الجيل، (بيروت، 1996)، 4/314-315.

(5) عبد الله بن إبراهيم الحجازي وآخرون: النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة، تحقيق: حسين نصار، دار الكتب، (بيروت، 1970)، 362.

(6) القلقشندي: صبح الأعشى، 28/4، عاشور: الأيوبيون والمماليك، 157؛ عبد الرحمن: إدارة بلاد الشام، 111.

(7) عاشور: نظم الحكم، 360/3.

(8) القلقشندي: صبح الأعشى، 404/9.

صلاح الدين الوزارة في دولته، وكان قريب من السلطان يستشيره في كثير من أمور الدولة[1]، وكان السلطان يقول: "لا تظنوا أني ملكت البلاد بسيوفكم، بل بقلم الفاضل"[2]. كما كان يقوم بأغلب الشؤون الإدارية في البلاد نيابة عن السلطان وباسمه، لاسيما عندما كان السلطان في الشام[3]. واستمر القاضي الفاضل وزيراً في مصر بعد وفاة السلطان صلاح الدين، فوزر للملك العزيز بن صلاح الدين، ثم لولده الملك المنصور[4]، إلى أن مات سنة(596هـ/1199م)[5].

وفي أيام الملك العزيز بن صلاح الدين، تولى منصب الوزارة يوسف بن الصالح أبي علي الحسين بن محمد بن الحسين الدمشقي، المعروف بابن المجاور، وكان ابن المجاور قد اتخذ مكتباً على باب جامع دمشق يعلم فيه الصبيان، فأعجب العزيز بطريقة تدريسه فجعله مدرساً له، ثم عينه وزيراً له في نيابته عن أبيه بمصر، ولما مات السلطان صلاح الدين فوّض العزيز إليه جميع أمور دولته[6]، "فاستبد بالسلطنة وكان أهلاً لذلك، لما جمع من الفضائل والآداب ومكارم الأخلاق"[7]. توفي ابن المجاور سنة(600هـ/1203م)[8].

وظل منصب الوزارة شاغراً في عهد الملك العادل، بعد أن أقال الوزير الصاحب صفي الدين عبد الله بن علي بن شكر، حتى مات سنة(622هـ/1225م)[9]. ولما جاء ابنه الملك الكامل إلى منصب السلطنة أقام معين الدين أبو علي الحسن بن محمد بن عمر بن علي بن شيخ الشيوخ الدمشقي، نائب الوزارة، وعظم شأن معين الدين في ظل الدولة الكاملية في مصر، ولما تولى الصالح نجم الدين أيوب السلطنة استوزره في دولته في مصر سنة 638هـ/1240م، وعظم شأنه وظل في منصبه إلى إن توفي سنة(643هـ/1245م)[10]. وفي الأيام الأخيرة لدولة الأيوبيين في مصر تولى منصب الوزارة فيها، الصفي بن مرزوق إبراهيم بن عبد الله بن هبة الله العسقلاني، المتوفى سنة(659هـ/1260م)[11].

4. وظائف أخرى:

بالإضافة إلى الوظائف السابقة وجدت وظائف أخرى في الدولة الأيوبية، بعضها يختص بالبلاط والبعض الآخر يختص بالدواوين[12].

---

(1) الصفدي: الوافي، 201/18، 205 ؛ ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات: تاريخ ابن الفرات، تحقيق: حسن محمد الشماع، دار الطباعة الحديثة، (البصرة، 1969)، 187/2.

(2) سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، 472/8 ؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 156/6.

(3) سيد الأهل: أيام صلاح الدين، 93 ؛حمادة: الوثائق السياسية، 85/4.

(4) الملك المنصور: ناصر الدين محمد تولى السلطنة بمصر وعمره تسع سنين وأشهر، بعهد من أبيه وقام بأمور الدولة بهاء الدين قراقوش: خلعه العادل من سلطنته سنة 596هـ/1199م. المقريزي: الخطط، 119/3.

(5) الصفدي: الوافي، 202/18 ؛ السيوطي: حسن المحاضرة، 216/2.

(6) المنذري: التكملة، 41/3-42 ؛ أبو شامة: الروضتين، 236/3 ؛ أبو الحسن علي بن موسى الأندلسي بن سعيد: الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ط2، دار المعارف، (القاهرة، 1967)، 19/1 ؛ الترمانيني: أحداث التاريخ الإسلامي، 677/3.

(7) ابن سعيد: الغصون اليانعة، 19/1.

(8) المنذري: التكملة، 41/3 ؛ أبو شامة: الروضتين، 236/3.

(9) الذهبي: سير، 32/14-33 المقريزي: السلوك، 192/1-193.

(10) ابن واصل: مفرج الكروب، 277/5 ؛ الذهبي:سير، 153/14 ؛ المقريزي: الخطط، 439/2.

(11) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، 297/5.

(12) عاشور: مصر والشام،13؛ صفوان طه حسن: تاريخ الأيوبيين والمماليك،ط1، دار الفكر، (عمان،2010)، 123.

وقد انقسم الموظفون في ذلك العصر إلى قسمين كبيرين هما: أرباب السيوف، وأرباب القلم. أما أرباب السيوف فكانوا من الأمراء، في حين كان أرباب القلم من العلماء والفقهاء من المشتغلين بالكتابة والقلم[1].

وبدخول الدولة الأيوبية على مصر، وتسلم صلاح الدين لمنصب السلطنة، عمل على تغيير النظام الوظيفي السائد في مصر، وتحويله إلى نظام جديد على نمط النظم الوظيفية في الشام، فعمل أولاً على إبعاد الموظفين الموالين للحكم الفاطمي، ونصّب مكانهم إخوته ووالده، وموظفين آخرين من الشام، وولى عليهم مملوكه بهاء الدين قراقوش. وكان هدف صلاح الدين الحفاظ على أمن الدولة الجديدة[2].

وكان الأمراء يشغلون المناصب العسكرية المهمة في تلك الفترة سواء في الشام أو في مصر[3]، وآخرين منهم تولوا وظائف البلاط والحاشية في القصر السلطاني، ولم يكن للشعب سوى نصيب ضئيل فيها، كذلك لم يكن للنساء حق في الوظائف. ويلاحظ أن للأمراء أصحاب الوظائف الرئيسية أشعره خاصة تعرف باسم "ألرنوك"[4]. ويلاحظ كذلك وجود وظائف جديدة في مصر خلال العصر الأيوبي، بالإضافة للوظائف التي كانت سائدة فيها، والتي تم تطوير بعضها وتعديل البعض الآخر، بما يتلائم وطبيعة المرحلة الجديدة وقد لعب الأمراء والقادة دوراً بارزاً في إدارة هذه الوظائف وتطويرها بالإضافة إلى دور الموظفين الذين كانوا يديرونها. وكان على رأس كل من هذه الوظائف التي سنذكرها موظف كبير يعاونه عدد كبير من الموظفين لكل واحد منهم اختصاص محدود[5].

كانت قلعة الجبل التي شرع في بنائها صلاح الدين مقراً للإدارة الجديدة في البلاد ومركزاً لها، وكان القصر السلطاني منظماً تنظيماً دقيقاً، فقد كان يحتوي عدة بيوت (خانات أو إدارات) لكل منها مهمة خاصة بها، ويقوم بإدارتها موظفون معينون[6]. وكان على هذه القلعة ولاّة، أحدهما والي القلعة، وهو أمير طبلخاناه[7]، وله التحدث على باب القلعة الكبير الذي يخرج منه العسكر ويدخلون، والآخر والي باب القلعة، وهو أمير عشرة، وله سلطة على باب القلعة كسلطة والي القلعة[8].

ومن وظائف البلاط وظيفة الحاجب، الذي يقوم بإدخال الناس على السلطان، ووظيفة الاستادار[9]، الذي ينظر في إدارة البيوت السلطانية، ووظيفة الدوادار[10] الذي يقوم بإبلاغ ورفع

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 4/14-39 ؛ عاشور: نظم الحكم، 358/3.

(2) نوري: سياسة، 410 ؛ الترمانيني: أحداث التاريخ الإسلامي، 471/3 ؛ عمر الاسكندري و أ.ج. سفدج: تاريخ مصر إلى الفتح العثماني، ط2، مكتبة مدبولي، (القاهرة، 1996)، 243.

(3) الباشا: الفنون الإسلامية، 153/1.

(4) ألرنوك: هي كلمة فارسية الأصل ، مفردها (رنك) بمعنى أون ، استعملت في العصور الوسطى للدلالة على الاشعرة. حسن: مصر في العصور الوسطى ، 399.

(5) حسن: مصر في العصور الوسطى، 399.

(6) حسن: مصر في العصور الوسطى، 398.

(7) طبلخاناه: وهي كلمة فارسية يقصد بها فرقة الموسيقى السلطانية، والطبلخاناه هي طبول متعددة معها أبواق وزمر، ومعناها بيت الطبل. القلقشندي: صبح الأعشى، 8/4، 13.

(8) القلقشندي: صبح الأعشى، 23/4.

(9) الاستادار: هي كلمة فارسية مركبة من "استذ" بمعنى الأخذ و"دار" بمعنى" ممسك فيكون معناها الكلي "ممسك الأخذ" أو "متولي قبض المال". القلقشندي: صبح الأعشى، 457/5 ؛ الباشا: الفنون الإسلامية، 39/1.

(10) الدوادار: وتتألف من كلمتين "دواة" العربية وهي ما يكتب منه، "ودار" الفارسية بمعنى ممسك، والمعنى الكلي ممسك الدواة أو الموكل بالدواة ويقصد بذلك الموكل بدواة السلطان أو الأمير. الباشا: الفنون الإسلامية، 519/2.

القصص إلى السلطان والحصول على توقيعه على المراسيم والمناشير السلطانية[1]. وأبرز من تولى منصب الاستادار من القادمين إلى مصر فخر الدين أبو الفتح عثمان بن قزل البارومي، ولد بحلب سنة 551هـ/1156م، وكان من خيار الدولة الأيوبية في عهد الملك الكامل وله أعمال كثيرة في مصر، توفي سنة(629هـ/1231م)[2]. ويتولى الخازندار[3]، مهمة الإشراف على حفظ ما يأمر الاستدار بجلبه إلى البيوت السلطانية من المؤن والكساوى والصرف منه على قدر حاجة تلك البيوت فهو بمثابة مدير مخازن البيوت السلطانية[4].

ومن الوظائف الأخرى التي عرفتها مصر وظيفة أمير أخور، ومعناها القائم على أمر الدواب من خيل وبغال وإبل وغيرها في الاصطبلات السلطانية في دولة خوارزمشاه والسلاجقة في المشرق، ويسكن صاحب هذه الوظيفة باصطبل السلطان[5]، وهو اسم مركب من لفظة "أمير" العربي ولفظة "أخور" الفارسية ومعناها المعلف[6]، ويتضح من التركيب اللغوي لاسم هذه الوظيفة أنه انتقل إلى الأيوبيين عن طريق الأتابكة الزنكيين في الشام والسلاجقة، كما هو الحال في كثير من الألقاب المماثلة المركبة من ألفاظ عربية وأخرى فارسية. على إن هذا الاسم لم يعرف في الدولة الفاطمية ولكن كان يقوم بالمهمة نفسها موظف يسمى رائض[7].

وهناك وظيفة إمرة جاندار التي يتولاها أميرجاندار[8]، وهو المتسلم لباب السلطان، ويتقدم على الأمراء عند دخولهم الديوان، وإذا أراد السلطان تعزير أحد أو قتله يكون ذلك على يد أميرجاندار وهو الذي يقدم البريد إذا قدم معه الدوادار، "وصاحب هذه الوظيفة يطوف بالزفة حول السلطان في سفره"[9]. وظهرت هذه الوظيفة وتسميتها في مصر في العصر الأيوبي، أما قبل ذلك فان اسم الوظيفة كان جاندار[10]. أما وظيفة إمرة علم ومهمة صاحبها الإشراف على الأعلام السلطانية والطبلخاناه وموظفيها وآلاتها من طبول وأبواق، والتصرف في أمرها، ومن مهماته أيضاً حث العسكر على الإقدام والمبارزة أو الكف حسب ما يقتضيه الحال[11]. وقد ظهرت هذه الوظيفة في عصر السلاجقة، وانتقلت إلى الشام، إلى الأتابكة الزنكيين ثم إلى الأيوبيين في مصر ومن بعدهم المماليك وجرى عليها ما جرى على سائر الوظائف من تطوير وتنظيم[12]. وهناك وظيفة الجاشنكيريه وصاحبها الجاشنكير[13]، ومهمته تذوق الطعام قبل تقديمه

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 4/19-20 ؛ المقريزي: الخطط، 3/87-88 ؛ عاشور: مصر والشام، 136.

(2) المنذري: التكملة، 6/43 ؛ الصفدي: الوافي، 19/331 ؛ المقريزي: الخطط، 3/448.

(3) الخازندار: واللفظ مؤلف من كلمتين الأولى "خزانة" العربية، و"دار" الفارسية بمعنى ممسك ؛ والمعنى الكلي الموكل بالخزانة والمتولي أمرها. القلقشتندي: صبح الأعشى، 5/457، 463.

(4) القلقشندي: صبح الأعشى، 4/21 ؛ حسن: مصر في العصور الوسطى، 400.

(5) السبكي: معيد النعم، 37؛ القلقشندي: صبح الأعشى، 4/18-19.

(6) السبكي: معيد النعم، 37 ؛ القلقشندي: صبح الأعشى، 5/461-339/7.

(7) الباشا: الفنون الإسلامية، 1/175.

(8) أمير جاندار: اسم هذه الوظيفة يتألف من ثلاث كلمات:أمير العربية، وجان الفارسية التركية ومعناها الروح، ودار الفارسيةومعناها ممسك، والمعنى الكلي الأمير الممسك للروح. القلقشندي: صبح الأعشى، 4/20، 59، 5/461.

(9) القلقشندي: صبح الأعشى، 4/10 ؛ المقريزي: الخطط، 3/87.

(10) الباشا: الفنون الإسلامية، 1/196.

(11) السبكي: معيد النعم، 37 ؛القلقشندي: صبح الأعشى، 4/22، 5/456.

(12) الباشا: الفنون الإسلامية، 1/242.

(13) الجاشنكير: هو اسم مركب من لفظين فارسيين: أحدهما "جاشنا" أو "جاشنى" ومعناه الذوق، والثاني ومعناه المتعاطي، فيكون المعنى الإجمالي هو الذي يذوق. الباشا: الفنون الإسلامية، 1/344.

للسلطان، والإشراف على إعداد الأسمطة[1]، مع استادار الصحبة[2]. وربما يكون سبب وجود هذه الوظيفة زمن الأيوبيين هو محاولات الاغتيال التي نفذها الإسماعيلية[3] "الحشيشية" ضد قادة المسلمين وأمرائهم في الشام وكان السلطان صلاح الدين أحد هؤلاء القادة الذين حاول الإسماعيلية اغتياله.

كما ظهرت وظائف جديد لم تعرفها مصر من قبل، وهذه الوظائف متفرعة من لفظة مهتار[4]، الذي يرأس طائفة غلمان (خدم) البيت الذي يعمل فيه[5]، وقد عرفت هذه الوظيفة عند الغزنويين[6] أولاً ثم انتقلت إلى السلاجقة ثم الأتابكة الزنكيين في الشام ثم إلى الأيوبيين في مصر ومن بعدهم المماليك[7]. ومن هذه الوظائف، وظيفة الشراب خاناه[8] وصاحبها مهتار الشراب خاناه ويكون من أكابر الأمراء، وتحفظ في الشراب خاناه أصناف السكر والفواكه والشراب والحلوى والبلح والمياه المفيدة والأواني النفيسة التي تقدم هذه الألوان، وكانت في عهد الفاطميين تعرف باسم "خزانة الشراب"[9]. أما وظيفة الركاب خاناه[10]، وصاحبها مهتار خاناه مهمته إدارة الاصطبلات السلطانية، فيحفظ فيها عُدد الخيل من السروج واللجم وكانت من أهم البيوت السلطانية لأن عدد الاصطبلات التابعة لها كان وفيراً. وهناك وظيفة الطبلخاناه وصاحبها مهتار الطبلخاناه، كما تطلق هذه التسمية على المكان الذي تحفظ فيه الطبول والأبواق والآلات التابعة لها[12]، والأمير الذي يتولى هذه الوظيفة هو الذي يضرب على الطبل[13]، ولم يسمح بتكوين فرقة موسيقية غير الفرقة السلطانية إلا للأمراء البارزين[14].

أما جميع ما يخص السلطان من ثياب وحلي وسيوف فكانت تحفظ في "الطست خاناه"[15] والتي عرفت في عهد الفاطميين "بخزانة الكسوة"[16]. وصاحب هذه الوظيفة هو مهتار الطست خاناه، وسميت بذلك لأنه تحفظ فيه ألطشت الذي تغسل فيه الأيدي، والطشت الذي يغسل فيه القماش[17] أما الفراش خاناه[1] فهي وظيفة أخذها سلاطين مصر عن العباسيين والفاطميين،

---

(1) الأسمطة: مفردها سَمِطِ، فقيل هو الثوب الذي ليست له بطانة طيلسان، أو مكان من قطن، ويقال أنها مأخوذة من سِماط القوم: صَفّهم. ويقال: قام القوم حوله سماطين، أي صفين وكل صف من الرجال سماط. ابن منظور: لسان العرب، 2094/24.

(6) القلقشندي: صبح الأعشى، 21/4؛ حسن: مصر في العصور الوسطى ، 400.

(3) للمزيد عن الإسماعيلية ينظر، فرهاد دفتري: الإسماعيليون في العصر الوسيط، ترجمة: سيف الدين القصير، ط1، دار المدى للثقافة والنشر، (دمشق، 1999)، 11.

(4) مهتار: أصله في الفارسية مهتر. مؤلف من كلمتين: مه بكسر الميم ومعناها الكبير، وتار بمعنى أفعل التفضيل، ويكون المعنى الكلي الأكبر. القلقشندي: صبح الأعشى، 470/5.

(5) حسن: مصر في العصور الوسطى، 400.

(6) للمزيد عن الغزنويين ينظر، فيليب حتى وآخرون: تاريخ العرب (مطول)، ط4، دار الكشاف، (بيروت، 1965)، 557/2 ؛ ميسون هاشم مجيد: علاقة الخلافة العباسية بدويلات المشرق في القرن الثالث الهجري نهاية القرن الخامس الهجري، رسالة ماجستير غير منشورة، (كلية الآداب، جامعة الموصل، 1983)، 27.

(7) الباشا: الفنون الإسلامية، 1146/3.

(8) الشراب خاناه: ومعناها بيت الشراب. القلقشندي: صبح الأعشى، 10/4.

(9) القلقشندي:صبح الأعشى، 10/4؛حسن: مصر في العصور الوسطى، 339.

(10) الركاب خاناه: ومعناها بيت الركاب. القلقشندي: صبح الأعشى، 12/4.

(11) القلقشندي: صبح الأعشى، 12/4 ؛ حسن: مصر في العصور الوسطى، 399.

(12) القلقشندي: صبح الأعشى، 13/4 ؛ حسن: مصر في العصور الوسطى، 399.

(13) القلقشندي: صبح الأعشى، 13/4.

(14) حسن: مصر في العصور الوسطى، 399.

(15) الطست خاناه أو ألطشت خاناه: ومعناها بيت الطشت. القلقشندي: صبح الأعشى، 11/4.

(16) حسن: مصر في العصور الوسطى، 399.

(17) القلقشندي: صبح الأعشى، 11/4.

عرفت في عهد الفاطميين "بخزانة الفراش"[2]، وصاحب هذه الوظيفة هو مهتار الفراش خاناه، وسميت بذلك لأنها تحفظ أنواع الفرش من البسط والخيام[3]. ومن الوظائف الإدارية الأخرى وظيفة الحوائج خاناه[4]، ومهمتها حفظ جميع الحاجيات اللازمة للمطبخ السلطاني من لحوم وخضراوات وتوابل وزيوت، وعرفت هذه الوظيفة في عهد الفاطميين "بخزانة الطعم". وصاحب هذه الوظيفة هو "استادار الصحبة " الذي يشرف على المطبخ السلطاني وموظفيه[5].

ومن الوظائف الأخرى المرتبطة بالبلاط السلطاني وظيفة زمام الآدر[6] أو زمام دور السلطنة، وقد عرفت هذه الوظيفة عند العباسيين والفاطميين، بمعنى الناظر أو المشرف[7]، ولما قامت الدولة الأيوبية في مصر تم إطلاق وظيفة الزمام ويتولى صاحبها مهمة الإشراف على القصور الخاصة بالفاطميين بعد سقوط دولتهم، حيث يتولاها أحد الأمراء الكبار في الدولة[8]، وأول من تولى هذه الوظيفة في الدولة الأيوبية في مصر هو بهاء الدين قراقوش[9].

ومن الوظائف الدينية وظيفة الحسبة[10]. وصاحبها هو المحتسب، وهي وظيفة إسلامية صرفة نشأت اختصاصاتها في صدر الإسلام وتجددت وظهر اسمها في العصر العباسي، ثم أخذت تتسع هذه الاختصاصات على طول التاريخ في الدول الإسلامية المختلفة[11]. ولم تتحدد معالم هذه الوظيفة إلا في نهاية القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، وذلك بعد ظهور المذاهب الفقهية، وازدهار التجارة، وتقدم الصناعة، وظهور الحاجة إلى مراقبة التجار والصناع ومختلف المتعاملين في الأسواق وغير ذلك[12]. فالحسبة تدل على العد والإحصاء[13]، وعند الفقهاء هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[14]. فيقوم المحتسب بمراقبة الأسواق ومحاسبة ومنع كل أنواع المخالفات فيه، وقد عرفت وظيفة المحتسب في الدول الإسلامية المختلفة حيث كانت مهماتها ومراسمها متشابهة ولو أن أعمال المحتسب كانت تتناسب بطبيعة الحال مع المشاكل الخاصة بكل إقليم وبكل قطر[15]. ففي مصر احتفظ الفاطميون بوظيفة المحتسب وكان يشغلها في عصرهم أحد العلماء وكان يلقب بالشيخ[16]. وفي عصر الدولة الأيوبية في مصر استمرت وظيفة المحتسب، وتولاها أحد العلماء مع بقاء لقب الشيخ كما كان عليه الحال في

---

(1) الفراش خاناه: ومعناها بين الفراش. القلقشندي: صبح الأعشى، 11/4.
(2) حسن: مصر في العصور الوسطى، 399.
(3) القلقشندي: صبح الأعشى، 11/4 ؛ حسن: مصر في العصور الوسطى، 399.
(4) الحوائج خاناه: ومعناها بيت الحوائج. القلقشندي: صبح الأعشى، 12/4.
(5) القلقشندي: صبح الأعشى، 12/4؛ حسن: مصر في العصور الوسطى، 398-400.
(6) زمام الآدر: يقول القلقشندي أن أصلها "زنان دار" وهو اسم مكون من لفظتين فارسيتين: هما زنان بمعنى النساء، ودار بمعنى ممسك، والمعنى الكلي ممسك النساء أو المشرف على النساء، ثم حرفت الكلمة فقلبت النونان ميمين، فصارت زمام دار. القلقشندي: صبح الأعشى، 21/4.
(7) الباشا: الفنون الإسلامية، 567/2.
(8) الباشا: الفنون الإسلامية، 567/2.
(9) أبو شامة: الروضتين، 120/2 ؛ الداوداري: كنز الدرر، 151/7.
(10) الحسبة: هي أمر بالمعروف إذا أظهر تركه، ونهي عن المنكر إذا أظهر فعله. الماوردي: الأحكام السلطانية، 299؛ محمد بن أحمد بن بسام: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق: حسام الدين السامرائي، مطبعة المعارف، (بغداد، 1968)، 10.
(11) عبد الرحمن بن نصر الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق: السيد ألباز ألعريني، مطبعة لجنة التأليف والنشر، (القاهرة، 1946)، 125-129.
(12) الباشا: الفنون الإسلامية، 1029/3.
(13) علي عبد القادر: "الفقه الإسلامي –القضاء والحسبة"، موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، ط1، العربية للدراسات والنشر، (بيروت، 1995)، 83/3.
(14) القلقشندي: صبح الأعشى، 37/4 ؛ عبد القادر: الفقه الإسلامي، 83/3.
(15) الباشا: الفنون الإسلامية، 1030/3-1031 ،1033.
(16) القلقشندي: صبح الأعشى ، 487/3.

الدولة الفاطمية[1]. وكان المحتسب في العصر الأيوبي يسند إليه الإشراف على أعمال الهدم المتعلقة بتوسيع الطرق، ففي سنة 590هـ/1193م أمر السلطان الملك العادل بهدم بروز مصاطب الحوانيت في الأسواق بباب زويلة فهدم بمباشرة محتسب القاهرة[2]، حيث عرفت مصر في هذه هذه الفترة محتسبان بالحضرة السلطانية. أحدهما في القاهرة وله القدر العظيم والشأن الرفيع، وله صلاحية الحكم والتولية بالوجه البحري عدا ثغر الإسكندرية، لأن لها محتسباً خاص بها، والثاني بالفسطاط، وهو أقل مرتبة من الأول وله حكم الوجه القبلي بكامله[3]. وأبرز من تولى هذه الوظيفة من القادمين من الشام في العصر الأيوبي أبو زيد أحمد بن نصر بن تميم الحموي، الأشعري، المتكلم، حيث جمعت له وظيفة الحسبة في دمشق ومصر حتى وفاته سنة (574هـ/1178م)[4].

ومن الوظائف التي عرفتها مصر عن طريق الشام، وظيفة شيخ الشيوخ[5]، في عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي حين أسس الخانقاه[6] الصلاحية "سعيد السعداء"[7] في سنة 569هـ/1173م، وجعل شيخها شيخ الشيوخ، وصار في مقدمة غيره من الشيوخ الآخرين، وكان لا يتولى هذه الوظيفة في الخانقاه إلا الرجال العظام في الدولة[8]، مثل الأمير تقي الدين اللّر الذي تولى وظيفة شيخ الخانقاه الصلاحية حتى توفي سنة (612هـ/1215م)[9].

واقترنت هذه الوظيفة فيما بعد بأولاد شيخ الشيوخ بن حمويه، وفي مقدمتهم صدر الدين أبو الحسن محمد، وقد تولى هذا المنصب أيام الملك العادل، حيث كان له مكانة خاصة عنده، وظل في وظيفته هذه حتى عهد الملك الكامل، الذي أرسله في بعثة إلى الخليفة الناصر لدين الله (575-622هـ/1179-1225م) ليستنجد به ضد الصليبيين الذين أخذوا دمياط، فمرض في الطريق وتوفي في الموصل سنة (617هـ/1220م)، ودفن فيها إلى جانب قضيب ألبان[10]. ثم تولى هذه الوظيفة أولاده من بعده وهم: عماد الدين عمر المتوفى سنة (636هـ/1238م) [11]، وكمال الدين أحمد المتوفى سنة (640هـ/1242م)[12]، وتاج الدين أبو عبد الله المتوفى سنة (642هـ/1244م)[13]، ومعين الدين حسن المتوفى سنة (643هـ/1245م)[14]، وفخر الدين يوسف المتوفى سنة (647هـ/1246)[15]. وفي آخر أيام الدولة الأيوبية وصل إلى مصر شمس الدين أبي بكر محمد بن

---

(1) الباشا: الفنون الإسلامية، 1035/3.
(2) المقريزي: السلوك، 120/1.
(3) القلقشندي: صبح الأعشى، 37/4.
(4) الذهبي: تاريخ الإسلام، 139/40-141 ؛ السبكي: طبقات الشافعية، 220/4؛عبد الرحمن بن الحسن بن علي الأسنوي: طبقات الشافعية، تحقيق: عبد الله الجبوري، ط1، مطبعة الإرشاد، (بغداد، 1970)، 444/1.
(5) شيخ الشيوخ: ومعناها العام كبير الشيوخ أو رئيس الشيوخ بمختلف دلالات الشيوخ: فقد تطلق مثلاً على كبير مدرسي أو شيوخ المدرسة، كما أطلقت على شيخ الشيوخ بالحضرة الشريفة النبوية، غير أن الغالب فيها شيخ شيوخ الصوفية أو الخانقاوات. الباشا: الفنون الإسلامية، 639/2.
(6) الخانقاه: جمعها خوانق، وهي كلمة فارسية معناها بيت، وأصلها: خونقاه أي الموضع الذي يأكل فيه الملك. الملك. المقريزي: الخطط 567/3.
(7) هو سعيد السعداء قنبر أو عنبر احد الأستاذين المحنكين من خدم القصر عتيق الخليفة الفاطمي المستنصر، قتل سنة(544هـ/1149م). المقريزي: الخطط، 570/3؛ السيوطي: حسن المحاضرة، 260/2.
(8) القلقشندي: صبح الأعشى، 370/11 ؛ الباشا: الفنون الإسلامية، 640/2.
(9) المقريزي: السلوك، 182/1.
(10) أبو شامة: الذيل، 189-190 ؛ أبن كثير: البداية والنهاية، 93/13.
(11) الصفدي: الوافي، 27/23 ؛ المقريزي: الخطط، 438/2 ؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، 181/5.
(12) الذهبي: تاريخ الإسلام، 427/46 ؛ الصفدي: الوافي، 49/8-50.
(13) ابن كثير: البداية والنهاية، 165/13.
(14) المقريزي: الخطط، 439/2.
(15) الصفدي: الوافي، 145/29، 147 ؛ ابن كثير: البداية والنهاية، 178/13 ؛ المقريزي: الخطط، 439/2.

إبراهيم بن عبد الواحد بن شرف الدين علي بن سرور المقدسي وتولى وظيفة شيخ الشيوخ فيها، وانتفع به الناس، وتوفي سنة (676هـ/1277م)[1].

أما وظيفة شيخ الحديث[2] أو رئاسة الحديث، فقد ظهرت في مصر في وقت متأخر في الدولة الأيوبية، ويبدوا أنها عرفت بعد بناء دار الحديث الكاملية في مصر، وأبرز من تولى هذه الوظيفة هو عبد العظيم بن عبد القوي بن عبد الله بن سلامة ألمنذري الشامي، صاحب كتاب "التكملة لوفيات النقلة" وظل في هذه الوظيفة نحو عشرين سنة توفي سنة (656هـ/1258م)[3]. ثم ثم تولى هذه الوظيفة رشيد الدين أبو الحسن يحيى بن علي بن عبد الله بن علي بن مفرج النابلسي العطار الذي تولى المنصب هو حوالي ستة أعوام، وتوفي العطار سنة (662هـ/1263م)[4].

وارتباطاً بوظيفة شيخ الشيوخ وشيخ الحديث كان هناك وظيفة التدريس، وهي من أهم الوظائف الرسمية التي صاحبت قيام الدولة الأيوبية في مصر، لما لها من دور هام في تثبيت أركان الحكم الأيوبي بمصر[5]، "ولا يوليّ السلطان فيها إلا فيما يَعْظُمُ خَطَره ويرتفع شأنه مما لاناظر له..."[6]. وتولى هذه الوظيفة عدد كبير من الفقهاء والعلماء الوافدين من الشام إلى مصر، وارتبطت هذه الوظيفة بظهور المدارس في مصر في العصر الأيوبي. ومن أبرز من تولى هذه الوظيفة أولاد شيخ الشيوخ بن حمويه[7]، وأبو الحسن ابن الماسح الدمشقي[8]، والشيخ والشيخ نجم الدين الخبوشاني المتوفى سنة (587هـ/1191م)[9]، والفقيه أبو العباس ابن زين التجار الدمشقي المتوفى سنة(591هـ/1194م)[10]، وأبو الفتح الشيزري الملقب بالمرتضى المتوفى سنة(598هـ/1201م)[11]، وتاج الدين أبو عبد الله الحموي المتوفى سنة (599هـ/1202م)[12]، والشيخ الصالح أبو القاسم النابلسي المتوفى سنة(600هـ/1203م)[13]، وأبو الفتح القوام ألنصيبي المتوفى سنة(600هـ/1203م) [14]، والوزير ابن مجاور الدمشقي المتوفى سنة (601هـ/1204م)[15]، وضياء الدين الهذباني الماراني المتوفى سنة (605هـ/1208م)[16]، وأبو الحسن علي بن الأنجب المتوفى سنة (611هـ/1214م)[17]، وشرف الدين المقدسي المتوفى سنة (611هـ/1214)[18]، والشهاب الحموي المعروف بابن الجاموس المتوفى سنة

---

(1) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، 353/5-354.
(2) شيخ الحديث: وهي بمعنى معلم أو مدرس الحديث. الباشا: الفنون الإسلامية، 635/2.
(3) الذهبي: سير 291/14-292 ؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، 277/5.
(4) شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي: تذكرة الحفاظ، ط4، دار إحياء التراث العربي، (بيروت، 1958)، 1442/4-1443 ؛ محمد بن شاكر بن أحمد بن شاكر الكتبي: فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، (بيروت، 1974)، 295/4-296 ؛ السيوطي: طبقات الحفاظ، 502.
(5) بهجت: أثر الحضارة السلجوقية، 64/1.
(6) القلقشندي: صبح الأعشى، 39/4.
(7) ابن واصل: مفرج الكروب، 169/5-170 ؛ المقريزي: السلوك، 261/1 ؛ الصفدي: الوافي، 146/29.
(8) المنذري: التكملة، 255/6 ؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، 251/46.
(9) المنذري: التكملة، 318/3؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، 239/4؛ ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 50/2-51.
(10) المنذري: التكملة، 434/1-435 ؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، 57/42 ؛ السبكي: طبقات الشافعية، 55/4.
(11) الذهبي: تاريخ الإسلام، 374/42.
(12) المنذري: التكملة، 408/2-409 ؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، 415/42.
(13) المنذري: التكملة، 37/3-38.
(14) الصفدي: الوافي، 54/27-55.
(15) ابن سعيد: الغصون اليانعة، 19/1.
(16) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 242/3.
(17) ابن كثير: البداية والنهاية، 68/13.
(18) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، 47/5-48.

(615هـ/1218م)[1]، والحافظ الفقيه أبو الحسن المقدسي المتوفى سنة (613هـ/1216م)[2]، وسيف وسيف الدين الآمدي المتوفى سنة (631هـ/1233م)[3]، وأبو الطاهر المقدسي المتوفى سنة (631هـ/1233م)[4]، والبهاء الدمشقي المتوفى سنة (630هـ/1232م)[5]، وشرف الدين الشافعي المتوفى سنة(634هـ/1236م)[6]، وابن البلان العسقلاني المتوفى سنة (636هـ/1238م)[7]، وعلم الدين أبو الربيع الحموي المتوفى سنة (638هـ/1240م)[8]، والقاضي الأشرف ابن القاضي الفاضل المتوفى سنة (643هـ/1245م)[9]، وبهاء الدين أبو حفص الدمشقي المتوفى سنة (646هـ/1248م)[10]، وشمس الدين بن سرور المقدسي المتوفى سنة (660هـ/1261م)[11] والإمام عز الدين بن قزاوغلي الدمشقي المتوفى سنة(660هـ/1261م) [12].

أما وظيفة الخطابة فكانت من أجل الوظائف وأعلاها رتبة وترتبط بالجوامع الكثيرة في مصر[13]، أما في العصر الأيوبي فقد تولى منصب الخطابة عدد من العلماء والفقهاء الوافدين من الشام ومن أبرزهم: ابن أبي المضاء، خطيب مصر المتوفى سنة (572هـ/1176م)، وهو أول من خطب لبني العباس في مصر بعد إنهاء دولة الفاطميين[14]، كما تولى تاج الدين محمد أبو عبد الله الحموي خطابة جامع القاهرة[15]، ثم تولى ابن الجاموس الحموي وظيفة الخطابة في نفس الجامع[16]، وفي أواخر أيام الدولة الأيوبية تولى منصب الخطابة بمصر كمال الدين أبو سالم ألنصيبي المتوفى سنة (652هـ/1254م) في جامع القاهرة[17]، ثم عز الدين بن عبد السلام المتوفى سنة (660هـ/1261م) الذي تولى الخطابة في جامع مصر العتيق[18]، ومجد الدين عبد الرحمن بن العديم الحلبي المتوفى سنة(677هـ/1278م) الذي تولى الخطابة في جامع القاهرة الكبير[19].

أما وظيفة قاضي القضاة فهو رئيس القضاة وكبيرهم[20]، حيث ورث الأيوبيون في مصر والشام وظيفة قاضي القضاة من الفاطميين والعباسيين[1]. أما وظيفة نظر الأحباس أو ناظر

---

(1) المنذري: التكملة، 319/4 ؛ الصفدي: الوافي، 21/2 ؛ الأسنوي: طبقات، 375/1-376.
(2) المنذري: التكملة، 211/4 ؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، 136/44.
(3) المنذري: التكملة، 90/6-91 ؛ ابن كثير: البداية والنهاية، 140/13-141.
(4) المنذري: التكملة، 104/6.
(5) المنذري: التكملة، 50/6 ؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، 88/7 ؛ المقريزي: الخطط، 205/2.
(6) الذهبي: تاريخ الإسلام، 201/46 ؛ السبكي: طبقات الشافعية، 119/5.
(7) المنذري: التكملة، 315/6-316 ؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، 298/46-299.
(8) الذهبي: تاريخ الإسلام، 366/46-367 ؛ الصفدي: الوافي، 219/15-220.
(9) الذهبي: تاريخ الإسلام، 150/47.
(10) الذهبي: تاريخ الإسلام، 326/47.
(11) المقريزي: الخطط، 153/2، 367.
(12) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 208/7.
(13) القلقشندي: صبح الأعشى، 39/4.
(14) أبو شامة: الروضتين، 123/2، 233 ؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، 109/40-110 ؛ الصفدي: الوافي، 276/4 ؛ ابن كثير: البداية والنهاية، 297/12.
(15) المنذري: التكملة، 408/2-409 ؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، 415/42.
(16) المنذري: التكملة، 319/4 ؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، 258/44-259 ؛ الصفدي: الوافي، 21/2 ؛ السبكي: طبقات الشافعية، 19/5 ؛ الأسنوي: طبقات، 375/1-376.
(17) المقريزي: السلوك،396/1.
(18) الذهبي: تاريخ الإسلام، 45/46، سير، 16/15، 18؛ الصفدي: الوافي، 318/18-319 ؛ الكتبي: فوات الوفيات، 350/2-351؛ الأسنوي: طبقات، 197/2، 199؛ ابن كثير: البداية والنهاية، 235/13-236.
(19) ابن كثير: البداية والنهاية، 282/13.
(20) الباشا: الفنون الإسلامية، 867/2.

الأحباس، فهي "وظيفة عالية المقدار"، حيث يتولى صاحب هذه الوظيفة الإشراف على قيمة الأرزاق المعينة للجوامع والمساجد والربط والزوايا والمدارس من أراضي الوقف الخاصة بها، بالإضافة إلى الصدقات والهبات وتوزيعها على أناس معينين ممن يستحقونها، ويعين صاحب هذه الوظيفة من قبل السلطان تارة، أو من قبل نائب السلطان تارةً أخرى، أو من قبل الدوادار الكبير في أغلب الأحيان[2]. وأبرز من تولى هذه الوظيفة برهان الدين إبراهيم بن نصر بن طاقة الحموي المعروف بابن الفقيه، حيث تولى نظر الأحباس في عهد الملك الكامل، توفي سنة(638هـ/1240م)[3].

ومن الوظائف الإدارية الأخرى وظيفة ناظر الديوان، وكانت هذه الوظيفة محدودة الدلالة في العصر الأيوبي، ويكون صاحبها موظفاً من حملة الأقلام يستعان به إما على متولي الديوان أو مشارف عمل، وتتعلق مهمته بالمال والحساب[4]، وتولى هذه الوظيفة ابن الفقيه بالإضافة إلى وظيفة ناظر الاحباس[5]، كما تولى هذه الوظيفة الصاحب نجم الدين يحيى بن محمد اللبودي، الذي انتقل الى مصر في عهد السلطان الصالح نجم الدين الأيوبي الذي أكرمه وعينه بهذه الوظيفة حيث بقي فيها مدة ثم عاد إلى الشام وتوفي فيها سنة (607هـ/1210م)[6].

ومن الوظائف الأخرى المرتبطة بالديوان، وظيفة شد الدواوين أو شاد الدواوين، ومهمته استخراج الأموال السلطانية وجبايتها، ويتم تعيين صاحب هذه الوظيفة من قبل نائب السلطنة[7]، ويتولاها أرباب السيوف من العسكريين، حيث عرفت هذه الوظيفة في الدولة الأيوبية[8]، وتولى هذه الوظيفة سيف الدين أبو الميمون مبارك بن كامل بن منقذ بعد قدومه من الشام سنة 589هـ/1193م[9]. ثم تولى هذه الوظيفة أبو إسحاق إبراهيم بن نصر بن إبراهيم بن محمد بن سلامة المعروف بالنجم ابن ألحمصي، الذي قدم مصر وأقام بها وتوفي فيها سنة (630هـ/1232م) [10].

أما وظيفة نظر الأوقاف، فمهمة صاحبها النظر في الأملاك السلطانية المستأجرة –من دكاكين وعمائر وقفية- ومتابعة هذه الأملاك من حيث الصرف عليها من قبل المستأجر[11]، وتولى هذه الوظيفة القاضي الأسعد محمد بن الحسن المقدسي المعروف بابن القطان المتوفى سنة (613هـ/1216م)[12]، ثم تولاها الشيخ علاء الدين أبو الفضائل علي بن عبد الرزاق المقدسي المعروف بابن القطان أيضاً المتوفى سنة (659هـ/1260م)[13].

ومن الوظائف الدينية التي عرفت في مصر في العصر الأيوبي، وظيفة نقابة الإشراف وهي من جملة الوظائف التي يتولاها أرباب السيوف "وهي وظيفة شريفة، ومرتبة نفيسة"

---

(1) الباشا: الفنون الإسلامية، 872/2.
(2) القلقشندي: صبح الأعشى، 38/4 ؛ الباشا:الفنون الإسلامية ،1177/3.
(3) السبكي: طبقات الشافعية، 49/5-50.
(4) الأسعد بن مماتي: كتاب قوانين الدواوين، تحقيق: عزيز سوريال عطية، ط1، مكتبة مدبولي، (القاهرة، 1991)، 298-300 ؛ الباشا: الفنون الإسلامية، 1178/3-1179.
(5) السبكي: طبقات الشافعية ، 49/5.
(6) موفق الدين أبي العباس أحمد بن أبي اصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق: نزار رضا، دار مكتبة الحياة، (بيروت، 1965)، 663.
(7) السبكي: معيد النعم، 28 ؛ القلقشندي: صبح الأعشى، 22/4.
(8) المقريزي: السلوك، 105/1 ؛ الباشا: الفنون الإسلامية، 611/2-612.
(9) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 144/4، 146 ؛ المقريزي: السلوك، 105/1.
(10) المنذري: التكملة، 49/6.
(11) السبكي: معيد النعم، 64.
(12) الذهبي: تاريخ الإسلام، 165/44.
(13) الصفدي: الوافي، 154/21.

ويتولى البحث في الأنساب المتصلة بأولاد الإمام علي بن أبي طالب من أبناء فاطمة الزهراء (ﷺ)، ومتابعة من يدعي الانتساب بصورة غير شرعية، وكانت هذه الوظيفة تعرف بنقابة الطالبيين زمن الفاطميين[1]. أما أبرز من تولى هذه الوظيفة عبد الكريم بن علي البيساني المتوفى سنة(621هـ/1224م) وهو أخو القاضي الفاضل حيث تولى الإشراف في البحيرة[2] مدة طويلة[3] ثم تولاها جمال الدين إبراهيم بن سليمان ابن النجار الدمشقي المتوفى سنة (651هـ/1253م) حيث تولى نقابة الإشراف في الإسكندرية[4].

ومن الوظائف الأخرى التي عرفتها مصر في العصر الأيوبي، وظيفة شد العمائر، ويتولى صاحبها الإشراف على العمائر السلطانية مما يحدده السلطان من القصور والمنازل والأسوار لغرض التجديد أو الاستحداث[5]، كما يقوم صاحب هذه الوظيفة باللطف والرفق بالبنائين العاملين في هذا المجال[6]. وهناك وظيفة قضاء العسكر، وهي وظيفة جليلة استحدثت أيام السلطان صلاح الدين، ويحضر صاحب هذه الوظيفة مع القُضاة بدار العدل، ويسافر مع السلطان إذا سافر، وأصبح عددهم ثلاثة قضاة فيما بعد وهم شافعي وحنفي، ومالكي، ومقرهم دار العدل[7].

فهذه هي أبرز الوظائف التي عرفتها مصر زمن الأيوبيين بفعل التأثير الشامي عليها، وارتباط كل من مصر والشام في كثير من الأحيان بوحدة إدارية، بحكم الارتباط السياسي بينهما.

ثانياً: القضاء

يعتبر القضاء "من أرفع الوظائف الدينية وأعلاها قدراً وأجلها رتبة"[8]، وهو منصب الفصل بين الناس في الخصومات حسماً للتنازع وقطعاً للتداعي. واستقر منصب القضاء آخر الأمر على أنه يجمع مع الفصل بين الخصوم استيفاء بعض الحقوق العامة للمسلمين، مثل النظر في الوصايا والأوقاف، وصارت كل هذه وأمثالها من متعلقات وظيفته[9]، وكان القضاة في العصر الإسلامي الأول يختارون من العلماء بأحكام الشريعة الإسلامية والمعروفين بالتقوى وتحري العدل وغير ذلك من الصفات التي يجب توافرها فيمن يتصدر في الحكم في الدماء والأموال[10].

وقد أورد الماوردي الشروط التي حددها الشرع فيمن يتعين عليه تولي منصب القضاء وهي: أن يكون رجلاً مسلماً حراً عدلاً بعيداً عن السهو والغفلة صادقاً سليم السمع والبصر ليفرق بين الطالب والمطلوب، وان يكون عالماً بالأحكام الشرعية وان يكون علمه مشتملاً بأصولها، وهي كتاب الله (ﷻ)، وسنة نبيه رسول الله (ﷺ)، وتأويل السلف فيما اجتمعوا عليه واختلفوا فيه ليتبع بالإجماع ويجتهد برأيه في الاختلاف، وعلمه بالقياس الموجب لرّد الفروع

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 4/37-38 ، 193.
(2) البحيرة: وهي بحيرة الإسكندرية، وهي ليست بحيرة ماء، إنما هي كوره. الحموي: معجم البلدان، 1/351.
(3) الصفدي: الوافي، 19/56-57 ؛ المقريزي: السلوك، 1/127.
(4) الذهبي: تاريخ الإسلام، 48/89-90 ؛ الكتبي: فوات الوفيات، 1/18-19.
(5) القلقشندي: صبح الأعشى، 4/22.
(6) السبكي: معيد النعم، 129.
(7) القلقشندي: صبح الأعشى، 4/36.
(8) القلقشندي: صبح الأعشى، 4/35.
(9) القلقشندي: صبح الأعشى، 4/34-35 ؛ عبد القادر: الفقه الإسلامي، 3/55.
(10) القلقشندي: صبح الأعشى، 6/23 ؛ أحمد رمضان أحمد محمد: المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، مؤسسة روزاليون، (القاهرة، 1977)، 98.

المسكوت عنها إلى الأصول المنطوق بها والمجمع عليها[1]. ويختلف القضاء من مذهب لآخر، "فقد منع بعض الفقهاء من اعتزى (انتسب) إلى مذهب أن يحكم بغيره، فمنع الشافعي ان يحكم بقول أبي حنيفة، ومنع الحنفي أن يحكم بمذهب الشافعي إذا أداه اجتهاده إليه لما يتوجه إليه من التهمة والممايلة في القضايا والأحكام، وإذا حكم بمذهب لا يتعداه كان أنفى للتهمة وأرضى للخصوم"[2].

اختلف نظام القضاء في مصر في العصر الفاطمي عما كان عليه قبل دخولهم للبلاد، حيث اشترك مع قاضي مصر قاضي مغربي للنظر في المظالم الخاصة بالمغرب، ثم ازداد نفوذ هذا القاضي في مصر حتى آل إليه النظر في قضايا المصريين أنفسهم، وأصبح يطلق عليه قاضي مصر والإسكندرية[3].

وكان داعي الدعاة[4] في الدولة الفاطمية يتولى القضاء في بعض الأحيان[5]، كما كان منصب القضاء يعهد به في العصر الفاطمي إلى قضاة من مذهب أخر غير مذهب الدولة الرسمي[6]، ففي سنة 525هـ/1130م، كان هناك أربعة قضاة من مذاهب مختلفة، وأعطى لكل قاضي من قضاة المذاهب هذه السلطة المطلقة في إصدار أحكامه وفق مذهبه[7].

اهتمت الدولة الأيوبية في مصر بالقضاء اهتماماً بالغاً، وتعددت صور القضاء فيها، بفعل الاهتمام المتواصل من قبل أمراء الأسرة الأيوبية وملوكها، ومن جاء معهم من الشام، شأنها في ذلك شأن بقية النظم الإدارية الأخرى في مصر[8]. حيث بدأ صلاح الدين، بعد توليه الوزارة ومن بعدها السلطنة بعزل القضاة السابقين وأقام مكانهم قاضياً شافعياً، ثم استناب القضاة الشافعية في جميع البلاد المصرية، وتجدر الإشارة أن دخول هذا المذهب على مصر كان عن طريق الشام، حيث تولى الفقهاء الشاميين مهمة العمل به ونشره بين المصريين[9]. وظل الشافعية يتمتعون بذلك التكريم حتى أوائل دولة المماليك[10]، وإذا تقدم متخاصمين على غير المذهب الشائع في بلد من البلاد أناب القاضي عنه قاضياً يأخذ بمبادئ مذهب المتخاصمين[11]. حيث كانت سياسة صلاح الدين اختيار قاضياً واحداً لا اثنين ليديم استقامة الحكم، وكان يوصي ولاّته أن لا يختاروا للقضاء الرجال الذين يطلبون الحكم، بل ممن أغفل قلبه عن مشاغل الدنيا وطلب نيل الرياسة[12].

وكان قاضي القضاة في الدولة الأيوبية بمصر يعين القضاة في سائر المدن المصرية[13] فأشرف القاضي على الحسبة –وهي وظيفة استخدمت في مصر زمن الدولة الأيوبية لمراقبة

---

(1) الأحكام السلطانية، 83-85.
(2) الماوردي: الأحكام السلطانية، 86.
(3) القلقشندي: صبح الأعشى، 35/4 ؛ حسن: تاريخ الإسلام، 360/4 ؛ قصي الحسين: موسوعة الحضارة العربية العصر الفاطمي والأيوبي، ط1، دار مكتبة الهلال للطباعة والنشر، (بيروت، 2005)، 353.
(4) داعي الدعاة: ويلي قاضي القضاة في الرتبة، ومهمته أن يقرأ عليه مذاهب أهل البيت بدار تعرف بدار العلم، ويأخذ العهد علي من ينتقل الى مذهبهم. القلقشندي: صبح الأعشى، 483/3.
(5) المقريزي: اتعاظ الحنفا، 336/3.
(6) حسن: تاريخ الإسلام، 360/4 ؛ الحسين: موسوعة الحضارة، 353.
(7) حسن إبراهيم حسن وعلي إبراهيم حسن: النظم الإسلامية، مكتبة النهضة المصرية،(القاهرة، 1970)، 306. 306.
(8) التكريتي: الأيوبيون، 339 ؛عبد الرحمن: إدارة بلاد الشام، 212.
(9) ابن الأثير: الكامل، 366/11 ؛ المقريزي: الخطط، 389/3 ؛ الحجازي وآخرون: النجوم الزاهرة ، 185 ؛ الخربوطلي: مصر العربية الإسلامية، 336-337.
(10) عاشور: الأيوبيون والمماليك، 159، مصر والشام، 137
(11) الحسين: موسوعة الحضارة، 352.
(12) نوري: سياسة، 416.
(13) الخربوطلي: مصر العربية الإسلامية، 337.

الأسواق والحياة اليومية العامة للتأكد من مطابقتها لأحكام الشريعة- ومن خلال إشراف القاضي على هذه الوظيفة جعل الأيوبيين من منصب قاضي القضاة الإشراف الكامل على نشر مذهب أهل السنة وعلومهم في أرجاء الديار المصرية[1].

وبعد استقرار الدولة الأيوبية بمصر أضيفت الأحباس أيضاً للقاضي[2]، كما أوجد السلطان صلاح الدين منصب قاضي العسكر، ويجلس صاحبها بدار العدل مع القضاة ويسافر مع السلطان إذا سافر[3]. وسبب اهتمام الأيوبيون بهذا النوع من القضاء هو لظروف دولتهم ذات ذات الطابع العسكري، فتطول المدة الزمنية التي يقضيها الجندي في الميدان، بعيداً عن أهله مما تطلب وجود قاضٍ يتولى أمر الجند ويحل مشاكلهم[4].

وقد قدمت المصادر التاريخية – من كتب تراجم وطبقات - قائمة بأسماء القضاة الذين تولوا القضاء ومن ناب عنهم بمصر[5]، فقد ولى صلاح الدين القضاء صدر الدين عبد الملك بن بن درباس الهدباني، الشافعي المتوفى سنة(605هـ/1208م) [6]، فعمل بمقتضى مذهبه، وهو الامتناع عن إقامة خطبتين في بلد واحد، فأبطل الخطبة من الجامع الأزهر، وأقرها بالجامع ألحاكمي[7]، لكونه أوسع[8]. كما كان من رأيه ورأي السلطان اعتقاد مذهب الشيخ أبي الحسن الأشعري في الأصول، فحمل الناس على اعتقاده حتى يكفر من خالفه[9]، وكان عبد الملك بن درباس، "قدم الديار المصرية مع السلطان صلاح الدين، فقرره في القضاء بها في جمادى الآخرة سنة 566هـ/1170م، وكان قبل ذلك ولى قضاء الغربية، وأضاف إليه القضاء بكثير من البلاد الشامية، وقرر فيها النواب، ثم أضاف إليه الأحباس، فاستخلف على الحكم أخاه ضياء الدين عثمان، ثم استناب علي بن يوسف الدمشقي، وكان قد قدم الديار المصرية واشتهر بها. واستمر القاضي صدر الدين على ولايته طيلة عهد السلطان صلاح الدين إلى أن مات سنة (589هـ/1193م). وسلطنوا ولده العزيز، فاستمر بالقضاء على ولايته إلى أن وقع بينه وبين نائبه علي بن يوسف اختلاف، وكان يقول:" إنه استنابه بغير رضا منه. وذلك أن علي بن يوسف كان يخدم الأتراك الذين في خدمة العزيز بن صلاح الدين، فسألهم أن يتحدثوا له مع القاضي أن يستنيبه، فلم يسعه مخالفتهم، فاستنابه. ثم أشهد على نفسه أنه لم يرض به نائباً عنه، فشق على علي بن يوسف فكثر عليه الشناعات، وانقطع عن التردد إليه، وصار يستبد بكثير من الأمور... وتم عزل القاضي عن منصبه واستقر ابن يوسف في الحكم بالقاهرة..."[10] وقد ناب عن

---

(1) سيد: تاريخ مصر الإسلامية، 98.

(2) علي باشا مبارك: الخطط التوفيقية لمصر والقاهرة ، ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة ،ط2 ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،(القاهرة ، 1970)، 374/3.

(3) القلقشندي: صبح الأعشى، 36/4.

(4) عبد الرحمن: إدارة بلاد الشام، 217.

(5) التكريتي: الأيوبيون، 339-340.

(6) البنداري: سنا البرق، 57؛ سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، 283/8 المنذري: التكملة، 248/3-250 ؛ الذهبي: الذهبي: سير، 257/13-258 ؛ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني: رفع الأصر عن قضاة مصر، تحقيق: حامد عبد المجيد، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، (القاهرة، 1961)، 367/2.

(7) الجامع ألحاكمي أسسه الخليفة الفاطمي العزيز بالله، ثم أكمله ابنه الحاكم بأمرالله. المقريزي: الخطط، 222/3.

(8) السيوطي: حسن المحاضرة، 153/2 ؛ أحمد أحمد بدوي: الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، مطبعة نهضة مصر،(القاهرة، د.ت)، 15.

(9) المقريزي: الخطط، 212/3.

(10) العسقلاني: رفع الإصر، 368/2-369.

القاضي صدر الدين في القاهرة أخوه ضياء الدين عثمان وهو أعلم الفقهاء بمذهب الشافعي، توفي سنة (602هـ/1205م)[1].

في سنة 590هـ/1193م، عزل صدر الدين بن درباس عن القضاء، وعين نائبه علي بن يوسف بن بندار المتوفى سنة (622هـ/1225م)، على قضاء مصر[2]. وفي سنة 594هـ/1197م، عزل ابن بندار عن القضاء وأعيد صدر الدين بن درباس، ثم أعيد ابن بندار بعدها بسنة، لما انتزع الملك الأفضل علي بن السلطان صلاح الدين بن أيوب سنة 597هـ/1200م سلطنة مصر من ابن أخيه المنصور محمد بن العزيز عثمان[3].

ويذكر الداوداري في أحداث سنة 596هـ/1199م أنه ثم عزل القاضي زين الدين بن بندار، وأعيد القضاء لصدر الدين بن درباس، وأنه كانت له مكانة عظيمة عند السلطان الملك الكامل[4]. وأبرز من تولى منصب نائب القاضي في القاهرة في هذه الفترة هو بدر الدين عبد الوهاب بن يوسف بن علي الدمشقي، المتوفى سنة(599هـ/1202م)[5]. وتولى أبو حامد أحمد بن محمد ابن عبد الله الأنهري الشافعي منصب نائب عن القاضي صدر الدين بن درباس بمدينة فوه[6] فوه[6] في مصر لمدة معينة وتوفي سنة (629هـ/1231م)[7].

وكان ضياء الدين الشهرزوري المتوفى سنة (599هـ/1202م)[8]،من ابرز من تولى هذا المنصب. هاجر إلى مصر في ريعان ملك صلاح الدين، وانعم عليه السلطان بمصر بدار الذهب[9]، وملكه دار نفيسة وجميلة بالقاهرة، ورتب له الوظائف[10]، لإطلاع ضياء الدين الشهرزوري الواسع في أمور الدولة ودواوينها، وبما كان يكلفه به صلاح الدين من مهمات سياسية، ولاشك فيما كان يتمتع به من مكانة كبيرة في البلد الذي يعمل فيه من خلال منصب القضاء الذي يتولاه في ذلك البلد، والذي ترك لدى الناس آثاراً إيجابية، وكانت مصر إحدى هذه البلدان التي عمل فيها ضياء الدين عندما التحق بصلاح الدين وأصبح مقرباً منه[11].

ومن أبرز من تولى منصب القضاء بمصر من أهل الشام شيخ الإسلام، وبقية الأعلام عز الدين بن عبد السلام السلمي الدمشقي[12]، أما عن انتقاله إلى مصر وتوليه القضاء فإنه لما تملك الصالح إسماعيل بن العادل لدمشق استعان بالصليبيين وأعطاهم مدينة صيدا وقلعة الشقيف[13]،

---

(1) المنذري: التكملة، 136/3-137 ؛ أبو شامة: الروضتين، 118/2.

(2) الداوداري: كنز الدرر، 123/7 ؛ المقريزي: السلوك، 121/1 ؛ العسقلاني: رفع الإصر، 410/2-411؛ السيوطي: حسن المحاضرة، 153/2؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب ،105/5.

(3) السيوطي: حسن المحاضرة، 153/2-154.

(4) كنز الدرر، 147/7.

(5) الذهبي: تاريخ الإسلام، 394/42.

(6) فوه: بليدة على شاطئ النيل من نواحي مصر قرب رشيد، بينها وبين البحر نحو خمسة فراسخ أو ستة، وهي ذات أسواق ونخل كثير. الحموي: معجم البلدان، 280/4.

(7) المنذري: التكملة، 43/6.

(8) أبو شامة: الذيل ،55-56؛ الذهبي: تاريخ الإسلام ، 407/42؛ عبد الجبار حامد احمد: " أبناء الشهرزوري ودورهم السياسي والقضائي والعلمي في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي"، مجلة آداب الرافدين، العدد (18)، كلية الآداب ، جامعة الموصل، (1988)، 115.

(9) دار الذهب: بناها الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالي. محيي الدين أبي الفضل عبد الله بن عبد الظاهر: الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، ط1، الدار العربية للكتاب، (القاهرة، 1996)، 112-113 ؛ المقريزي: الخطط، 301/2-302.

(10) البنداري: سنا البرق، 108 ؛ أبو شامة: الروضتين، 281/2.

(11) أحمد: أبناء الشهرزوري، 121.

(12) الذهبي: سير، 16/15 ؛ الصفدي: الوافي، 318/18 ؛ الكتبي: فوات الوفيات، 350/2 ؛ الأسنوي: طبقات، 197/2-198 ؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، 301/5.

(13) قلعة الشقيف:قلعة حصينة جداً في كهف من الجبل قرب بانياس من أرض دمشق. الحموي: معجم البلدان، 356/3.

فأنكر عليه الشيخ عز الدين ذلك، فغضب السلطان منه وسجنه ثم أطلقه فتوجه إلى مصر سنة 639هـ/1241م، فاستقبله السلطان الصالح نجم الدين أيوب وفوض إليه قضاء مصر دون القاهرة والوجه القبلي، فأقام بالمنصب أتم قيام، ثم عزل نفسه عن القضاء فيما بعد ولزم بيته يشغل الناس ويدرسهم، توفي بمصر سنة (660هـ/1261م)[1]. كما تولى القضاء في فترة حكم السلطان الصالح نجم الدين القاضي نجم الدين محمد بن سالم النابلسي، كما اسند إليه السلطان مهمة السفارة خارج مصر بالإضافة للقضاء، وتوفي نجم الدين النابلسي في سنة (644هـ/1246م)[2].

وفي سنة 648هـ/1250م، تولى عماد الدين محمد بن إبراهيم بن المقنشع الحموي القضاء في مصر حيث تولى القضاء بحماة أولاً، ثم دخل مصر وتولى القضاء بها، وبعد أن تولى صدر الدين موهوب الجزري قضاء مصر، انتقل بن المقنشع إلى قضاء القاهرة، وبعد مدة عزل ابن المقنشع عن القضاء، فخرج إلى الشام فتوفي فيها سنة(652هـ/1254م)[3].

ثالثاً: الإقطاع

تعني كلمة إقطاع لغةً: أعطى، منح، وهب، أباح، كل لفظ يعطي معنى الهبة، والإقطاع مأخوذ من أقطع يقطع أي أعطى قطعة فيقال "استقطع فلان الإمام قطيعة من عفو البلاد فأقطعه إياها، إذا سأله أن يقطعها له مفروزة محددة يملكه إياها، فإذا أعطاه إياها كذلك فقد أقطعه إياها... ويقال اقطعني فلان نهراً إذا أذن له في حفره"[4].

أما أصلها الشرعي، فقد أقطع رسول الله ﷺ، وتألف على الإسلام قوماً، كما أقطع الخلفاء من بعده من رأوا في إقطاعه صلاحاً[5]، فيقول أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب "الأموال" في الكلام عن حديث معمر بن عبد الله بن طاووس عن أبيه طاووس، قال: قال رسول الله ﷺ: "عادي[6] الأرض لله ولرسوله، ثم هي لكم" قلت: ما معنى ذلك ؟ قال: "تكون إقطاعاً". هذا الخبر أصل في الإقطاع[7].

كما روى الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق بسنده إلى ابن سيرين عن تميم الداري أنه قال: "استقطعت رسول الله ﷺ أرضاً بالشام قبل ان تفتح فأعطانيها، ففتحها عمر بن الخطاب ﷺ في زمانه فأتيته، فقلت: إن رسول الله ﷺ أعطاني أرضاً من كذا إلى كذا، فجعل عمر ثلثها لابن السبيل، وثلثاً لعمارتها، وثلثاً لنا"[8]. فمفهوم الإسلام للإقطاع هو غير المفهوم الذي ساد في أوربا في العصور الوسطى، فالإسلام أراد بهذا الإصلاح، استثمار الأرض وتشغيل العاطلين وتحقيق مجتمع يسوده الكفاية والعدل[9].

---

(1) أبو شامة: الروضتين، 12/1، الذيل،263 ؛ الداوداري: كنز الدرر، 347/7 ؛ السبكي: طبقات الشافعية، 80/5-83 ؛ السيوطي: حسن المحاضرة،161/2-162؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، 301/5-302.

(2) المقريزي: السلوك، 323/1.

(3) الذهبي: تاريخ الإسلام، 132/48 ؛ المقريزي: السلوك، 371/1؛ بدر الدين محمود العيني: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق: محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة، 1987)،95/1.

(4) أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري: تهذيب اللغة، تحقيق: فاطمة محمد أصلان، ط1، دار إحياء التراث العربي، (بيروت، 2001)، 77/5.

(5) المقريزي: الخطط، 275/1.

(6) العادي: كل أرض كان لها سكان فانقرضوا، أي فصارت خراباً، فإن حكمها إلى الإمام. المقريزي: الخطط، الخطط، 280/1.

(7) تحقيق: محمد خليل هراس،ط1، دار الكتب العلمية، (بيروت، 1986)، 286 ؛ المقريزي: الخطط، 280/1.

(8) القلقشندي: صبح الأعشى، 104/13.

(9) محمود عبد المولى: أنظمة المجتمع والدولة في الإسلام، مطبعة الاتحاد العام التونسية، (تونس، 1973)،58.
1973)،58.

فالإقطاع قديم في الدول، وأصله أن الملك أو السلطان إذا فتح بلاداً وأراد استبقاءها واستغلالها، من أجل دفع خراج الأراضي الزراعية، يفرقها على أمرائه وقواده في مقابل حربهم وأتعابهم كأنها أجرة لهم[1].

والإقطاع على ثلاثة أقسام: "أحدهما: أن يقدر سنين معلومة كإقطاعه عشر سنين. والثاني: أن يستقطعه مدة حياته ثم لعقبه وورثته بعد موته فهذا إقطاع باطل، لأنه قد خرج بهذا الإقطاع من حقوق بيت المال إلى الأملاك الموروثة. والثالث: أن يستقطعه مدة حياته"[2].

فمن الثابت في تطور نظام الإقطاع في الشرق والغرب في العصور الوسطى إن الإقطاع اتخذ طابعاً حربياً في بعض الدول التي غلب عليها الجو الحربي[3]، حيث بدأ هذا النظام في الشرق الإسلامي أيام السلاجقة، وعلى التحديد أيام السلطان ملكشاه ووزيره نظام الملك، فقد أشار نظام الملك على السلطان بأن يقطع كل أمير وقائد جند في جيشه إقطاعاً في ملكه الواسع، بحيث يتكفل كل أمير وقائد بكل ما يتصل بإقطاعه من النواحي الإدارية والمالي والعسكرية، على أن يخضع هذا المقطع للسلطان مباشرة، ويقوم بتأدية ما عليه من مال، ويكون هو وجنوده تحت إمرته كلما دعا الداعي أو كلما أمره السلطان بذلك، والواقع إن نظام الإقطاع بهذه الصورة أدى إلى قيام تنظيم عسكري قوي دقيق، تخرج فيه فرسان ومقاتلون ممتازون أمكنهم أن يصمدوا أمام هجمات فرسان أوربا ونظمها طوال فترة الحروب الصليبية[4].

فنظام الإقطاع الذي يرجع إلى الوزير نظام الملك الفضل في عملية تنظيمه وتعميمه في العصر السلجوقي، فكان على نوعين هما الإقطاع الحربي، والإقطاع الإداري[5].

أما الإقطاع الحربي أو العسكري، فقد ظهرت بوادره زمن الخليفة العباسي المقتدر (295-320هـ/907-932م)، ثم اتسعت ممارسته أيام التسلط البويهي[6]، ثم أصبحت أكثر تنظيماً ودقة زمن السلاجقة كما أسلفنا، وكانت صورة هذا الإقطاع تتمثل بتوزيع الأرض بين الأمراء وجنودهم مقابل ما يؤديه لهم من خدمات عسكرية وقت الحرب[7].

أما الإقطاع الإداري، فقد ظهر في العصر السلجوقي صورة توزيع البلاد إقطاعاً بين أفراد الأسرة الحاكمة، والقصد منه تلافي ما قد يثور بين أفراد الأسرة من نزاع حول السلطنة[8]. وتتبع هذه الاقطاعات وحدة إقليمية إدارية[9].

فأصبح بذلك النظام الإقطاعي الذي أوجده السلاجقة في المشرق وطبق بالشام، أمثل أسلوب لدفع رواتب الجند حتى يقوى إخلاصهم في ميدان القتال بعد أن أطمأنوا إلى مصدر مالي ثابت تدفع منه تلك الرواتب، هذا بالإضافة إلى راحة الشعب من انعكاس معاناتهم عليه[10].

ولما ضعف البيت السلجوقي تقاسم أمراء الدولة ملك السلاجقة وأورثوه أبناءهم. وكان هؤلاء الأمراء يقطعون الأمراء المقربين إليهم بعض الأقاليم والمدن بشرط أن يظلوا خاضعين

---

(1) السبكي: معيد النعم، 26 ؛ زيدان: تاريخ التمدن، 228/1.

(2) الماوردي: الأحكام السلطانية، 245-246.

(3) عاشور: مصر والشام، 126-127.

(4) سلام: الأدب في العصر الأيوبي، 48.

(5) بهجت: أثر الحضارة السلجوقية، 105/1.

(6) عبد الوهاب خضر اليأس: الإقطاع في العصر العباسي دراسة في أنماطه وإدارته (132-447هـ/749-1055م)، أطروحة دكتوراه غير منشورة، (كلية الآداب، جامعة الموصل، 1991)، 172.

(7) محمد بن محمد بن حامد الأصفهاني: تاريخ دول آل سلجوق، اختصار: الفتح بن علي بن محمد البنداري، ط3، دار دار الآفاق الجديدة، (بيروت، 1980)، 60 ؛ بهجت: أثر الحضارة السلجوقية، 106/1.

(8) بهجت: أثر الحضارة السلجوقية، 106/1.

(9) السيد ألباز العريني: الشرق الأدنى في العصور الوسطى (الأيوبيون)، دار النهضة العربية، (بيروت، 1967)، 192/1.

(10) بهجت: أثر الحضارة السلجوقية، 104/1.

لهم فإذا ما حاول أحدهم الاستقلال بإقطاعه قام السلطان أو الأمير بعزله وإقطاع الإقليم أو المدينة لأمير آخر[1]، وكان عماد الدين زنكي أحد هؤلاء المقطعين في الشام وطبق هذا النظام واستمر عليه من بعد أبنه نور الدين محمود، حتى جاء صلاح الدين فنقل هذا النظام إلى مصر فيما بعد.

حيث كان عماد الدين زنكي حين تم له الملك، واتسع ينهى أصحابه عن اقتناء الأملاك، ويقولون فيه بسبب ذلك: أنه كان سيداً يعرف معنى السيادة، فكان يقول لهم: إذا كانت البلاد لنا فأي حاجة بكم إلى الأملاك؟ فان الاقطاعات تغنى عنها. وان خرجت البلاد من أيدينا فان الأملاك تذهب معها. ومتى صارت الأملاك لأصحاب السلطان ظلموا الرعية وتعدوا عليها وغصبوها أملاكها[2] ! .

كان هذا رأي زنكي وفلسفته في حيازة الأمراء للأملاك، وقد صار رأي ابنه نور الدين، ثم صار رأي صلاح الدين، وكأنه درس تلقنه ووعاه، فصار لا يملك الأرض ولايملكها، إلا على سبيل الإقطاع، فتظل لصاحبها حتى يموت أو يخلع، ثم لاتكون أرثاً، بل تعود ملكاً للدول يتصرف في أمرها السلطان أو يردها إلى بيت المال إذا شاء[3].

أما عن نظام الإقطاع في مصر في العصر الفاطمي، فقد كان يسير على ما كان متبعاً منذ ظهور الإسلام وعن الخلفاء من الأمويين والعباسيين[4]. فقد عمل الفاطميون بمصر بنظام الإقطاع بصورة جزئية وخاضعة لولاية الدولة، فقد ظل الفلاحون خاضعون للدولة وليس للمقطع، مع استمرار دفع رواتب الجند وفق نظام العطاء، علاوة على إن المقطع لم يكن مطالباً بتقديم أي خدمة عسكرية[5].

وعندما أقام الأيوبيين دولتهم في مصر وجدوا للفاطميين نظاماً وضعوه لحكم البلاد وإدارتها، له معالمه وأركانه الثابتة، ممثلة في عديد من الموظفين، والذين أشرف قسم منهم على أقطاعات الجند والعسكر في ديوان الجيش، مما يثبت إن الإقطاع الحربي كان معروفاً بمصر – في صورة أو أخرى- قبل قيام دولة بني أيوب، وكان ما فعله صلاح الدين هو أنه طّور النظام الإقطاعي الذي وجده في مصر ليتفق والقواعد التي عهدها –ونشأ في ظلها- في كنف الدولة النورية قبل حضوره إلى مصر[6]. بعد انتقاله إليها بما يتلائم والظروف الجديدة التي ستعيشها مصر. فامتاز العصر الأيوبي بمصر بذلك بدخول نظام الإقطاع على وضعه القائم في الشام[7].

يمثل النظام الإقطاعي صورة واضحة من صور العصر الأيوبي بمصر هذا النظام الذي طبق على نطاق واسع في ذلك العصر، والذي شكل الإطار الرئيسي الذي تطورت داخله الصورة الحقيقية لنظم الحكم والإدارة آنذاك. ذلك أن الخطأ الكبير الذي يقع فيه كثيرون هو أنهم يظنون أن النظام الإقطاعي بخصائصه المعروفة المرتبطة أساساً بالأرض ليس إلا ظاهرة اقتصادية لا أكثر، في الوقت الذي أثبتت الدراسة الواعية الجادة إن النظام الإقطاعي –كما عرفته وطبقته العصور الوسطى- يمثل ظاهرة سياسية اقتصادية حربية اجتماعية إدارية[8].

من خلال العرض المقدم عن بداية ظهور الإقطاع نجد أن بدايته كانت في الشام، لكنه لم يكن يمثل النظام الإقطاعي الذي ظهر في العصور الوسطى، الذي نعنى بدراسته ؛ والذي انتقل

---

(1) حسن: تاريخ الإسلام، 333/4.
(2) سيد الأهل: أيام صلاح الدين، 40.
(3) سيد الأهل: أيام صلاح الدين، 40.
(4) المقريزي: الخطط، 248/1 ؛ بهجت: أثر الحضارة السلجوقية، 102/1.
(5) ربيع: النظم المالية، 25.
(6) عاشور: نظم الحكم، 341/3.
(7) بيكر: الأيوبيون، 225/3.
(8) عاشور: نظم الحكم، 337/3-338.

بأركانه من السلاجقة والزنكيين في الشام ثم إلى الأيوبيين ومن بعدهم المماليك في الشام ومصر، والذي يقوم أساساً على فكرة الاستفادة من الأرض مقابل الالتزام بواجبات معينة[1].

فلا يخفى علينا أن مصر والشام تضمان من المدن والأقاليم والأراضي الزراعية وغير الزراعية القابلة للإقطاع الشيء الكثير،مما ضمن للنظام الإقطاعي في هذه البلاد المادة الأساسية الخام اللازمة لصناعته وتشكيله،ووفر له ركناً أساسياً وشرطاً مهماً وجوهرياً من شروط وجوده وانتعاشه[2].

فلما اعتلى السلطان صلاح الدين السلطنة في مصر وتمكن من الدولة، قلل من النظام الإقطاعي الذي ساد طريقة امتلاك الأراضي في العصر الفاطمي، وحطم بذلك استقلال أمراء الاقطاعات وقوى الحكومة المركزية، وكان لهذا الإجراء أكبر الأثر في نشاط الحالة الاقتصادية في البلاد[3]، كما أزال أيدي أمراء العاضد وأجناده عن هذه الاقطاعات، ووزعها على الأمراء النورية، وأمرائه وجنده[4] الذين جاؤوا معه عند دخوله مصر ومن لحق به فيما بعد.

ولما عزم السلطان صلاح الدين على تقسيم دولته بين أولاده وأهله، جعل تقسيمه إقطاعيا[5]، وأصبحت الديار المصرية مقسمة إلى اقطاعات للسلطان واقطاعات لأبناء البيت الأيوبي، واقطاعات لأمراء الأجناد، هذا فضلاً عن اقطاعات العربان. فكان طبيعياً أن يعمل صلاح الدين منذ صارت السلطة في يده بمصر، على تطبيق ما شهده وعاش فيه من تعميم إقطاعي في الدولة الزنكية[6]، في الشام. وهذا ما فعله شقيقه وخليفته في السلطنة على مصر الملك العادل، وأيضاً الصالح نجم الدين أيوب الذي وزع الاقطاعات الكبيرة على أهل بيته ومماليكه والخوارزمية الذين قدموا له الكثير من الخدمات العسكرية[7]. وعلى الرغم من الصلاحيات الواسعة التي منحت للمقطع بحق التصرف بإقطاعه كيفما شاء[8]، إلا أن المقطع لم يكن يتصرف بجميع خراج إقطاعه إلا بإذن خاص[9]. وقد سارت الدولة الأيوبية من بدايتها حتى نهايتها على هذا النظام الإقطاعي[10]، الذي عرفته بلاد الشام في العصر السلجوقي، وفي فترة حكم عماد الدين زنكي ونور الدين محمود[11].

وبذلك نقل الأيوبيين إلى مصر نظام الإقطاع الشبه وراثي، سواء ما يتلق بأفراد من الأسرة الحاكمة أو مما يخص غيرهم من الولاة الذين احتفظ بعضهم بإدارة مؤسسته في أسرته حتى عهود لاحقة[12]، إلا إن نظام الإقطاع هذا لم يكن بالمعنى الوراثي الذي ساد في أوربا في ذلك العصر[13]، إنما كان هناك ما يعرف بالتجديدات الإقطاعية على غرار ما كان في الشام، والتي يصدرها ديوان الدولة من حين لآخر. ولاسيما إذا توفي السلطان وتولى غيره أو كان هناك دافع لإعادة توزيع الاقطاعات على أصحابها وتغيير بعض هؤلاء المقطعين[14].

---

(1) عاشور: نظم الحكم، 338/3.
(2) عاشور: نظم الحكم، 341/3.
(3) حسن: مصر في العصور الوسطى، 449، 490 ؛ سلام: الأدب في العصر الأيوبي، 58.
(4) ابن الأثير: الكامل، 344/11 ؛ المقريزي: الخطط، 279/1 ؛زيدان: تاريخ التمدن، 239/1.
(5) ربيع: النظم المالية، 29 ؛ غنيم: الدولة الأيوبية، 137-138.
(6) ربيع: النظم المالية، 26-27.
(7) غنيم: الدولة الأيوبية، 138 ؛ عاشور: نظم الحكم، 342/3.
(8) القلقشندي: صبح الأعشى، 50/4.
(9) جيب: دراسات، 99.
(10) غنيم: الدولة الأيوبية، 137.
(11) كحيلة: العقد الثمين، 253.
(12) عبد الرحمن: إدارة بلاد الشام، 20.
(13) كحيلة: العقد الثمين، 253.
(14) عبد الرحمن: إدارة بلاد الشام، 20.

وبذلك صارت الأرض كلها اقطاعات، وساد في مصر في العصر الأيوبي الإقطاع بنوعيه الإداري، الذي اختص به الأمراء من الأسرة المالكة وكبار الأمراء والموظفين، والحربي، الذي لا يختلف في أصوله وقواعده ومظاهره عن الإقطاع المعروف عند السلاجقة في المشرق وبلاد الشام، كما اهتمت الإدارة الأيوبية بتسجيل ما يقدمه المقطع من فرسان[1]، وربما كان السبب في العمل بالإقطاع الحربي في مصر في العصر الأيوبي، هو أن الفارس الواحد من الجيش الأيوبي يتقاضى مرتباً يتراوح بين سبعمائة إلى ألف ومائتين دينار، فهذا معناه أن الاحتفاظ بذلك الجيش من شأنه أن يثقل كاهل صلاح الدين، لذلك لجئ صلاح الدين إلى هذا النظام من الإقطاع[2].

وعلى الرغم من إن السمة البارزة للإقطاع في العصر الأيوبي في مصر هو السمة الحربية، بحكم الالتزامات التي كان على المقطع أن يؤديها للدولة وفق شروط متفق عليها[3]، إلا إلا أن الاقطاعات اقتصرت على نوعين من النظم، أولهما: أن يكون للمقطع الحق المطلق في استغلاله، وثانيهما: أن يكون المقطع مقيداً بشروط خاصة يلتزمها أثناء تمتعه باستغلال الإقطاع وهذا يؤكد الصفة الإداري للإقطاع أيضاً، إذا كان على المقطع –أو صاحب الإقطاع- أن يعمل على حماية القرى الداخلة ضمن إقطاعه من إغارات البدو والعربان، وتوطيد الأمن بين ربوعها، والضرب على أيدي العابثين والمفسدين، ورعاية الجسور والترع والقنوات الداخلة في دائرة الإقطاع[4]، فقد كان المقطع يتولى إقامة الجسور البلدية –وهي الخاصة النفع بناحية دون ناحية- من خلال ما تنفقه من إقطاعه[5]، ومن مهام المقطع أو صاحب الإقطاع الإدارية هي إقرار العدالة بين الفلاحين وإنصاف المظلومين، وجمع الأموال المستحقة وخاصة الخراج وأموال الزكاة ونحوها، وكانت الدولة تحول دون بطش الأمراء الإقطاعيين بالفلاحين وسوء استغلالهم، كما كان الحال أيام الدولة الفاطمية، بل تجبرهم على الالتزام بالقواعد والأصول المنصوص عليها في المناشير والتوقيعات التي كانت تصدر عن الديوان المختص، والتي كانت تشتمل على وصف للإقطاع وبيان لحدوده وأبعاده من ناحية،ثم تقديم النصح للمقطع بالعناية بعمارة الإقطاع ومعاملة أهله بالعدل وتوفير الأمن لهم من ناحية أخرى[6].

كما انتقلت طبقة أمراء المئين من الأتابكة في الشام إلى الدولة الأيوبية حيث يمثلون أعلى مراتب العسكريين. وكان أمير المائة في الدولة الأيوبية يتولى مائة فارس، وينفق عليهم، ويعدهم ويجهزهم ويقودهم للحروب، ولذلك كان يعطى إقطاعاً يكفي للتكفل بهم ؛ وكان الإقطاع في هذه الحالة يسمى إقطاع مائة، أو إقطاع أمير مائة فارس. وكانت طبقة أمراء المئين تؤلف قادة الجيش الأيوبي[7].

وبذلك يمكننا القول إن ملكية الأرض كانت ملكية جماعية مشتركة في ذلك العصر، يستغلها الأفراد بإدارة الدولة المركزية[8]. وأهم ما حققه نظام الإقطاع الجديد في مصر أنه "وفر "وفر الأموال الكثيرة لخزانة الدولة مما جعل لأرباب العلوم وأصحاب الحقوق حقوقاً لا توفر ورسوماً لا تغير وأصبح لأهل العلم ميراثاً يأخذونه بقدر الفرائض من السلطان"[9].

---

(1) ألعريني: الشرق الأدنى، 192/1 ؛ محمد: المجتمع الإسلامي، 227.
(2) عاشور: مصر والشام، 140-141.
(3) عاشور: مصر والشام، 126-127، الأيوبيون والمماليك، 148 ؛ غنيم: الدولة الأيوبية، 137.
(4) عاشور: نظم الحكم، 343/3.
(5) ابن مماتي: قوانين الدواوين، 232.
(6) عاشور: نظم الحكم، 343/3.
(7) الباشا: الفنون الإسلامية، 250/1.
(8) عبد الرحمن: إدارة بلاد الشام، 130.
(9) الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق، 61.

رابعاً: الدواوين

يذكر الماوردي "أن الديوان موضع لحفظ ما يتعلق بحقوق السلطنة من الأعمال والأموال ومن يقوم بها من الجيوش والعمال"[1].

وأول من وضع الديوان في الإسلام هو الخليفة عمر بن الخطاب ﴿رضي الله عنه﴾، عندما أنشأ ديوان الجند لتدوين أسماء وما يخص كلاً منهم من العطاء، ثم تطور نظام الدواوين وتوسع في العصر الأموي والعصور الإسلامية اللاحقة[2].

ويذكر القلقشندي خمسة شروط يجب توفرها فيمن يستحق تولي العمل في الديوان وهي:

البلوغ: فلا يجوز إثبات الصبي في الديوان. الحرية: فلا يُثّبت في الديوان مملوك. الإسلام: ليدفع عن الله باعتقاده. السلامة من الأمراض المانعة من القتال. وان يكون فيه إقدام على الحرب ومعرفة بالقتال [3].

وكانت في كل دولة دواوين رئيسية، لابد لكل دولة أن تعمل بها، وأهمها ديوان الجيش وديوان الخراج، وديوان الإنشاء والمكاتبات، و دواوين أخرى تلحق بعضها بهذه الدواوين[4].

وفي عصر الدولة الفاطمية كان هناك دواوين عدة، كل منها مختص بعمل معين، وعلى رأس كل من هذه الدواوين موظف كبير، نشأة لخدمة أغراض معينة بالدولة، فزال بعضها بزوال الغرض الذي أنشئ من أجله[5].

ولما قامت دولة الأيوبيين في مصر وجدوا أن الفاطميين وضعوا لحكم البلاد وإدارتها نظاماً له معالمه وأركانه الثابتة، ممثلة في عديد من الموظفين وفي كثير من الدواوين [6].

وكان السلطان في العصر الأيوبي، يعتمد في إدارة شؤون الدولة على كبار الموظفين خاصة رؤساء الدواوين الهامة، والمعروفين بأرباب الدواوين[7]، ويمنح كلاً منهم حرية التصرف في الأمور التي يباشرها[8]، وقد كان عمل الدواوين يتلخص عموماً في الإدارة المركزية والإدارة المحلية، فالأولى تشمل التراسل وشؤون المال، والأخرى تشمل إدارة الولايات[9].

وأهم الدواوين التي تأثرت بدخول الأيوبيين لمصر من حيث التطوير والاستحداث هي:

1. ديوان الإنشاء:

لقد عرف هذا الديوان بأسماء مختلفة في عصر الفاطميين، فقد أطلق عليه اسم "ديوان الرسائل" أول الأمر، ومهمته إنشاء المكاتبات الصادرة باسم الخليفة وتصديرها، وتسلم ما يرد

---

(1) الأحكام السلطانية، 249.

(2) حسن: تاريخ الإسلام، 364/1، 368.

(3) صبح الأعشى، 110/13-111.

(4) المقريزي: الخطط، 263/1.

(5) حسن: مصر في العصور الوسطى، 367-368، 389 ؛أيمن فؤاد سيد: الدولة الفاطمية تفسير جديد، ط1، الدار المصرية اللبنانية،(القاهرة، 1992)، 257.

(6) عاشور: نظم الحكم، 341/3.

(7) أرباب الدواوين: أرباب جمع رب بمعنى صاحب، وهم الموظفون المكلفون بكتابة المكوس واستخلاصها ومحاسبة الأهالي على الضرائب. الباشا: الفنون الإسلامية، 33/1.

(8) الأنصاري: المجمل، 151.

(9) عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، ط3، مكتبة الأنجلو المصرية، (القاهرة، (القاهرة، 1973)، 35.

إليه من شكاوى وكتب، وعرضها عليه، وتوجيه تعليقاته عليها إلى الجهات المختصة[1]. اهتم الفاطميون بهذا الديوان لاتساع دولتهم من أقاصي المغرب إلى نهر الفرات والى الحجاز واليمن ولأنه يهتم بكل شؤون الدولة السياسية والإدارية والمذهبية[2]. فكانت الكتابة في ديوان الإنشاء تلي الوزارة في الرتبة في العصر الفاطمي[3]، ويذكر ابن خلدون في مقدمته الصفات الواجب توفرها لدى الكتاب عامة وكاتب الرسائل خاصة، ومنها "يجب أن يكون من خيرة القوم وان يكون متصفاً بالمروءة والحشمة وان يكون متضلعاً بالعلم والبلاغة"[4].

لقد ظلت نظم الإنشاء وتقاليده معمولاً بها في العصر الأيوبي، فقد أبقى صلاح الدين على ديوان الإنشاء بتقاليده وأنظمته[5]، مع بعض التغيير والتطوير على بعض ملامحه انسجاماً مع الوضع الجديد في مصر.

ولقد ازدادت أهمية هذا الديوان في العصر الأيوبي، بسبب ما مرت به الدولة في أول عهدها من نشاط كبير نتيجة المشاكل الكثيرة التي واجهتها في الداخل والخارج، فمن القضاء على الخلافة الفاطمية، وتتبع لأنصارها ومن إخماد فتن، ومجابهة مؤامرات إلى إرسال بعوث سياسية في طلب التأييد والنجدات، إلى غير ذلك من نشاط حربي وعلمي وديني. وقد نتج عن ذلك كله ازدياد نشاط ديوان الإنشاء ازدياداً أدى إلى تعدد اختصاصاته والمبالغة في التخصص في إدارته حتى وصل إلى درجة بعيدة عن التفرع في سائر مهماته[6]. فكان هذا الديوان على جانب كبير من الأهمية في شؤون الحكم والإدارة، وكانت أبرز مهامه تبادل المكاتبات الرسمية الخاصة بالدولة، وهي المكاتبات التي ترد إلى السلطات من خارج الدولة وداخلها، ومن النواب وكبار موظفي الدولة وكان ديوان الإنشاء يطلع السلطان على هذه المكاتبات ويعد له الردود عليها[7].

وتذكر المصادر التاريخية معلومات وافية عن المراسلات التي كتبت في العصر الأيوبي وتعددت مواضيعها باختلاف الجهات التي كانت توجه إليها هذه الرسائل، ويعتبر الإنشاء من أكثر التراتيب، ارتباطاً بمؤسسة السلطنة الأيوبية، وأهم وظيفتين رئيسيتين في هذا الديوان هما، وظيفتي ألشاد والكاتب. ويعتبر هذا الديوان مؤسسة مكملة للإدارة المالية في الدولة الأيوبية، لذا تعددت مهامه واختلفت واجباته[8].

وكان كاتب الرسائل يجلس بين يدي السلطان في مجلس حكمه ويقوم بختم الأحكام بخاتم السلطان[9].

فمنذ أن وجد ديوان الإنشاء بمصر، والعناية بالكتابة الفنية في مصر تفوق حد الوصف، والعناية أيضاً بالمعارف الإنسانية التي تلزم للكاتب في ديوان الإنشاء تزيد عن الحد، ومن أجل ذلك فقد ظهرت الموسوعات الأدبية من جهة، وبالغ الناس في التأنق الكتابي نفسه من جهة ثانية[10].

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 103/1؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، 338/3؛ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسوريا وبلاد الشام، (د.م ، د.ت)، 380-381؛ الباشا: الألقاب الإسلامية،17.

(2) شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي(عصر الدول والإمارات مصر)، ط2،دار المعارف،(القاهرة ،1990)، 401.

(3) القلقشندي: صبح الأعشى، 486/3 ؛ حسن: تاريخ الإسلام، 317/4 .

(4) تحقيق: هيثم جمعة هلال ، ط1، مؤسسة المعارف، (بيروت،2007)، 270-273.

(5) الباشا: الألقاب الإسلامية، 22.

(6) الباشا: الألقاب الإسلامية، 27-28.

(7) عاشور: نظم الحكم، 366/3.

(8)عبد الرحمن: إدارة بلاد الشام، 47.

(9) ابن خلدون: المقدمة، 269.

(10) حمزة: الحركة الفكرية، 29.

وقد حفظ التاريخ أسماء مجموعة من أعلام الأدباء الذين تولوا ديوان الإنشاء في العصر الأيوبي بمصر... ومن هؤلاء القاضي الفاضل الذي ولي ديوان الإنشاء أيام صلاح الدين، وذلك إلى جانب قيامه بأعباء الوزارة، وكان قد تولى ديوان الإنشاء قبيل القضاء على الخلافة الفاطمية، حيث أرسله والده إلى القاهرة سنة 543هـ/1148م، ليتدرب على الإدارة وتعلم فن الكتابة والإنشاء[1]، وفي آخر أيام الفاطميين تولى ديوان الإنشاء عوضاً عن موفق الدين يوسف بن محمد ابن الخلال المتوفى سنة (566هـ/1170م)، ولما قامت دولة الأيوبيين بمصر عمل على خدمتها بكل ما لديه من طاقات[2]. من خلال إعادة إدارة تنظيم هذا الديوان بمساعدة السلطان صلاح الدين وتنظيم غيره من الدواوين الأخرى[3]. وقد لعب القاضي الفاضل دوراً مهماً في تاريخ الحركة الإدارية والأدبية بمصر[4]، وبالإضافة إلى دوره في مجال فن الكتابة، من خلال تدعيم التضمين والاقتباس والسير به قدماً[5].

كما ظهرت في مصر الأخوانيات في الكتابة بالإضافة إلى ظهورها في الشعر فمن ذلك الافتتاح بالدعاء، والغالب في ذلك الدعاء للمجلس، كما كتب القاضي الفاضل إلى العماد الأصفهاني. ومن ذلك أيضاً افتتاح العماد الأصفهاني في اعتذار تأخر المكاتبات[6]. فقوّى أواصر الصداقة بينه وبين العماد الأصفهاني الكاتب الذي قدم من الدولة العباسية، وسعى في التوسط له لدى صلاح الدين حتى عينه في الإشراف على ديوان الإنشاء بالشام[7]. ومن هنا يعتبر العماد الأصفهاني الأساس الثاني الذي قام عليه ديوان الإنشاء الأيوبي بعد القاضي الفاضل ومن مصطلحات المكاتبة التي ظهرت في الدولة الأيوبية، بتقبيل الأرض مصدراً بالمملوك، كما كتب القاضي الفاضل عن نفسه إلى السلطان صلاح الدين يهنئه بمولود ولد له "المملوك يّقبل الأرض بالمقام العالي الناصري نصر الله الإسلام بمقامه، وأهلك أعداء الحق بانتقامه، ولا أعدم الأمة المحمدية عقد اعتزائه بكفالتها ومضاء اعتزامه..."[8].

وكان قلم القاضي الفاضل يحقق الانتصارات الإعلامية والسياسية والفكرية للدولة الأيوبية[9]، وكان صلاح الدين يقول: "لا تظنوا أني ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم الفاضل"[10]. واستمر القاضي الفاضل في منصبه هذا بعد وفاة السلطان صلاح الدين وتولي ولديه للسلطنة من بعده حتى توفي سنة (596هـ/1199م)[11].

وقد تولى وظيفة التصفح في ديوان الإنشاء في هذه الفترة، ممن وفد من الشام عبد الله بن بري المقدسي المتوفى سنة(582هـ/1186م)، وكان له دور في ديوان الإنشاء حيث لا يصدر كتاب عن الدولة إلى ملوك النواحي إلا بعد أن يتصفحه صاحب هذه الوظيفة[12].

وتولى الكتابة في ديوان الإنشاء في عهد السلطان الملك العادل الأيوبي صفي الدين محمد بن إسماعيل بن محمود بن أحمد أبو عبد الله أبي الطاهر الدمشقي الشافعي، ثم عاد إلى الشام وتوفي بحلب سنة (622هـ/1225م)[13]. وتولى فخر الدين سليمان بن محمود بن أبي غالب

---

(1) المنذري: التكملة، 209/2-210؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان،3-158، الأسنوي: طبقات، 282/2-283.
(2) الذهبي: تاريخ الإسلام، 261/39، 245/42 ؛ المقريزي: الخطط، 445/3-447.
(3) شكيل: القاضي الفاضل، 125.
(4) الباشا: الألقاب الإسلامية، 22.
(5) سلام: الأدب في عصر صلاح الدين، 219.
(6) القلقشندي: صبح الأعشى، 167/8.
(7) الباشا: الألقاب الإسلامية.24
(8) القلقشندي: صبح الأعشى، 90/7.
(9) الصلابي: صلاح الدين الأيوبي، 477.
(10) سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، 472/8.
(11) ابن الأثير: الكامل، 159/12 ؛ حسن: مصر في العصور الوسطى، 391.
(12) الذهبي: تاريخ الإسلام ،41/138-140 السبكي: طبقات الشافعية ،4/233-234.
(13) الذهبي: تاريخ الإسلام، 45/130-131.

الدمشقي كتابة الإنشاء في عهد السلطان العادل وابنه الكامل مدة، وتوفي سنة (630هـ/1232م)، فاستحضر الملك الكامل ناسخاً يقال له الأمين عبد المحسن بن حمود الحلبي المتوفى سنة (643هـ/1245م)، كان عند الأمير عز الدين أيبك -استادار الملك المعظم عيسى بن العادل - في خدمته يكتب له. حيث أراد تعينه مكان فخر الدين الدمشقي[1].

وتولى زين الأمناء أبو المعالي أسعد بن محمد بن الحسين بن الخضر بن عبدان الدمشقي، كتابة ديوان الإنشاء وتوفي سنة(637هـ/1239م)[2]. وكان الصاحب فخر الدين بن لقمان الأسعردي آخر من تولى هذا الديوان في العصر الأيوبي[3].

2. ديوان الاسطول:

اهتم الفاطميون بصناعة السفن الحربية وبالأسطول، وكان على رأس الأسطول المصري في العصر الفاطمي عشر قواد عليهم رئيس هو "قائد القواد" ويسمى في عهد الفاطميين "أمير الجيش"[4]، ويذكر المقريزي "إن الأسطول في أيامهم عشرة ومرتباتهم من ديوان الجيش، وهذه وهذه تختلف من عشرين ديناراً إلى دينارين وعبرتها راجعة إلى الاقطاعات التي تعرف بأبواب الغزاة، والتي منها رواتبهم، ولهذا يصل دينارهم –أي دينار الأسطول- بالمناسبة إلى النصف..."[5] أي أن الأسطول في العصر الفاطمي كان مرتبطاً بديون الجيش إدارياً وبالإقطاع مالياً.

مع ذلك فقد انشأ ديوان للأسطول عرف بديوان (الجهاد أو العمائر)، في العصر الفاطمي[6]، واهتموا به إلا انه لم يصل إلى ما وصل عليه في العصر الأيوبي، بدليل ما ذكره أبي شامة: "ولما نوى السلطان المقام بالإسكندرية ليصوم فيها رأى أنه لا يخلي نفسه من ثواب يقوم له مقام القصد إلى بلاد الكفار والجهاد في المشركين، فرأى الأسطول وقد أخلقت سفنه وتغيرت آلاته، فأمر بتعمير الأسطول، وجمع له من الأخشاب والصّناع أشياء كثيرة، ولما تم عمل المراكب أمر بحمل الآلات، فنقل من السلاح، والعدد ما يحتاج الأسطول إليه، وشحنه بالرجال، وولى فيه أحد أصحابه، وأفرد له اقطاعاً مخصوصاً، وديواناً مفرداً، وكتب إلى سائر البلاد المصرية بقبول قول صاحب الأسطول، وان لا يمنع من أخذ رجاله وما يحتاج إليه"[7].

لقد أوجد الاهتمام بالأسطول في مصر إلى ظهور دواوين خاصة به للإشراف عليه في العصر الأيوبي، وأهمها "ديوان الأسطول"[8]، ليقوم بالصرف على رجال الأسطول، وهو ما عرف بالنفقة. أما صاحب هذا الديوان فيسمى "صاحب الأسطول"[9]. وعين السلطان صلاح الدين لهذا الديوان مناطق واسعة من الفيوم واحباس في البر الشرقي والبر الغربي كما عين له

---

(1) أبو شامة: الذيل 229-230؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، 388/45؛ المقريزي: السلوك، 245/1؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 353/6.

(2) المنذري: التكملة، 336/6.

(3) حسن: مصر في العصور الوسطى، 391.

(4) المقريزي: السلوك، 45/1 ؛ حسن: تاريخ الإسلام، 356/4.

(5) السلوك، 45/1.

(6) رحيم كاظم محمد الهاشمي وعواطف محمد العربي شنقارو: الحضارة العربية الإسلامية، الدار المصرية اللبنانية، (القاهرة، د.ت)، 94-95.

(7) الروضتين، 295/2.

(8) المقريزي: السلوك، 45/1 ؛ ماجد: تاريخ الحضارة، 74 ؛ الصلابي: صلاح الدين الأيوبي، 399.

(9) ماجد: تاريخ الحضارة، 74؛ احمد أحمد بدوي: الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، ط2، دار نهضة مصر، (القاهرة، 2003)، 17 ؛ الهاشمي وآخرون: الحضارة العربية، 95.

واردات أشجار الكثير من المناطق إضافة الى النطرون[1]، وكان قد بلغ ضمانة ثمانية آلاف دينار. ثم أفرد لديوان الأسطول الزكاة التي كانت تجبى بمصر، وبلغت في سنة زيادة على خمسين ألف دينار، وأفرد له المراكب الديوانية وناحية أشناي وطنبدى[2].

كما وجد في الإسكندرية ديوان ارتبط بالأسطول ويسمى "المتجر السلطاني" وكان يقوم بشراء مختلف أنواع البضائع المستوردة من الخارج واللازمة للجيش والأسطول كالأخشاب والحديد والأقمشة الصوفية[3]. وقد عين السلطان صلاح الدين أخيه العادل على هذا الديوان، الذي استخدم صفي الدين بن شكر على الديوان. إلا أن هذا الديوان والأسطول أهمل بعد وفاة صلاح الدين[4].

3. ديوان بيت المال وما يلحق به:

وهو ديوان يختص بضبط الهيكلية المالية للدولة الإسلامية، من الإيرادات والمصروفات والضرائب التي تخص هذا الديوان بإدارتها وضبطها، وقد وصفت هذه الإيرادات التي يطلق عليها المقريزي تسمية "الحمول" بأنها كانت كثيرة وشملت أبواباً متعددة مثل الخراج والجزية والزكاة والعشور والمواريث العشرية وجزء من إيرادات الأحباس والمكوس التي تعددت جوانبها وأبوابها وبلغت نحو تسع وثمانين باباً إبان عهد السلطان صلاح الدين[5]. كما اعتنى السلطان الملك الكامل عناية فائقة بديوان المال، فحافظ عليه من المزيفين وعين فيه أشخاص يتميزون بحسن الإدارة ورجاحة العقل[6].

ومن فروع ديوان المال وأهمها، ديوان الاحباس أو الأوقاف، الذي يختص بشؤون الأوقاف العامة والخاصة كالمساجد والمدارس والربط والزوايا والأراضي والعقارات المحبوسة عليها والإحسان على الفقراء والمعوزين[7]. وكانت شؤون الاحباس في العصر الأيوبي من اختصاص القاضي... ولم تقتصر الأوقاف في عصر الأيوبيين على الحوانيت والخانات والفنادق والأراضي الزراعية وإنما اتسعت لتشمل كثيراً من معاصر الزيت والقصب والحمامات والطواحين والأفران والمصابن ومصانع النسيج ومخازن الغلال ومعامل ترقيد الفروج وغيرها[8]، فلما كان هذا الديوان مختصاً في الواقع بأوقاف خيرية ودينية فإن متولي هذا هذا الديوان كان يختار من بين العلماء المشهورين بالتقوى والفضائل والقدرة على الفتية وكان القائم على هذا الديوان يشرف على رواتب العلماء والفقهاء، وأئمة المساجد، فضلاً عن المدرسين الذين يعملون في المدارس التي أوقفها أصحابها للتعليم و المدارس الصلاحية والمارستان التي شيدها صلاح الدين بالقاهرة والفسطاط والإسكندرية[9] وتولى القاضي محمد بن

---

(1) النطرون: نوع من المعادن يكثر في مصر، ويكون على نوعين أحمر وأخضر، وتشرف الدولة على استخراجه ويستخدم كمادة أولية في تبييض الأواني النحاسية. ابن مماتي: قوانين الدواوين، 334-336.

(2) المقريزي: الخطط، 668/2 ،17/3، السلوك، 107/1-108؛ مبارك: الخطط التوفيقية، 370/3-371.

(3) غنيم: الدولة الأيوبية، 123.

(4) المقريزي: الخطط، 17/3؛ مبارك: الخطط التوفيقية، 371/3؛ حسن: تاريخ الإسلام، 356/4-357.

(5) المقريزي: الخطط، 691/1-693 ؛ وينظر، خالد كلي عبد العكيدي: التنظيمات العسكرية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية في مصر إبان حكم صلاح الدين الأيوبي، رسالة ماجستير غير منشورة، (معهد التاريخ العربي والتراث العلمي، بغداد، 2000)، 78.

(6) الصائغ: عصر الملك الكامل، 165.نقلاً عن النابلسي: لمع القوانين المضيئة في دواوين الديار المصرية،13. المصرية،13.

(7) القلقشندي: صبح الأعشى، 38/4 ؛ حسن: مصر في العصور الوسطى، 389.

(8) عاشور: نظم الحكم، 370/3.

(9) ربيع: النظم المالية، 73.

القاضي رضي الدولة الحسن بن محمد بن عبيد الله العامري المقدسي المعروف بابن القطان، ديوان الاحباس بمصر، وتوفي بمصر سنة (613هـ/1216م)[1].

ومن الدواوين المرتبطة بديوان المال، ديوان المجلس، فهو المسؤول عن ضبط إحصاء أموال الزكاة والجزية والخراج والمواريث والنظرون فضلاً عن قيامه بتقدير رواتب الموظفين، كما يتضمن ما يرد من ملوك العالم من الهدايا والتحف[2]، ويشرف على خزانة السلطان وما ينفق من دار الفطرة[3] ونفقات الأسمطة التي تقام في الاحتفالات[4]. وصاحب هذا هذا الديوان هو المتحدث في الاقطاعات، ويلحق بديوان النظر ويخلع عليه، وينشأ له السجل "وله المرتبة والمسند والدواة والحاجب إلى غير ذلك"[5].

وتولى وكالة بيت المال بمصر، جمال الدين ظافر بن نصر بن ظافر الهلالي الحموي الشافعي، وكانت له مكانة خاصة عند السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب، بحيث كتب السلطان في وصيته إلى ولده وغلمانه إقراره على وكالة بيت المال، ولم يزل في بيت المال إلى أن توفي سنة (677هـ/1278م)[6].

4. ديوان الخاص أو النظر:

وقد عرفت مصر مجموعة من الدواوين المالية في العصر الأيوبي تدل أسماؤها على أنواع مصروفاتها، وإيراداتها. إن بعض هذه الدواوين كان معروفاً زمن الفاطميين، فتم الإبقاء عليه، وإضافة ما استحدث إليها من دواوين[7]. فوظيفة ديوان الخاص أو النظر، وهو خاص بأموال السلطان والتحدث في جهاته[8] ومضافاته وهو أشبه بوزارة المالية، حيث ترجع إليه سائر الدواوين في كل ما يتعلق بالمسائل الخاصة بالمتحصل والمنصرف من أموال الدولة، وحساباتها وأرزاق الموظفين الدائمين والمؤقتين، وكان مقره القلعة[9]. ويلاحظ ان القلقشندي يقول "إن ديوان الخاص من منشآت السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون (693-741هـ/1293-1340م)"[10]. إلا أن المقريزي لا ينفي وجود إدارة من شأنها النظر في خاص أموال السلطان أيام الدولة الأيوبية[11].

ومما يرجح هذا الرأي، إن المماليك على الرغم من استحداثهم وتطويرهم للكثير من الجوانب الحضارية ومنها الدواوين، إلا أنهم وجدوا في بداية قيام دولتهم بمصر، دولة كاملة المؤسسات ومنظمة كل التنظيم من قبل الأيوبيين ومن جاء معهم من الشام.

5. ديوان الزكاة:

كما اهتم السلطان صلاح الدين بجمع واردات الزكاة، فأنشاء في مصر ديواناً يعرف باسم "ديوان الزكاة" ويقوم على هذا الديوان موظف يعرف باسم "متولي الزكاة"[12].

---

(1) المنذري: التكملة، 232/4.
(2) ابن مماتي قوانين الدواوين،317-318 القلقشندي: صبح الأعشى، 490/3 ؛ المقريزي: الخطط، 138/2.
(3) دار الفطرة: هي الدار التي بناها العزيز بالله الفاطمي خارج القصر. المقريزي: الخطط، 200/2.
(4) القلقشندي: صبح الأعشى، 490/3.
(5) المقريزي: الخطط، 138/2.
(6) الصفدي: الوافي، 304/16-305.
(7) ربيع: النظم المالية في مصر، 58.
(8) المقريزي: السلوك، 111/1.
(9) حسن: مصر في العصور الوسطى، 389.
(10) صبح الأعشى،456/3، 30/4.
(11) السلوك، 111/1.
(12) نوري: سياسة، 424.

ويقوم هذا الديوان بالإشراف على استحصال هذه الفريضة الشرعية، وكان صلاح الدين أول من جباها بمصر من الأموال والبضائع والمواشي، وتفرق أموال الزكاة في هذا الديوان بموجب الآية الكريمة: ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنْ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[1].

ويذكر المقريزي "في سنة 588هـ/1192م، قام ابن حمدان – صاحب الديوان-، وكتب خطه بما مبلغه اثنان وخمسون ألف دينار لسنة واحدة من مال الزكاة، وجعل الطواشي قراقوش ألشاد في هذا المال وألا يتصرف فيه، بل يكون في صندوق مودعاً للمهمات التي يؤمر بها"[2] وتهدف هذه الخطة بادخار هذه الأموال على سبيل الهبات التي يؤمر بها.

وتولى الأسعد بن مماتي (ت606هـ/1209م) رئاسة هذا الديوان[3]، كما تولى عبد الدائم بن بن عبد الله بن بري بن عبد الجبار المقدسي، الكتابة بديوان الزكاة حتى توفي سنة (640هـ/1242م)[4].

6. ديوان الجيش:

إن اهتمام الدولة الأيوبية بأمور الجهاد دفعها للاهتمام كثيراً بالجيش والصرف عليه لذلك نجدها تخصص المبالغ الطائلة لديوان الجيش لإنفاقها في بناء الحصون والقلاع العسكرية والتعبئة ودفع رواتب الجند وما يتبعهم من قضاة وصوفية وعربات وسوقة إلى غير ذلك، ففي سنة 577هـ/1181م، مثلاً بلغت مصروفات الدولة على الجيش ثلاثة ملايين وخمسمائة وسبعون ألفاً، هذا فضلاً عن مليون دينار أخرى صرفت على العربات والقضاة والصوفية والفقهاء[5].

ويقوم صاحب هذا الديوان بتوزيع الأراضي على المقطعين بحيث يرضي الأجناد، ويوفر الأموال للديوان في نفس الوقت، وبذلك يتمكن أصحاب المقاطعة الإنفاق على عسكره وبناء الاستحكامات العسكرية التي تزيد من قوة البلاد الدفاعية[6].

وتولى ديوان الجيش بمصر، القاضي عبد الجبار بن يوسف بن عبد الجبار بن شبل بن علي المقدسي، المتوفى سنة (583هـ/1178م)[7]. ثم ابنه أبو الطاهر إسماعيل، حيث تولى ديوان الجيش للسلطان صلاح الدين ثم لأبنه العزيز عثمان وللأفضل ثم للعادل إلى أن صرف منه، وتولى كل منهما الديوان عشرين سنة، وكانت وفاته في سنة(610هـ/1213م)[8].

7. ديوان البريد:

لقد ارتقى نظام البريد في مصر في العصر الأيوبي، فوضع له نظام يكفل ارتباط جميع أنحاء الدولة بشبكة خطوط من البريد البري والجوي. وكان مركز هذه الشبكة قلعة الجبل التي بناها صلاح الدين الأيوبي في القاهرة سنة 572هـ/1176م، حيث كان يتفرع منها أربعة طرق برية يمتد أحدها إلى قوص[9]، والآخر إلى عيذاب[10]، وثالث إلى الإسكندرية، ورابع إلى دمياط

---

(1) سورة التوبة، الآية 60.
(2) المقريزي: الخطط، 311/1.
(3) المقريزي: الخطط، 312/1.
(4) الذهبي: تاريخ الإسلام، 439/46.
(5) المقريزي: السلوك، 75/1 ؛ الصائغ: عصر الملك الكامل، 166.
(6) نوري: سياسة، 430.
(7) المنذري: التكملة، 106/1-107 ؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، 154/41 ؛ الصفدي: الوافي، 24/18.
(8) المنذري: التكملة، 86/4-87 ؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، 359/43-360 ؛ الصفدي: الوافي، 85/9.
(9) قوص:هي مدينة كبيرة عظيمة واسعة، بينها وبين الفسطاط اثنا عشر يوماً. الحموي: معجم البلدان، 413/4. 413/4.
(10) عيذاب: بليدة على ضفة بحر القلزم هي مرسى المراكب التي تقدم من عدن إلى الصعيد. الحموي: معجم البلدان، 171/4.

دمياط ومنها إلى غزة، ومن قلعة الجبل تصدر المراسيم السلطانية إلى أنحاء الدولة وترد إليها الرسائل من الولاة[1]. وكانت الدولة الأيوبية بمصر قد أخذت بنظام البريد الجوي (الحمام) من الشام، حيث اتخذ نور الدين محمود الحمام للمراسلات منذ توليه حكم الشام على غرار ما فعله من قبل والده عماد الدين زنكي، فقام بتنظيم شؤون الحمام على أسس جديدة واهتم بها واستمر هذا الاهتمام عند وريثتها الدولة الأيوبية[2].

فالسياسة الإدارية المتمثلة في السلطنة، والوزارة، والإقطاع والدواوين كانت نتاج الأنظمة الفاطمية والزنكية- السلجوقية في الديار المصرية نقلها الأيوبيون والأمراء والعلماء الشاميين، وورثها المماليك أيضاً فيما بعد[3].

(1) حسن: تاريخ الإسلام، 4/328-329 ؛ الحسين: موسوعة الحضارة، 332.
(2) الصلابي: صلاح الدين، 385.
(3) نيل دي. ماكنزي: القاهرة الأيوبية، ترجمة: عثمان مصطفى عثمان، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، (القاهرة، (القاهرة، 2007)، 53.

الفصل الثاني

الميدانين الاقتصادي والاجتماعي

الفصل الثاني

الميدانين الاقتصادي والاجتماعي

أولاً : الميدان الاقتصادي

ازدهرت الحياة الاقتصادية بوجه عام في مصر في العصر الأيوبي، بفضل نظام الإقطاع الجديد الذي جاء به الأيوبيين من الشام، الذي حدّ من النظام الإقطاعي السابق الذي ساد في العصر الفاطمي والمتمثل بامتلاك الأراضي الزراعية على نطاق واسع وهو ما أدى إلى نشاط في الحياة الاقتصادية في البلاد بصورة عامة[1].

لم تتغير الحياة الاقتصادية في مصر في عصر صلاح الدين تغييراً جوهرياً، عما كانت عليه سابقاً. ويلاحظ إن طابع الترف الذي كان يصبغ العصر الفاطمي، كان هو الغالب في الحياة الاقتصادية بمصر، لأن صلاح الدين كان مهتم بهدف واحد عبأ له جميع القوى والاقطاعات، ذلك الهدف هو تخليص العالم الإسلامي من الاحتلال الصليبي، لذا كان همه الأول تقوية الصف الإسلامي بشتى السبل، فكانت إصلاحاته كلها تدور حول هذا الهدف، ومن ضمنها محاولة الاستفادة من إمكانيات مصر الاقتصادية عن طريق تحسين أحوال الفلاحين، وتخفيف المكوس لتنشيط التجارة[2]، فاتبع صلاح الدين سياسة خاصة به فيما يخص مصروفات الدولة وواردتها، وكيفية جمع تلك الواردات، وكذلك في الأسلوب الذي اتبعه لتغيير بعض نظم الفاطميين في مصر، غير أنه ومن غير شك استفاد من الكثير من نظم الدولة النورية في الشام، والفاطمية في مصر[3]. فشهدت مصر ازدهاراً اقتصادياً ظل مشهور طوال تاريخها[4].

واعتبر بعض المؤرخين أن الإدارتين الزنكية والأيوبية تعكسان الازدهار الظاهر في الحياة الاقتصادية لاهتمامهما بالزراعة ووسائل الري خاصة، أو من خلال التغيير والتعديل في نوعية الضرائب التي كانت ترد إلى خزينة الدولة، أو من خلال علاقاتهما الاقتصادية الوثيقة بالدويلات والممالك المجاورة، فأقيمت المنشآت العمرانية وازدهرت من خلالها الحركة التجارية، وكان هذا لاهتمام السلاطين الأيوبيين بالشؤون الاقتصادية وتنظيم مؤسساتها المالية، ليتراءى لنا من خلالها أهمية هذه التنظيمات رغم انشغال رجال الإدارتين الزنكية والأيوبية بالحروب الداخلية والخارجية على حد سواء[5]، وقد نقل الأيوبيين ومن انتقل معهم إلى مصر مظاهر هذا الاهتمام الاقتصادي في الشام والأنظمة المالية التي عمل بها هناك.

فعلى الرغم من سكوت المصادر التاريخية عن بعض التنظيمات والأمور الاقتصادية، في فترات معينة من التاريخ، فان هذا لايعني عدم وجودها، ولاسيما بمصر في العصر الأيوبي بل

([1]) حسن: مصر في العصور الوسطى، 449 .

([2]) المقريزي: الخطط، 250/1، 298 ؛ سلام: الأدب في العصر الأيوبي، 38 ؛ محمود محمد الحويري: مصر في العصور الوسطى، ط1، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، (القاهرة، 1996)، 230 .

([3]) نوري: سياسة، 409-410 .

([4]) البير شاندور: صلاح الدين الأيوبي البطل الأنقى في الإسلام، ترجمة: سعيد أبو الحسن، ط2، دار طلاس، (دمشق، 1993)، 97 .

([5]) ماجد عرسان الكيلاني: هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، ط3، دار الفرقان، (عمان، 2003)، 285 ؛ عبد الرحمن: إدارة بلاد الشام، 107 .

من المؤكد أن المصادر باهتمامها بالقضايا العسكرية والسياسية كانت قد انشغلت عن ذكر النظم الحضارية[1].

ونتيجة لذلك حدث بعض التغيير في مجال المراكز الاقتصادية في مصر، إذ لم يكن للقاهرة زمن الفاطميين من المركز الاقتصادي ما صار لها زمن الأيوبيين، إذ أن الفسطاط هي التي احتلت هذه المكانة بينما كانت القاهرة مقراً لبلاط الخلفاء الفاطميين، وما يتعلق به من المواكب والرسوم والاحتفالات استمرت وزادت مكانة القاهرة الاقتصادية زمن المماليك[2].

وكان من أهم موارد الدولة إذ ذاك الزراعة والصناعة والتجارة، أما الزراعة فلمصر شهرتها بهذا المجال منذ القدم، وذلك بسبب خصب النيل، ولها كذلك شهرتها في غلات خاصة كالقطن والقمح والقصب والفاكهة. وأما الصناعة فثم فكرة خاطئة وهي أن مصر كانت في جميع عصورها التاريخية أمة زراعية خالصة، مع إن عدداً كبيراً من أبناء مصر كانوا يكسبون عيشهم عن طريق الصناعة، وكانوا يجمعون أحياناً بينها وبين الزراعة والتجارة[3].

1. الزراعة :

اعتمدت مصر في حياتها الاقتصادية –طوال تاريخها- على الزراعة بوجه خاص، فبالزراعة اشتغلت غالبية أهلها، لوجود نهر النيل، وعلى الإنتاج الزراعي عاش معظم سكانها[4] وعن طريقها تحسنت أحوالهم المعاشية[5]. ومن دونها يعم الجوع والبلاء بدليل الأزمات الاقتصادية التي مرت بها مصر زمن الأيوبيين نتيجة انخفاض فيضان النيل ومن أمثلة ذلك ما حدث سنة 597هـ/1201م، في عهد السلطان العادل الأيوبي، "إذا احترق البحر (جف النيل) احتراقاً عظيماً... واشتد بالناس الجوع وأكل بعضهم بعضاً، وأكلوا الميتة... وهرب أكثر أهل مصر إلى الغرب والى الحجاز واليمن والشام... وكان يقوم الرجل فيذبح ولده الصغير، وتساعده أمه على طبخة، ويأكلونه... وحصر من كفنه السلطان في مدة عشرة أيام فكانوا مائة ألف وعشرين ألف. وصلى خطيب الإسكندرية في يوم واحد على سبعمائة جنازة من أعيان الناس، خارج عمن لا يعبأ به..."[6]. ومهما يكن في هذه الأقوال من مبالغات، فإنها تدل على سوء أحوال البلاد وأهلها، وما كانت تتعرض له من أزمات خطيرة في حالة عدم وفاء النيل[7].

فالأيوبيين واجهوا أعداء كثيرين، ولذا احتاجوا إلى أموال كثيرة يعدون بها الجيوش والأساطيل، لذا اهتموا بالزراعة باعتبارها المورد الأول لخزانة الدولة وللأهالي الذين يؤدون الضرائب للدولة[8]، فكان من نتائج السياسة المستنيرة التي انتهجها الأيوبيين أن اتسعت ميادين الفكر وتطور الاقتصاد وازدهرت الزراعة[9].

([1]) نوري: سياسة، 410 .

([2]) العريني: الشرق الأدنى، 210/1 .

([3]) حمزة: الحركة الفكرية، 64 .

([4]) أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتي المعروف بابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، تحقيق: كرم البستاني، دار صادر، (بيروت، 1992)، 40 ؛ القلقشندي: صبح الأعشى، 300/3 ؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك، 146 ؛ الحويري: مصر في العصور الوسطى، 230 .

([5]) سلام: الأدب في عصر صلاح الدين، 156 .

([6]) الداوداري: كنز الدرر، 148/7-149 ؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 173/6 .

([7]) عاشور: الأيوبيون والمماليك، 147 .

([8]) ابن إياس: تاريخ مصر، 76/1 ؛ الخربوطلي: مصر العربية، 344-345 .

([9]) هاملتون جب: صلاح الدين الأيوبي، ترجمة: يوسف أيبش، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، (بيروت، 1973)، 204 ؛ محمد صديق حسن: "سياسة الأيوبيين الزراعية"، مجلة آداب الرافدين، العدد (48)، كلية الآداب ، جامعة الموصل، (2007)، 167 .

فلأجل أن يجنب السلطان صلاح الدين البلاد ويلات المجاعات التي تسببها الحروب اعتنى بالزراعة ووسائل الري اعتناءً بالغاً، لتنبت الأرض أطيب الثمرات، وتنتج من كل زوج بهيج[1]، فحفر السلطان صلاح الدين وغيره من الأمراء عدداً من الترع، وطهروا الترع القائمة وأقاموا الجسور ونمّوا وسائل الري وأقاموا الخزانات وتوفرت مياه الري، وكثرت زراعة الأرز، كما انتشرت زراعة الذرة في الصعيد ولم تكن معروفة من قبل[2].

وقد تعاونت مصر والشام في تبادل المحاصيل الزراعية، وتعزيز المصالح الاقتصادية، وتموين الجيوش بالثروات اللازمة ،كما وقف الإقليمان جنباً إلى جنب أمام اعتداءات الصليبيين الغادرة،وتزويد الجيش الإسلامي بكل ما يلزم من مواد غذائية وعتاد[3]. فتبادل الإقليمان المنافع الزراعية من خلال خبرات الفلاحين القادمين من الشام،وإدخال بعض المحاصيل الزراعية إلى مصر.

كما دخل مصر في هذه الفترة نظام الإقطاع ، الذي ارتبط بالزراعة ارتباطاً وثيقاً، من أجل إنقاذ الأرض الزراعية في مصر من الإهمال نتيجة المجاعات وموجات الجفاف التي كانت تمر بها البلاد، فعن طريق هذا النظام يمكن إعادة تعمير الأرض والاستفادة من خيراتها[4].

فكان أهم واجبات المقطع في مصر في العصر الأيوبي،الاهتمام بالزراعة، وإمداد الفلاحين بالتقاوي[5].

ومن القوانين المتبعة في الزراعة في تلك الفترة إذا نبت المحصول أرسل صاحب الإقطاع إلى السلطة يطلب منها إرسال مندوب سلطاني لمسح الأراضي المزروعة حتى يتمكن من تقدير الخراج المقرر عليها[6]، وعند الحصاد يأخذ الفلاح نصيبه وتكون القسمة بحضور شهود مقابل أجور يأخذوها من صاحب الإقطاع والفلاح، ويدفع رسوماً تعرف بالحقوق، وتقدر بدرهمين أو أربعة دراهم عن كل فدان ما عدا الغلة[7]، ويخضع الفلاح في مصر وبلاد الشام إلى قيود كثيرة كإجباره على الفلاحة ومنعه من مغادرة الإقطاع وإذا هرب يعاد بالقوة[8]، وعلى وعلى الفلاح أن يقدم لصاحب الإقطاع الضيافة والهدايا في مختلف المناسبات[9].

وعلى الرغم من تعرض الحياة الاقتصادية لاسيما الزراعة إلى الكثير من الحوادث الطبيعية مما أدى إلى انحطاط الإنتاج الزراعي في بعض الأحيان[10] إلا أن عبد اللطيف البغدادي الذي زار مصر يصف لنا جانبا من الحالة،فيذكر: "وأما أرض مصر فلها أيضاً خواص منها أنه لايقع لها مطر إلا احتفال به وخصوصاً صعيدها فأما أسافلها فقد يقع بها مطر جود لكنه لايفي بحاجة الزراعة. وأما دمياط والإسكندرية وما داناهما فهي غزيرة المطر ومنه يشربون وليس بأرض مصر عين – ولانهر سوى نيلها"[11]. نجد إن العصر الأيوبي عصر

([1]) الصلابي: صلاح الدين الأيوبي، 343 .

([2]) الخربوطلي: مصر العربية، 345 .

([3]) الصلابي: صلاح الدين الأيوبي، 343 .

([4]) القلقشندي: صبح الأعشى، 50/4 ؛ المقريزي:الخطط ،279/1، السلوك، 156/1 ؛ حسن: مصر في العصور الوسطى، 449 ؛ بهجت: أثر الحضارة السلجوقية، 106/1 .

([5]) ربيع: النظم المالية، 34 .

([6]) القلقشندي: صبح الأعشى، 458/3 ؛ إبراهيم علي طرخان: النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، دار الكتاب العربي، (القاهرة، 1968)، 246 .

([7]) طرخان: النظم الإقطاعية، 249 .

([8]) السبكي: معيد النعم، 54 .

([9]) طرخان: النظم الإقطاعية، 252 ؛ الصائغ: عصر الملك الكامل، 132 .

([10]) الصائغ: عصر الملك الكامل، 132 .

([11]) الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، تحقيق: علي محسن عيسى مال الله، دار الحكمة، (بغداد، 1987)، 67-68 .

بركة وازدهار في مصر والشام حتى بعد وفاة السلطان صلاح الدين. فقد اعتنى الأيوبيين بالزراعة، والتي ما كان لها أن تزهو بغير الاهتمام المتواصل بنظام الري اهتماما بالغاً[1].

واستمرت عملية الاهتمام بالنظام الزراعي في مصر، ففي عصر السلطان الملك الكامل نجد اهتماماً واسعاً من قبل السلطان بنظام الري وتحسين حال الزراعة بفضل الأعمال الإصلاحية التي قام بها الكامل ومنها الزراعة[2].

وأمر السلطان الصالح نجم الدين أيوب الأمير جمال الدين أبي الفتح موسى بن يغمور أن يمنع زراعة الحشيشة في بستان الكافوري[3] –حيث كان يتناوله الفقراء- "فدخل ذات يوم فرأى فيه منها شيئاً فأمر بأن يجمع فجمع وأُحرق"[4].

2. الصناعة :

المعروف أن مصر اشتهرت دائماً بأنها إقليم زراعي، وما فيها من صناعات إنما اتخذت مادتها الخام من الزراعة، ومن قبيل ذلك صناعة المنسوجات والزيوت والعطور التي تصدرها أحياناً، أما الصناعات التي تقوم على مواد مستوردة فكانت قليلة كالمصنوعات الحديدة التي تنتجها تنيس[5]، ودلاص[6]، كما إن المنسوجات الحريرية التي عرفت صناعتها مصر كانت تعتمد على ما يرد من الشام من الحرير الخام، واقتصر استيراد الجلود على ما هو نادر منها ما لم يكن في مصر ما يماثلها[7]، وظل السلطان صلاح الدين وخلفائه وأمرائه يعتنون بالصناعات بالقاهرة وكانت صناعة الثياب مزدهرة في العصر الأيوبي سواء في تنيس أو غيرها[8].

فبفضل المنتوجات الخاصة بالأنسجة ومنها الحرير الخام القادم من الشام، توسعت صناعة النسيج في مختلف المدن المصرية ومنها مدينة تنيس، حيث كان أهلها أصحاب الأموال والثراء، وحاكه يقومون بحياكة ثياب الشروب الكتانية التي لا يعمل مثلها في الدنيا "وكان يصنع منها للخليفة ثوب يطلق عليه اسم البدنة لا يدخل فيه من الغزل –سداء ولحمة- غير أوقيتين وينسج باقية بالذهب بصناعة محكمة لا تحتاج إلى تفصيل ولا خياطة، تبلغ قيمته ألف دينار غير طراز تنيسي ودمياط"[9].

أما المنسوجات الكتانية فأهم مراكزها الإسكندرية ودمياط وتنيس التي اشتهرت بما تخرجه من المنسوجات التي اختصت بها فأنتجت قماشاً رقيقاً من الكتان اشتهر باسم الشرب بلغت القطعة الواحدة منه مئة دينار ما كان ينسج في دمياط النوع الأبيض منها، وما صنع في تنيس كان بألوان مختلفة، فضلاً عن المنسوجات الحريرية الموشات بالذهب ازدهرت في هذه

([1]) بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، 364 .

(6) الاسكندري وآخرون: تاريخ مصر، 252-253 .

([3]) البستان الكافوري: أنشأه الأمير أبو بكر محمد بن طغج بن جف الإخشيد أمير مصر، واعتنى به الإخشيد، وجعل له أبواباً من حديد، ولما استبد أبو المسك كافور الإخشيدي بإمارة مصر كان كثيراً ما يتنزه به، وكانت خيوله بهذا الميدان، وظل هذا البستان عامراً إلى سنة 651هـ/1253م . المقريزي: الخطط، 271/2-272 .

([4]) المقريزي: الخطط، 421/2 .

([5]) تنيس: جزيرة في بحر مصر قريبة من البرمابين الفرما ودمياط،والفرما في شرقيها.الحموي:معجم البلدان،51/2.

([6]) دلاص: كوره بصعيد مصر على غربي النيل، تشتمل على قرى وولاية واسعة. الحموي: معجم البلدان، 459/2 .

([7]) العريني: الشرق الأدنى، 198/1 ؛ الخربوطلي: مصر العربية، 347 .

([8]) ضيف: تاريخ الأدب العربي، 52 .

([9]) المقريزي: الخطط، 499/1 .

المواضيع، وبلغ عدد الأنوال[1] في تنيس نحو خمسة آلاف نول، وتولى النسيج للرجال والنساء[2]. كما كان هناك أنواعاً معينة من المنسوجات المصرية أحرزت شهرة عالمية في أوربا في تلك العصور مثل قماش الفستيان الذي نسب إلى الفسطاط وهذه أهم الصناعات النسيجية التي ازدهرت في العصر الأيوبي[3]. ولاريب في أن المصنوعات المتنوعة التي كانت تقوم بصناعتها مدن بلاد الشام قد أثرت في الأمارات والدويلات التي كانت في ذلك العصر،وكان لهذا أثره البالغ في الحياة الاقتصادية والاجتماعية في تلك البلاد في ذلك العصر[4] العصر[4] حيث كانت مصر إحدى هذه الدول التي تأثرت بالصناعة الشامية، سيما وإذا ما عرفنا عرفنا أن بلاد الشام اعتمدت بالدرجة الأولى على الصناعة في حياتها الاقتصادية بينما اعتمدت مصر في كثير من الأحيان على الزراعة، ولكن موجات الجفاف التي كانت تجتاح البلاد المصرية من وقت لآخر أجبرتها في كثير من الأحيان على العمل بالصناعة لتضمن لنفسها الحياة في ظل تلك الظروف.

وحسب المادة التي قدمناها عن الصناعة في مصر، أنها تعكس مدى التقدم والتطور الذي شهدته مصر في ضوء ما توفر من مواد أولية لاسيما وان هذه الصناعات كانت منظمة، فقد قام الصناع بتأجير غرف خاصة أصبحت بمثابة المعامل استخدمت بمزاولة الحياكة علاوة على دور الطراز التي كانت تابعة رسمياً للدولة حتى أنشئ لها ديوان خاص له ناظر وموظفون وعمال مسئولون عن توفير ما يلزم هذه الصناعة[5]، إلى جانب هذه الصناعات فإننا نجد قيام صناعة أخرى في بلاد الشام ومن ثم في مصر تتمثل بالصناعات البحرية[6].

فقد كان وقوع بلاد الشام ومصر على ساحل البحر المتوسط والبحر الأحمر عاملاً مساعداً في إنشاء أسطول بحري أولاه الأيوبيين عناية فائقة فقاموا بإنشاء السفن الحربية والتجارية[7] وكان هناك دور مسؤولة عن صناعة هذه السفن، وينفق عليها ديوان الأسطول التي التي أنشأه الأيوبيين في مصر لهذا الغرض[8].

وكان الخشب والكتان الذي استخدم في صناعة الحبال من أهم المواد الأولية التي ساعدت علي قيام هذه الصناعة[9] فمن الأخشاب المستخدمة في بناء السفن المصرية خشب السنط، الذي عرفت مدينة بهنسا[10] بزراعة أشجاره[11].فضلاً عن خشب الأرز المستورد من الشام والأناضول[12].

([1]) الأنوال: ومفردها نول: خشبة الحائك التي يلف عليها الثوب والمنول والحائك الذي ينسج الوسائد ونحوها نفسه ذهب (أو الحائك نفسه ذهب) بواسطة النول . ابن منظور: لسان العرب، 4583/51 .

([2]) الحموي: معجم البلدان، 473/2 ؛ زكريا بن محمد بن محمود القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، (بيروت، 1960)، 193 ؛العكيدي: التنظيمات ،91-92.

([3]) عاشور: الأيوبيون والمماليك، 150 .

([4]) محمد: المجتمع الإسلامي، 129 .

([5]) ابن مماتي: قوانين الدواوين، 330 .

([6]) الصائغ: عصر الملك الكامل، 139 .

([7]) أحمد مختار العبادي وعبد العزيز سالم:تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، دار الأحد، (بيروت،1972)،216.

([8]) ابن مماتي: قوانين الدواوين، 348 ؛ المقريزي: الخطط، 17/3 .

([9]) العبادي وآخرون: تاريخ البحرية، 216 .

([10]) بهنسا: مدينة بمصر من الصعيد الأدنى غربي النيل، ليست على ضفة النيل. الحموي: معجم البلدان،516/1.

([11]) ابن مماتي: قوانين الدواوين، 348 .

([12]) سعاد ماهر: البحرية في مصر وآثارها الباقية، دار الكتاب العربي، (القاهرة، 1967)، 170 .

ويذكر: "أن السلطان صلاح الدين قد أمر بتعمير أسطول آخر من مصر... بالإضافة للأسطول المتواجد في الشام"[1]. إلا أن الأستاذ الدكتور إحسان عباس يذكر أن السلطان صلاح الدين لم ينشأ أسطولا شامياً ولا غرابة في ذلك، لأن موانئ الساحل الشامي كانت في يد الصليبيين في تلك الفترة، فلم يكن صلاح الدين في حال تمكنه من استخدام أي ميناء شامي، وكانت دور الصناعة في صور وغيرها قد دخلت في حوزة الصليبيين[2]، فربما يكون السلطان صلاح الدين قد استخدم أهل هذه المدن وخبراتهم في بناء الأسطول المصري.

اهتم السلطان صلاح الدين بتطوير الأسطول البحري وذلك بتقوية أجهزة الدفاع والحراسة على السواحل المصرية، وبعد وفاته أصاب الأسطول الإهمال، إلا أن السلطان الملك الكامل أعاد لهذا الأسطول ودور صناعته أهميته السابقة[3].

ويتضح من ذلك إن الدولة الأيوبية في مصر، امتلكت أسطولاً قوياً تابعاً للسلطة المركزية بفضل اهتمامها بالجانب الصناعي، وهذا ما فرضته الظروف بضرورة إعطاء أهمية وجهد كبير لتطوير هذا الأسطول، خدمةً لظروفها العسكرية التي كانت تعيشها [4].

3. التجارة :

ظلت الطرق التجارية البرية القديمة والتي تبدأ من الصين والهند حتى سواحل الشام على البحر المتوسط، بالإضافة إلى مصر التي امتازت بموقعها الجغرافي على طريق التجارة بين المشرق والغرب[5].

لقد ارتبط شمال الشام بطريق تجاري بري مع مصر عن طريق الكرك[6] غزة إلى مصر، كما ربط هذا الطريق منطقة السواحل والثغور في الشام ومصر[7].

ومن الطرق التجارية البحرية التي ربطت الشام بمصر الطريق البحري من الشرق الأقصى إلى البحر الأحمر، ثم يتجه شمالاً بعد أن يترك البحر الأحمر، عبر سيناء إلى دمشق ثم موانئ ساحل البحر المتوسط[8].

لقد كان طريق التجارة البري الذي يربط الشام بمصر، الذي يمر بمدينة الشوبك[9] بفلسطين ثم إلى الفرما[10] وبلبيس في مصر من أفضل طرق التجارة التي تربط بين الإقليمين، إلا أن الصليبيين في سنة 509هـ/1115م، احتلوا مدينة الشوبك ليقطعوا طريق التجارة الحيوي القائم بين الشام ومصر[11].

([1]) الأصفهاني: الفتح القسي، 188 .

([2]) تاريخ بلاد الشام في عهد الأتابكة والأيوبيين 490-650هـ، منشورات لجنة تاريخ بلاد الشام في الجامعة الأردنية، (عمان، 1998)، 234 .

([3]) العبادي وآخرون: تاريخ البحرية، 293 .

([4]) الصائغ: عصر الملك الكامل، 143 .

([5]) ف. هايد: تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ترجمة: أحمد محمد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة، 1985)، 52، 58 .

([6]) الكرك: حصن مشهور بناحية الشام ومعقل مشهور . الحميري: الروض المعطار، 493 .

([7]) التكريتي: الأيوبيون، 372 .

([8]) محمود محمد الحويري: الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر من الميلاد (عصر الحروب الصليبية)، دار المعارف، (القاهرة، 1979)، 124 .

([9]) الشوبك: قلعة حصينة في أطراف الشام بين عمان وأيلة والقلزم قرب الكرك . الحموي: معجم البلدان، 370/3 .

([10]) الفرما: هي أول مدن مصر من جهة الشمال، بينها وبين البحر الأحمر ثلاثة أميال.الحميري: الروض المعطار،439.

([11]) الحموي: معجم البلدان، 370/3 ؛ المقريزي: الخطط، 632/1 .

لكن قيام نور الدين محمود بتوحيد مصر والشام تحت حكمه ترتب عليه ازدياد نشاط التبادل التجاري بين الجانبين، حقيقة أن سيطرة الصليبيين على حصن الكرك والشوبك، مكنتهم في أول الأمر من اعتراض طريق القوافل المتنقلة بين مصر والشام ولكن نور الدين محمود ومن بعده صلاح الدين لم يسكتا عن ذلك التهديد[1]، حتى تمكن السلطان صلاح الدين من استعادة حصن الشوبك ومدن ساحلية أخرى في سنة 583هـ/1187م[2]، وتأمين طرق القوافل في تلك المنطقة الهامة التي تعتبر حلقة الوصل بين البلدان العربية[3]. وصار يسلك هذا الطريق على الرمل[4]، فسلكه المسافرين من حينئذ إلى أن تولى السلطنة في مصر الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل، فأنشأ بأرض السباخ، على طرف الرمل بلدة عرفت بالصالحية في سنة 644هـ/1246م، فأقام بها، وأقام بها السلاطين من بعده[5].

وكان هذا الطريق من أهم طرق الاتصال الحضاري في العصر الأيوبي، فقد ذاع صيت مدينة دمشق في العصر الأيوبي –بوجه خاص- بفضل موقعها الجغرافي كنقطة تلاقي البضائع القادمة من مصر وبلاد العرب والمتجهة إلى الشمال، والبضائع الواردة من تجارة غرب آسيا بكميات هائلة، يذهب جزء منها إلى مصر لأن العلاقات بين دمشق والقاهر، كانت نشيطة في العصر الأيوبي لاسيما بعد أن توحد البلدان تحت الحكم الأيوبي[6]. حيث كان لتجار الشام الدور البارز في نقل البضائع والسلع إلى مصر، فقد عرفت مصر توافد أعداد متواصلة من التجار الشاميين، وكانت إحدى هذه الوفود التجارية هم التجار الذين وفدوا مصر صحبة نجم الدين أيوب والد صلاح الدين عندما استدعاه إلى مصر في بداية حكمه للبلاد، حيث تذكر المصادر التاريخية : "أن السلطان الناصر صلاح الدين أرسل إلى الملك العادل نور الدين –رحمه الله- يطلب أن يرسل إليه والده نجم الدين أيوب، فجهزه نور الدين وسيّر معه عسكراً واجتمع معهم من التجار خلق كثير، وانضاف إليهم من كان له مع صلاح الدين أنس وصحبه"[7].

وتبدو التجارة –من أول وهلة- من أكثر ميادين النشاط الاقتصادي حيوية، حيث لقيت التجارة الاهتمام الوافر والرعاية الكبيرة على الصعيدين الرسمي والشعبي ويتضح ذلك من خلال الأدبيات الغزيرة التي ألفت عن التجار والتجارة، هذه الأدبيات التي تمدح التجار وترفع من شأنهم الاجتماعي في العصور الوسطى[8].

فعلى الرغم من اهتمام الأيوبيين بالحرب وتتبع فلول العدو الصليبي والقضاء على محاولاته، فإنهم لم يغفلوا شؤون الأمن، ووجهوا عنايتهم إلى رفاهية الشعب مادياً ومعنوياً من خلال اهتمامهم بالتجارة[9]، وما يرتبط بنشاطها من خلال إسقاط السلطان صلاح الدين المكوس والضرائب التي كانت مفروضة على أهل مصر[10]، وكانت أولى القوافل الشامية الوافدة إلى

([1]) عاشور: مصر والشام، 129-130 .

([2]) المقريزي: الخطط، 632/1 ؛ العريني: الشرق الأدنى، 201/1 ؛ شلبي: التاريخ الإسلامي، 165/5.

([3]) عاشور: مصر والشام، 130 .

([4]) الرمل: هذا الرمل ممتد في الأرض، ويسميه بعضهم الرمل الهبير، وطوله من وراء جبل طيء إلى أن يتصل شرقاً بالبحر، ويمضي من وراء جبل طيء إلى أرض مصر، ثم إلى بلد النوبة، ويمتد إلى البحر المحيط مسيرة خمسة أشهر . المقريزي: الخطط، 513/1 .

([5]) المقريزي: الخطط، 633/1 .

([6]) هايد: تاريخ التجارة، 182 .

([7]) ابن الأثير: الكامل، 352/11 ؛ أبو شامة: الروضتين، 98/2 ؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، 340/2 ؛ ابن واصل: مفرج الكروب، 185/1.

([8]) فيصل السامر: "نهضة التجارة العربية في العصور الوسطى الإسلامية"، مجلة المؤرخ العربي، العدد (17)، تصدرها الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب، بغداد، (1981)، 61 .

([9]) سنية قراعه: مساجد ودول، ط1، مكتب الصحافة الدولي، (د.م ، 1958)، 171 .

([10]) السيوطي: حسن المحاضرة، 17/2 .

مصر دون أن تدفع أي ضريبة أو مكس في سنة 583هـ/1187م[1]. لتشهد القاهرة في عصر صلاح الدين عهداً جديداً من الازدهار التجاري[2].

فكان من نتائج هذا الاهتمام أن أصبح عصر الدولة الأيوبية عصر ازدهار وتطور ونمو التجارة سبق الأقاليم والدول الأخرى، وقد سمح السلطان صلاح الدين بحرية التجارة سواء بالاستيراد أو التصدير براً أو بحراً وشملت التجارة المصريين والأجانب وكفل حماية التجار وبضائعهم وكان عصراً جديداً لازدهار الاقتصاد وكان سابقاً لعصره في تحديث نظم التجارة الدولية وإلغاء الحوافز الجمركية مما كان له الأثر الإيجابي على تطور الحركة التجارية بين مصر وغيرها من الأقاليم الإسلامية ومنها الشام[3].

ومن اهتمامات الدولة الأيوبية بالتجارة وطرقها، فقد أصبحت الطرق التجارة آمنة في ذلك العصر لكثرة الخفراء الذين يحرسون الطرق والقوافل[4].

وشهدت مصر في العصر الأيوبي وجود عدة مراكز تجارية لمختلف العراقيين والشاميين وغيرهم، يعقدون فيها صفقاتهم التجارية ويخزنون فيها بضائعهم ويتمتعون بحرية تامة في مزاولة شعائرهم والطقوس الخاصة بهم، وكان حق إغلاق هذه المراكز التجارية متروكاً للسلطة الحاكمة بما يتلائم ومصالحها[5]. ومن هذه المراكز التجارية التي يرد إليها التجار الشاميين مركز في بقطيا "وهي أكثر الجهات متحصلاً وأشدها على التجار تضييقاً وعندهم ضرائب مقررة لكل نوع يؤخذ عن نظيرها"[6].

كما أدى الانفتاح التجاري لمصر مع الشام في العصر الأيوبي إلى ازدياد النشاط التجاري فيها بالإضافة إلى الاهتمام بالمنشآت التجارية ومنها الأسواق التي احتوت أصنافاً كثيرة من البضائع، حيث يذكر القلقشندي وهو يصف القاهرة "زخرت القاهرة بالدور الضخمة والمنازل الرحبة والأسواق الممتدة والخرانق[7] الفاخرة"[8].

وكان للتجارة بين الشام ومصر الأثر الكبير في حياة الناس، وفي أحوال معيشتهم وفي ميزانيات الحكومات ومشروعاتها. وقد اشتغل كثير من سكان مصر والشام بالتجارة وأثروا من ورائها، كما أنها أوجدت أعمالاً وصناعات لم تكن معروفة من قبل، ونشطت صناعات أخرى محلية، كصناعة الأقمشة الحريرية في تنيس والإسكندرية ودمياط، وكان يصدر منها إلى الخارج لبلاد الشرق وأوربا كميات كبيرة فائضة عن الحاجة المحلية[9]. أما أثر التجارة في تنشيط الزراعة في مصر فقد برز عن طريق محاولة الاستفادة من إمكانيات مصر الزراعية وهو ما دفع باتجاه تحسين أحوال الفلاحين، وتخفيض المكوس دعماً للنشاط التجاري[10].

فمن المواد الصناعية التي وصلت إلى مصر من الشام التحف الزجاجية التي اشتهرت بها حلب، فيذكر القزويني عن حلب "ومن عجائبها سوق الزجاج، فإن الإنسان إذا اجتاز بها لا يريد أن يفارقها، لكثرة ما يرى فيها من الطرائف العجيبة والآلات اللطيفة تحمل إلى سائر البلاد

([1]) المقريزي: السلوك، 99/1 .

([2]) شاندور: صلاح الدين الأيوبي، 106 .

([3]) العكيدي: التنظيمات، 95.

([4]) المقريزي: السلوك، 74/1 .

(3) M.A. Cook: Studies in the economic history of the middle east from the rise of Islam to the present day, London University press 1970, 55.

([6]) القلقشندي: صبح الأعشى، 466/3 .

([7]) الخرانق: ومفردها خرنق وهي اسم حوض . ومصنعة الماء . ابن منظور: لسان العرب، 1147/13 .

([8]) صبح الأعشى، 366/3 .

([9]) سلام: الأدب في العصر الأيوبي، 56 .

([10]) القلقشندي: صبح الأعشى، 466/3-467 ؛ المقريزي: الخطط 298/1.

للتحف والهدايا"[1]. كما كانت بباب بزاغة وهي من أعمال حلب أسواق "يعمل فيها كرباس[2] كثير ويحمل إلى مصر..."[3].

وعرفت دمشق بصناعتها البارعة للقسي وتفوقت على الكثير من المدن في هذا المجال، ولما كانت القاهرة مركز السلطنة وعاصمتها، فقد كانت تستورد هذه القسي من دمشق لاستخدامها في الحروب، وأثرت في مجال صناعتها في مصر حتى قيل "وفيها (القاهرة) صُناع للقسي كثيرون متقدمون ولكن قسي دمشق بها يضرب المثل وإليها النهاية..."[4].

كما استعمل في ديوان الإنشاء قطع الورق الشامي لغرض الكتابة، بنوعيه : قطع الشامي الكامل "وعرض درجة عرض الطومار[5] الشامي في طوله ؛ وهو قليل الاستعمال بالديوان، إلا إلا أنه ربما كتب فيه بعض الكتابات". والقطع الصغير "وهو في عرض ثلاثة أصابع مطبوقة من الورق المعروف بورق الطير، وهو صنف من الورق الشامي رقيق للغاية. وفيه تكتب ملطفات الكتب وبطائق الحمام"[6]. حيث كانت مصر أكبر مستورد للورق الشامي الذي اشتهر بجودته، لأن نوعية الورق المصري لم تكن بمستوى الورق الشامي[7].

وقد ترتب على انتشار الأعداد الكبيرة من أشجار الزيتون في مدينة عكا إلى ظهور صناعة زيت الزيتون، وقد تميزت زيوت عكا بجودتها إلى درجة أن شهرتها تجاوزت مدينة عكا وعرفتها أسواق المدن الأخرى، وان عملية استخراج الزيت من ثمرة الزيتون قديمة قدم شجرة الزيتون، إلا أن هذه الصناعة قد تطورت بمرور الزمن[8]. ويبدو أن مصر كانت واحدة من هذه البلدان التي يصدر إليها هذا الزيت بحكم موقعها القريب من عكا، بواسطة التجار الوافدين من الشام. ولتلعب نابلس أيضا التي عرفت بإنتاجها الكبير للزيتون، دوراً مهماً في تصدير الزيت منها إلى مصر[9].

وكان التجار ينزلون في الفنادق والخانات في القاهرة، ببضائعهم من بلاد الشام من الزيت والشيرج والصابون والدبس والجوز واللوز والخرنوب والرب، ومن التفاح والكمثرى والسفرجل الواصل من البلاد الشامية إنما يباع في وكالة قوصون[10] إذا قدم، وفيها ينقل إلى سائر أسواق القاهرة ومصر ونواحيها[11]. وللشام دور مهم في رفد مصر وغيرها من أقاليم العالم الإسلامي، بالحركة والنشاط التجاري من خلال تصديرها لأنواع المنتجات الزراعية، وقد أشار ابن العديم إلى حركة التبادل التجاري بين حلب والعراق ومصر قائلاً "وحلب من أجمل

---

(1) آثار البلاد، 183-184 .

(2) الكرباس: نوع من أنواع القماش . علي نجم عيسى: حلب في العهد الأيوبي (579-658هـ/1183-1258هـ)، دراسة سياسية حضارية، أطروحة دكتوراه غير منشورة، (جامعة الموصل، كلية الآداب، 1999)، 86 .

(3) الحموي: معجم البلدان، 303/1 .

(4) الحجازي وآخرون: النجوم الزاهرة، 29 .

(5) الطومار: يكتب به السلطان علاماته على المكاتبات والولايات ومناشير الإقطاع. القلقشندي: صبح الأعشى، الأعشى، 51/3 .

(6) القلقشندي: صبح الأعشى، 191/6-192 .

(7) ناصر خسرو: سفرنامة، تحقيق: يحيى الخشاب، دار الكتاب الجديد، (بيروت، 1993)، 48 ؛ محمد أحمد زيود: زيود: حالة بلاد الشام الاقتصادية منذ العصر الطولوني حتى نهاية العصر الفاطمي، دار الفكر، (دمشق، 1992)، 340 .

(8) علي سلطان عباس: مدينة عكا في العهدين الأيوبي والمملوكي، رسالة ماجستير غير منشورة، (كلية الآداب، جامعة الموصل: 1997)، 86 .

(9) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، 60 .

(10) قوصون: هذه الوكالة بمعنى الفنادق والخانات ينزلها التجار ببضائعهم من بلاد الشام. المقريزي: الخطط،576/2.

(11) المقريزي: الخطط، 576/2-577 .

المدن وأنفسها ولها من الكور والضياع ما يجمع سائر الغلات النفيسة وكان بلد معرة مصرين إلى جبل السماق بلد التين والفستق والسماق وحبة الخضراء يخرج عن الحد في الرخص ويحمل إلى مصر والعراق ويجهز إلى كل بلد وبلد الأرثاب والأرتاح"[1].

كما وصل إلى مصر خشب الصنوبر، من حصن التينان وهو حصن على شاطئ البحر بين بياس والمصيصة في الشام[2].

وصدرت معرة النعمان[3] وصيدا التين والزيتون والفستق والزبيب إلى مصر[4]، كما عرفت حلب بتصدير الفستق الأخضر الذي اشتهرت به إلى مصر[5]. كما حمل إلى مصر الحديد من بيروت[6]. وعرفت الشام بتصدير القدور النحاسية وقد أشار إلى ذلك ناصر خسرو في زيارته لمصر حيث يقول "ورأيت قدوراً من النحاس الدمشقي كل واحد منها يسع ثلاثين منا"[7].

كما لعبت الشام دوراً في تجارة العطور، لاسيما إذا ما عرفنا أن دمشق امتازت بأنواع الروائع العطرية ومن أبرزها ماء الورد الدمشقي[8]، الذي كان في غاية القبول عند المصريين ويدخل ماء الورد في العلاج حيث يصفه الأطباء للمرضى[9]. كما صدرت الشام الثلج إلى مصر وقدر ما كان يصل يومياً إلى القصر السلطاني بأربعة عشر حملاً من الثلج[10] إلا أن الثلج كان قليل الاستعمال في مصر[11].

ومن التجار الذين وفدوا من الشام إلى مصر، عفيف الدين عبد الله بن محمد الأرسوفي العسقلاني المعروف بابن الأرسوفي[12]، وأبو الخطاب العليمي عمر بن عبد الله الدمشقي التاجر السفار المتوفى سنة (574هـ/1178م)، الذي كتب الكثير عن تجارته بالشام ومصر والعراق[13] وأبو المفضل مكرم أبي حمزة بن محمد بن أحمد بن سلامة بن أبي جميل بن أبي الصقر الدمشقي التاجر السفار المتوفى سنة (635هـ/1231م) الذي كان يقدم مصر كثيراً لغرض التجارة[14]. ورضي الدين عثمان بن يوسف بن حيدرة الدمشقي التاجر المتوفى سنة (658هـ/1259م) الذي كان يسافر بالتجارة إلى مصر ومات فيها[15]. والمجد أبو العباس أحمد بن المسلم بن حماد الأزدي الدمشقي التاجر المتوفى سنة (666هـ/1267م) الذي رحل في تجارته إلى مصر والإسكندرية[16].

([1]) كمال الدين عمر بن أحمد بن العديم: بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق: سهيل زكار، دار الفكر، (بيروت، (بيروت، د.ت)، 60/1 .

([2]) ابن العديم: بغية الطلب، 223/1 .

([3]) معرة النعمان: مدينة كبيرة قديمة مشهورة من أعمال حمص بين حلب وحماه ماؤهم من الآبار وعندهم الزيتون الكثير والتين . الحموي: معجم البلدان، 156/5 .

([4]) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، 62، 67 .

([5]) أبو الفضل محمد بن الشحنة: الدرر المنتخب في تاريخ حلب، دار الكتاب العربي،(سورية، 1984)،252

([6]) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، 62 .

([7]) سفر نامة، 104 .

([8]) الحسين: موسوعة الحضارة العربية، 283 .

([9]) ابن الشحنة: الدرر المنتخب، 252 .

([10]) ناصر خسرو: سفر نامة، 108 .

([11]) المقريزي: الخطط، 94/1 .

([12]) المقريزي: الخطط، 440/3 .

([13]) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، 248/4 .

([14]) المنذري: التكملة، 265/6-266 ؛ الذهبي: سير، 111/14 .

([15]) الصفدي: الوافي، 342/19 .

([16]) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، 322/5 .

ومن الأمراء القادمين من الشام ممن لعب دوراً في المجال الاقتصادي في مصر، الأمير فخر الدين أبو المنصور جهاركس[1] الناصري ألصلاحي المتوفى سنة(608هـ/1121م) الذي تنسب إليه عمارة القيسارية الكبرى بالقاهرة، وقد ذكر جماعة من التجار أنهم لم يروا لها نظيراً في البلدان في حسنها وعظمها وأحكام بنائها[2].

4. الضرائب :

تعتبر الضرائب من أهم منابع الثروة وماليتها في الدولة، ليكون لها كيان تحافظ به على نفسها وعلى ضوء الثروة يتم ترتيب النفقات أو مصاريف الدولة. ولما كانت الدولة الأيوبية تمتلك مؤسسات إدارية يقدم ملكوها من خلالها خدمات اجتماعية وعمرانية وتنظيمات عسكرية، كل هذا كان يتطلب الأموال من أجل مواجهة الإنفاق[3].

وكانت الدولة الفاطمية في مصر قد فرضت المكوس على الصادر والوارد من البضائع المختلفة سواء أكانت من الغلات الزراعية، والمنتجات الصناعية أم السلع الأجنبية الواردة إلى مصر[4]. ولما قامت الدولة الأيوبية بمصر عمل السلطان صلاح الدين على رفع أكثر هذه المكوس[5] والضرائب[6]، بدلاً من أن يثقل كاهل المصريين بالضرائب من أجل السلاح والإنفاق والإنفاق على جيوشه، إلا أن السلطان صلاح الدين عمل عكس ذلك ليخفف هذه الضرائب إن لم يعمل على رفعها بالكامل[7]، من أجل كسب قلوب المصريين وترويضهم على حبه، فالتفوا حوله حوله وقد ازدادوا به عزاً ومجداً لوطنهم العظيم[8].

وقد أخذ صلاح الدين فكرة وعملية رفع الضرائب والمكوس في مصر عن حكام بلاد الشام في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر ميلادي، عندما حرص نور الدين محمود بن زنكي على رعاية الفلاحين وإصلاح أمورهم، فقد ألغى في سنة 550هـ/1154م جميع المكوس والضرائب، ولم يبقى سوى الجزية والخراج التي راعى أن تكون معتدلة مراعاة للظروف التي تمر بها البلاد[9]. كما رفع العادل نور الدين محمود في سنة 567هـ/1171م رسوم المظالم والمؤن في جميع البلاد التي بيده، "فأزالها وعفى رسومها"[10].

ويذكر أبو شامة رواية سمعها عن قاضي القضاة بهاء الدين بن شداد، يقول فيها "حكى لي السلطان الملك الناصر صلاح الدين قال : أرسلني الملك العادل نور الدين إلى عمي أسد الدين شيركوه- وكان لا يفعل شيئاً إلا بمشورته- فقال : أمضِ وقل لأسد الدين : قد حظر في بالي ان أبطل هذه الضمانات بأسرها والمؤن والمكوس. وَخُذ رأيه في ذلك. قال فجئت إليه وانتهيت إليه ما قال لي. فقال : امضِ وقل له : يا مولانا إذا فعلت ذلك فالأجناد الذين أرزاقهم على هذه الجهات من أين تعطيهم، وتحتاج إليهم للغزاة وخروج العساكر ؟ فقال السلطان صلاح

([1]) جهاركس: بمعنى أربعة أنفس بالعربي، وهو لفظ أعجمي معربة "استار" والاستار أربع أواقي . ويقال سمي سمي جهاركس لأنه أُشتري بأربعمائة دينار، أبو شامة: الذيل، 121 ؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، 381/1.

([2]) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 381/1 ؛ ابن كثير: البداية والنهاية، 63/13.

([3]) التكريتي: الأيوبيون، 377 .

([4]) المقريزي: الخطط، 298/1 ؛ سيد الأهل: أيام صلاح الدين، 103 ؛ عبد المنعم: تاريخ مصر، 247 .

([5]) المكوس: جمع مكس: النقص والظلم ودراهم كانت تؤخذ من بائعي السلع في الأسواق في الجاهلية، أو دراهم كان يأخذه المصدق بعد فراغه من الصدقة . ابن منظور: لسان العرب، 4248/47 .

([6]) القلقشندي: صبح الأعشى، 466/3-467 ؛ المقريزي: الخطط، 298/1 ؛ السيوطي: حسن المحاضرة، 17/2 ؛ ابن إياس: تاريخ مصر، 70/1 .

([7]) ضيف: تاريخ الأدب العربي، 52 .

([8]) قراعه: مساجد ودول، 64 ؛ عبد المنعم: تاريخ مصر، 247 ؛ شلبي: التاريخ الإسلامي، 160/5 .

([9]) محمد: المجتمع الإسلامي، 179 .

([10]) ابن العديم: زبدة الحلب، 334/2 .

الدين : فقلت لعمي : هذا أمرٌ قد ألهمه الله إياه، فساعده عليه. فصاح في وقال : امضِ إليه وقل له ما أقول لك. قال : فعدت إلى نور الدين، فانتهيت إليه ما قال لي عمي، فقال : امضِ إليه وقل له إذا كنا نغزو من هذه الجهات نتركها ونعقد ولا نخرج. قال : فعدت إلى عمي وقلت له ما قال. فقال : قل له : إن تركوك تقعد فجيد هو فراجعته في ألا يثبطه عن ذلك، فصاح فيَّ وقال : امض إليه وقل له ما أقول لك. قال : فجئت إليه وقلت له ذلك، فترك ذلك مدة، ثم أمضى ما كان عزم عليه"[1].

وبهذا يمكن أن نستنتج أن السلطان صلاح الدين كان على اطلاع عن قرب على مشروع رفع المكوس والضرائب من خلال خدمته لنور الدين محمود في الشام، وكان راغباً في هذا العمل، فما أن تولى السلطنة بمصر حتى باشر العمل به، حتى يذكر أبي شامة أن السلطان صلاح الدين اسقط منها ما يزيد عن مليون دينار ومليوني إردب[2]، وبالمثل اسقط عن أهل الذمة ضرائب كثيرة حتى قالوا إن كل ما كانوا يدفعونه للدولة لم يكن يزيد عن مائة وثلاثين ألف دينار[3].

ولكن هذا لا ينفي بقاء ضرائب أخرى كانت موجودة قبل قيام الدولة الأيوبية، فأبقى عليها صلاح الدين على وضعها كالضريبة المفروضة على الفول والحمص، وتراوحت قيمتها بين (2.5) إلى (3) أرادب للفدان الواحد[4]. أما قطيعة القمح والشعير فقد فرض عليها في آخر سنة 567هـ/1171م عن كل فدان (3) أرادب، وفي سنة 572هـ/1176م صارت (2.5) إردب[5].

وقد أورد ألصفدي نصاً ذكر فيه المرسوم الذي كتبه القاضي الفاضل بإسقاط مكوس مصر والقاهرة عن السلطان صلاح الدين "جملة ذلك في كل سنة مائة ألف دينار ؛ تفصيل ذلك : مكس البهار وعمالتها ثلاثة وثلاثون ألفاً وثلاث مائة وأربعة وستون ديناراً ؛ مكس البضائع والقوافل وعمالتها تسعة آلاف وثلاث مائة وخمسون ديناراً ؛ منفلت الصناعة عن مكس البَزَّ [6] الوارد إليها والنحاس والقصدير والمرجان والمفاضلات خمسة آلاف ومائة وثلاثة وتسعون ديناراً ؛ الصادر عن الصناعة بمصر ستة آلاف وست مائة وستة وستون ديناراً ؛ سمسرة التمر ثلاثة مائة دينار ؛ الفندق بالمنية عن مكس البضائع ثمان مائة وستة وخمسون ديناراً ؛ رسوم دار القند ثلاثة آلاف ومائة وثمانية دنانير ؛ رسوم الملح والخشب الطويل ست مائة وستة وسبعون ديناراً ؛ رسوم القلب المنسوبة إلى بلبيس، والبوري المنسوب إلى فأقوس[7] مائة دينار ؛ رسوم التقتيش بالصناعة عن البهار وغيره مائتان وسبعة عشر ديناراً ؛ ختمه أرمنت عن الوارد إليها سبعة وستون ديناراً ؛ فندق القطن ألفا دينار؛ سوق الغنم بالقاهرة وبمصر والسمسرة وعبور الأغنام بالجيزة ثلاثة آلاف وثلاث مائة وأحد عشر ديناراً؛ عبور الأغنام والكتان والأبقار بباب القنطرة ألف ومائتا دينار؛ واجب ما يرد من الكتان الحطب إلى الصناعة مائتا دينار ؛ رسوم واجب الغلاف كالحبوب الواردة إلى الصناعة والمقس والمنية والجسر والتبانين

([1]) الروضتين، 121/1 .

([2]) الإردب:مكيال مصري للحنطة يتألف من ست ويبات (الويبة تعادل 12.168 كغم قمح)، وكل ويبة ثمان أقداح كبيرة أو ستة عشر قدحاً صغيراً . ويصعب تحديد الإردب بدقة . فالتر هنتس: المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة: كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية،(عمان، 1970)، 58، 80 .

([3]) أبو شامة: الروضتين، 79/2 ؛ المقريزي: الخطط، 302/1 .

([4]) ابن مماتي: قوانين الدواوين، 260 ؛ القلقشندي: صبح الأعشى، 449/3 ؛ نوري: سياسة، 426 .

([5]) ابن مماتي: قوانين الدواوين، 259 ؛ القلقشندي: صبح الأعشى، 448/3 .

([6]) البز: هو السلاح الذي يدخل فيه الدرع والمغفر والسيف. أبي بكر محمد بن الحسن البصري ابن دريد: جمهرة جمهرة اللغة، ط1، دائرة المعارف العثمانية، (حيدر آباد، 1351هـ)، 29/1 .

(3) فأقوس: مدينة في حوف مصر الشرقي، وهي آخر ديار مصر من جهة الشام في الحوف الأقصى.الحموي:معجم البلدان ،232/4.

ومقالب جزيرة الذهب وطموه وبّر الدوح ستة آلاف دينار؛ مكس ما يرد إلى الصناعة من الأغنام ستة وثلاثون ديناراً ؛ الأغنام البيتوتية اثنا عشر ديناراً؛ العرصة والسرناوي بالجيزة ومكس الأغنام مائة وتسعون ديناراً ؛ منفلت الفيوم عما يرد من الكتان من القبلة من البضائع الواردة من الفيوم وغيره أربعة آلاف دينار ومائة وستون ديناراً؛ مكس الورق المجلوب إلى الصناعة ورسم التفتيش مائتا دينار؛ الجفنة بساحل الغلة والأقوات والرسائل سبع مائة وثمانية وستون ديناراً، فلت العريف بالصناعة الصادرة مائتا دينار؛ دار التفاح والرطب بمصر والعرصة بالقاهرة ألف وسبع مائة دينار؛ ابن المليجي مائتا دينار؛ دار الجبن ألف دينار؛ مشارفة الجزارين مائتان وأربعون ديناراً ؛ واجب الحلي الوارد من الوجه البحري والقطن ألف وعشرون ديناراً ؛ رسم سمسرة الصفا ألف ومائتا دينار؛ منفلت الصعيد مائة وأحد وستون ديناراً ؛ خاتم الشرب والدبيقي ألف وخمس مائة دينار ؛ مكس الصوف مائتا دينار ؛ نصف الموردة بساحل المقس أربعة عشر ديناراً ؛ دكة السمسار ثلاث مائة وخمسون ديناراً ؛ منفلت التعريف بالصناعة وجملة البهار والبضائع مائتان وستة عشر ديناراً؛ الحلفاء الواردة من القبلة بالجسر والتبانين خمسة وثلاثون ديناراً ؛ رسوم الصفا والحمراء ورسوم دار الكتان ستون ديناراً ؛ حماية الغلات بالمقس ودار الجبن مائة وأربعون ديناراً ؛ الحلفاء الواردة على الجسر ومعدية المقياس مائة دينار؛ خمس البرنية بالجيزة عشرون ديناراً ؛ تل التعريف بالصناعة ثمانية وعشرون ديناراً؛ منفلت الغلات بمعدية جزيرة الذهب عشرة دنانير؛ رسوم الحمام بساحل الغلة خمس مائة وأربعة وثلاثون ديناراً ؛ مكس ما يرد من البضائع إلى المينة مائة وأربعة وثمانون ديناراً ؛ مسلخة شطنوف البرانية مائتا دينار؛ سوق السكريين خمسون ديناراً ؛ رسوم سمة الجمل بالشارع وسوق وردان تسعة عشر ديناراً ؛ واجب الفحم الوارد إلى القاهرة عشرة دنانير؛ معدية الجسر بالجيزة مائة وعشرين ديناراً؛ سمة ألبقري أربعون ديناراً؛ السمة بدار الدباغ تسعة عشر ديناراً ؛ سمسرة الحبس ألجيوشي ثلاث مائة واثنا عشر ديناراً؛ وكان الدهن ومعصرة الشيرج والخل الحامض بالقاهرة خمس مائة دينار ؛ الخل الحامض وما معه أربعمائة وخمس دنانير ؛ بيوت الغزل والمصطبة ثلاث مائة وخمسون ديناراً وذبائح الدلالة ثلاث مائة دينار ؛ سمسرة الكتان ثلاث مائة دينار، رسوم حماية الصناعيين أربع مائة دينار؛ مربعة العسل مائتان واثنان وثلاثون ديناراً؛ معادي جزيرة الذهب وغيرها ثلاث مائة دينار؛ خاتم الشمع بالقاهرة ثلاث مائة وستون ديناراً، زريبة الذبيحة سبع مائة دينار؛ معديتا المقياس وانبابة مائتا دينار؛ حمولة السلجم ثلاث مائة وثلاثون ديناراً ؛ مكس دكة الدباغ ثمان مائة دينار؛ سوق الرقيق خمس مائة دينار؛ معمل الطبري مائتان وأربعون ديناراً ؛ سوق منبوبة ثمانمائة وأربعة وستون ديناراً ؛ ذبائح الضأن بالجيزة ورسوم ساحل الصنط عشرة دنانير؛ نخ السمك خمسة دنانير؛ تنور الشوي مائتا دينار ؛ نصف الرطل من مطابخ السكر مائة وخمسة وثلاثون ديناراً؛ خاتم الحلي مائة وعشرون ديناراً ؛ سوق الدواب بالقاهرة ومصر أربع مائة دينار؛ سوق الجمال مائتان وخمسون ديناراً ؛ قبان الجنان ثلاثون ديناراً ؛ واجب طاقات الأدم ستة وثلاثون ديناراً؛ منفلت الخام بالشاشيين ثلاثة وثلاثون ديناراً ؛ أنولة القصار[1] والجير أربعون ديناراً ؛ أعوان المراكب المنشأة والخضر والحلفا ستة وثلاثون ديناراً ؛ بيوت الفروج ثلاثون ديناراً ؛ الشعر والطارات أربعة دنانير؛ رسوم الصبغ والحرير ثلاث مائة وأربعة وثلاثون ديناراً؛ وزن الطفل مائة وأربعون ديناراً ؛ معمل ألمزر[2] أربعة وثمانون ديناراً ؛ الفاخوريات بالقاهرة ومصر مائتان وستة وثلاثون ديناراً "[3].

([1]) القصار: هو غسال الثياب أصله من قصر الثياب أي جمعها وحبسها عنده .ابن دريد: جمهرة اللغة، 358/2 .

([2]) ألمزر: هو نبيذ الشعير والحنطة والحبوب، وقيل نبيذ الذرة خاصة، وقيل انه ضرب من الأشربة . ابن منظور: لسان العرب، 4191/46 .

([3]) الوافي، 61/29، 63 .

وفي سنة 572هـ/1176م أقدم السلطان صلاح الدين في مصر على إبطال المكوس والضرائب التي كانت تؤخذ من الحجاج القادمين من الغرب مروراً بمصر إلى الحجاز، وعوض أمير مكة بمال أقطعه إياه بمصر، ليحمل إليه في كل سنة ثمانية آلاف إردب إلى مكة[1]. فكانت هذه كما يذكر ابن جبير: "من مفاخر السلطان صلاح الدين وأثاره التي أبقاها ذكراً جميلاً للدين والدنيا..."[2].

ومن أجل تنظيم عملية جباية الضريبة الخراجية، أصدر السلطان صلاح الدين في سنة 567هـ/1171م، مرسوماً بتحويل السنة القبطية (الشمسية) إلى السنة الهجرية (الهلالية)[3] وسبب هذا الإجراء هو لتجنب ما حدث من تأخير عملية التحويل مرتين أواخر زمن الفاطميين[4]. كما أن الخراج في الإسلام مرتبط بالتاريخ الهجري وشهوره فتنقل من وقت إلى وقت، فربما كان استحقاق الخراج في أول سنة من السنين الهجرية ثم يترك الحال إلى أن يصير في أواخرها في السنة التالية فيكون الخراج منسوباً للسنة السابقة واستحقاقه في السنة اللاحقة، لأن السنة الشمسية تزيد على السنة الهجرية أحد عشر يوماً، وهذا ما دفع إلى تحويل السنة الخراجية[5].

ثانياً : الميدان الاجتماعي:

هناك فرق كبير بين حياة الناس في ظل دولة مدنية وهي الدولة الفاطمية التي عنيت بالدعوتين السياسية والمذهبية، وبين حياتهم في ظل دولة عسكرية وهي الدولة الأيوبية، التي قضت العمر كله من أوله إلى أخره في التصدي للحملات الصليبية ومحاربتها[6].

لقد جاءت الدولة الأيوبية من الناحية الزمنية بين دولتين اتصفتا بالبذخ وامتازت الحياة الاجتماعية فيهما بالإسراف والمبالغة في إحياء الحفلات هما دولة الفاطميين ودولة المماليك التي قامت بعد انتهاء دولة الأيوبيين. ولكن دولة الأيوبيين أحاطت بنشأتها ظروف غير الظروف التي أحاطت بالدولة السابقة لها أو الدولة اللاحقة بها، إذ ولدت الدولة الأيوبية في وقت كان الصليبيون بالشام أشد ما يكونون قوة وعنفاً، حتى ان خطرهم كان يهدد بابتلاع البلدان الإسلامية ليس في الشام فقط، بل شمل أيضاً مصر والحجاز لذلك لم تكن هناك أي فرصة أمام الأيوبيين ليحيوا حياة اجتماعية مترفة[7]، وهذا ما انعكس على حيا المجتمع في الشام ومن بعده في مصر، لاسيما إذا ما عرفنا أن الناس على دين ملوكهم.

ويذكر القاضي بهاء الدين بن شداد نص عن حب السلطان صلاح الدين للجهاد وشغفه فيه فيقول "كان حبه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاءً عظيماً، بحيث ما كان له حديث إلا فيه، ولا نظر إلا في آلته، ولا اهتمام إلا برجاله، ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحث عليه، ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر بلاده وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح ميمنة وميسرة..."[8].

فنجد أن فكرة الحرب والجهاد هي الغالبة على حياة السلاطين، وتغلبت عقيدة الجهاد على أحاسيس الناس ومشاعرهم، مما لم يترك مجالاً للتوسع في الاحتفالات وحياة الترف. وإذا توفر الوقت أحياناً في العصر الأيوبي لحياة الترف، فإن المال لم يتوفر عندئذ لأن حراسة القوافل

([1]) سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، 338/8 ؛ المقريزي: الخطط، 115/3.
([2]) أبو الحسين محمد بن أحمد: رحلة ابن جبير، دار صادر، (بيروت، 1959)، 30 .
([3]) القلقشندي: صبح الأعشى، 71/13، 73 ؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، 324/3 .
([4]) ربيع: النظم المالية، 41 .
([5]) المقريزي: اتعاظ الحنفا، 324/3 .
([6]) حمزة: الحركة الفكرية، 57 .
([7]) عاشور: مصر والشام، 132 .
([8]) النوادر، 21 .

وتحصين المدن والقلاع وإعداد الجيوش وبناء السفن والأساطيل وصناعة العدد والآلات الحربية، كل ذلك كان كفيلاً بأن يستنفذ كل درهم في خزانة سلاطين بني أيوب. فإذا كان أول ما فكر فيه المعز لدين الله الفاطمي (359-365هـ/969-975م) عند وصوله إلى مصر كان تعمير القاهرة والعناية بأسواقها ومنشآتها، ورعاية الحفلات الدينية والمبالغة في إحيائها، وفي حين كان أول ما اهتم به صلاح الدين الأيوبي في الدور الأول من سلطنته هو بناء قلعة الجبل وبناء سور القاهرة وتحصين الثغور[1].

فالحياة الاجتماعية لعموم الناس تكاد تكون متشابهة في مصر في أثناء حكم الدولتين الفاطمية والأيوبية باستثناء حياة الخلفاء والأمراء ورجال القصر[2] مع حدوث بعض التغيير في الحياة الاجتماعية بعد دخول الأيوبيين إلى مصر.

فلو نظرنا إلى طبقات الشعب في مصر في ذلك الوقت، نراه يبدأ بالخليفة أو السلطان، ومن حوله الحاشية التي تتألف من الوزير والأمراء ومن هم في مرتبة هؤلاء. ثم تلي طبقة الموظفين في ديوان الإنشاء وديوان الجيش والبحرية، وتسير مع هذه الطبقة –أو تعلو عليها في بعض الأحيان- طبقة القضاة ورجال الحسبة والشرطة. ثم تأتي بعد ذلك طبقة التجار، وطلبة العلم، وأخيراً طبقة العامة وهم الذين يؤلفون في العادة الجزء الأكبر من الهرم الاجتماعي[3].

لكننا نجد إن الحياة الاجتماعية في بعض المدن المصرية ظلت محافظة على طابعها الذي تميزت به قبل مجيء الفاطميين، وكانت أقرب ما تكون ذات طابع شامي، بحكم عدم تأثرها بالمذهب الفاطمي، ومن أهم هذه المدن هي مدينة الإسكندرية، حيث كانت الحياة فيها مختلفة عما هو في القاهرة في العصر الفاطمي، ولعلها أقرب إلى الحياة في عسقلان في الشام[4].

1. الرحلات والهجرات الشامية :

إن الهجرة من الشام إلى مصر كانت منذ أقدم العصور، حيث كان طريق الهجرة ميسوراً على مر العصور التاريخية لوجود قنطرة ثابتة مفتوحة للعبور، وهي طريق سيناء[5] وقد تنوعت الهجرات الشامية إلى مصر في طبيعتها ما بين فردية وجماعية،بحكم العلاقة بين مصر والشام التي كانت متوطدة منذ أقدم العصور وحتى عصور متأخرة[6].وهناك أسباب عديدة لهذه الهجرات،أهمها:

- غنى بلاد النيل (مصر) بالقياس إلى بلاد الشام، حيث كانت غنية جداً بأراضيها الواسعة الخصبة التي تنتج إنتاجاً وفيراً من الحبوب والغلال.
- ضيق العيش في المجتمع الشامي، فطبيعة البلاد على الأغلب جبلية صخرية صعبة المسالك، قليلة الإنتاج الزراعي، مما دفع أعداداً كبيرة من أبناء المجتمع الشامي للبحث عن مصادر للثروة والجاه.
- تعرض بلاد الشام في فترات كثيرة لأزمات اقتصادية خانقة مما أدى إلى نزوح وهجرة البعض من الشام إلى المناطق المجاورة لاسيما إلى مصر.

([1]) عاشور: مصر والشام، 132 .

([2]) حمزة: الحركة الفكرية، 66 .

([3]) القلقشندي: صبح الأعشى، 4/6-43 ؛ حمزة: الحركة الفكرية، 66-67 .

([4]) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 7/220-221 ؛ شكيل: القاضي الفاضل، 69 .

([5]) تقي الدين أحمد بن علي المقريزي: البيان والأعراب عما بأرض مصر من الأعراب، تحقيق: عبد المجيد عابدين، ط1، عالم الكتب، (القاهرة، 1961)، 91 .

([6]) السيد سمير عبد المقصود: الشوام في مصر منذ الفتح العثماني حتى أوائل القرن التاسع عشر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة، 2003)، 14-15 .

- ومن العوامل الأخرى التي أدت إلى الهجرة من الشام إلى مصر، العوامل الدينية والثقافية، حيث شهدت مصر نشاطاً بارزاً في مجال العلوم الدينية والثقافية في العصر الأيوبي.
- كما كانت التجارة من العوامل التي دفعت الى هجرة مجموعة من أهل الشام إلى مصر والإقامة بها، حيث كانت مصر مركزاً تجارياً مهماً بين المشرق والمغرب.
- ولا يغيب عنا عامل الاستقرار الأمني في مصر التي لم تشهد أحداثاً دامية –الحروب الصليبية- فإن عامل الاستقرار له دور كبير في جذب أعداد كبيرة من المهاجرين من الشام، لتوظيف أموالهم وطاقاتهم في مشاريع طويلة الأمد هناك[1].

فكان لهذه العوامل مجتمعة الدور البارز في اجتذاب أعداد كبيرة ممن وفد من الشام للعمل والاستقرار بمصر، وليحققوا نجاحات باهرة في ميادين العمل التي تخصصوا بها.

لقد عرفت مصر هجرة القبائل العربية القادمة من الشام، ومن أبرز هذه القبائل بنو جرم الذين ينسبون إلى ثعلبة بن عمرو بن الغوث بن طيء من القحطانية، قدموا إلى مصر في عصر الدولة الأيوبية ونزلوا بأمر السلطان صلاح الدين في المنطقة الشرقية[2].

أما بنو سنبس، وهم بطن من القحطانية فقد استقروا في إقليم البحيرة طوال العصر الأيوبي، ومن المعلوم إن بني سنبس كانوا قد هاجروا من فلسطين إلى مصر قبل قيام الدولة الأيوبية[3].

كما انتقل قسم من آل ربيعة –وهم بطن من طيء القحطانية- من مساكنهم في بلاد الشام إلى مصر أيام الملك الكامل الأيوبي، وكان لآل ربيعة عند السلاطين "حرمة كبيرة وبيت عظيم"[4].

ومن الهجرات الأخرى الجامعة التي أرسلها نور الدين محمود مع والد صلاح الدين نجم الدين أيوب ملبياً طلب صلاح الدين، فضم الوفد جماعة من أهل صلاح الدين، والأمراء المقربين منهم والتجار[5]، ويطلق عليهم الأعوان، فيعرفهم أحمد رمضان أحمد محمد بأنهم "خاصة السلطان أو الأمير أو رفاقه يصحبونه ويجالسونه ويعيشون معه في منزله وتكون لهم رواتب يتقاضونها، وهم غير الندماء والشعراء، وإنما هم رجال من أهل التعقل والثقة يختصهم الملك أو الأمير أو العامل بمجالسته فيشاورهم في أموره ويركن إليهم في مهامه، وهم لذلك لهم دالة عليه وقد يكون بعضهم من مشايخ أهله أو بعض ذوي قرباه"[6]. كما قدم وفد آخر من الشام الشام إلى مصر بعد زوال الخلافة الفاطمية ضم مختلف الناس وقد استقبل السلطان صلاح الدين هذا الوفد وخلع عليه مذهبات من بقايا ما أخذه من القصر الفاطمي، فأحسن استضافتهم على خير ما يكون[7].

وكان ضمن هذه الهجرات الشامية التي عرفتها مصر، العلماء والشيوخ والمريدون حتى تجاوز عددهم الآلاف وأخذ كل منهم مكانه في ميادين التربية والتوجيه. بفعل حالة التكامل الاجتماعي التي عاشته الدولة الأيوبية التي عملت على تدعيم هذا العمل[8]. وقد تخرج بهؤلاء العلماء وتلاميذهم أعداد من أهالي الإسكندرية ومدن مصر الأخرى ممن تشربوا روحها وعلموا

([1]) عبد المقصود: الشوام في مصر، 19، 21 .

([2]) أبو العباس أحمد القلقشندي: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ط2، دار الكتاب اللبناني، (بيروت، 1980)، 195-220 ؛ المقريزي: البيان والإعراب، 6-7، 117-118.

([3]) القلقشندي: نهاية الإرب، 296 ؛ المقريزي: البيان والإعراب، 7، 9 .

([4]) القلقشندي: نهاية الإرب، 100-101 .

([5]) ابن الأثير: الكامل، 344/11 ؛ المقريزي: الخطط، 114/3 .

([6]) المجتمع الإسلامي، 90 .

([7]) المقريزي: السلوك، 47/1 .

([8]) الكيلاني: هكذا ظهر، 259 .

في معاهدها ودافعوا عنها. ومما زاد روح الجهاد في الإسكندرية اشتعالاً، وجود العساقلة اللاجئين الذين ساهموا في الدفاع عنها[1].

وقد لعبت الخوانق في مصر أدواراً دينية واجتماعية وثقافية هامة في حياة المجتمع الإسلامي منذ نشأتها[2]، فقد أقام هؤلاء العلماء والشيوخ في هذه الأماكن (الخانقاوات) سواءً من من جاء من الشام ومن البلاد الأخرى، ورافقهم أولادهم ونسائهم وقد أقمن معهم هناك، وكن يفرغن معهم للعبادة والتزهد[3].

وقد تمتع هؤلاء العلماء القادمين من الشام في ظل الدولة الأيوبية سواء في عهد صلاح الدين أوفي عهد خلفائه من بعده ببحبوحة العيش وصاروا يختارون للشورى والوزارة، وكان لآرائهم أثرها في سير الحوادث. وقد جمع بعضهم كثيراً من المال، فكانت له الثروة والقصور والجواري الحسان بسبب تحسن وضعهم الاقتصادي والاجتماعي مما جمعوا من رعاية وهبات السلاطين والأمراء[4]. وخير مثال على ذلك زين الدين علي بن إبراهيم بن نجا الدمشقي المتوفى سنة (599هـ/1202م)[5]، أحد علماء الحنابلة في ذلك العصر، كان يعيش عيشاً أطيب من عيش الملوك في الأطعمة والألبسة، وكان عنده أكثر من عشرين سرية من أحسن النساء كل واحدة منهن بألف دينار[6].

والى جانب هؤلاء القادمين إلى مصر من الشام فقد لجأ الى مصر مجموعة من اليعاقبة السوريون أيام الحروب الصليبية، فعلى الرغم من أنه في عهد صلاح الدين نفسه "نودي بمنع أهل الذمة من ركوب الخيل والبغال، من غير استثناء طبيب ولا كاتب". إلا ان سلاطين بني أيوب كانوا يميزون أتباع هذا المذهب (اليعاقبة) على غيره من مذاهب النصارى بمصر، فقد تول هؤلاء القادمين من الشام من اليعاقبة كرسي البطريكية على غيرهم من المذاهب الأخرى وصار هذا المنصب حكراً لهم[7].

2. الأعياد والمناسبات :

إن رخاء مصر، وحظها العظيم من الثروة، مهد لأبنائها أن يأخذوا لأنفسهم بحظ كبير من متع هذه الحياة، وان يعنوا أيما عناية بأيام يحتفلون فيها، وقد تعددت هذه الأيام في عصر الدولة الفاطمية، التي وضعت لها نظماً وتقاليد تتبع بدقة[8]، وكانت هذه المواسم والأعياد على طول السنة، وهي "موسم رأس السنة، وموسم أول العام، وموسم عاشوراء، ومولد النبي (ﷺ)، ومولد علي بن أبي طالب (عليه السلام)، ومولد الحسن والحسين ومولد فاطمة الزهراء (رضي الله عنها)، ومولد الخليفة الحاضر، وليلة أول رجب، وليلة نصفه، وليلة أول شعبان، وليلة نصفه، وموسم ليلة رمضان، وغرة رمضان، وسماط رمضان، وليلة الختم، وموسم عيد الفطر، وموسم عيد النحر، وعيد الغدير، وكسوة الشتاء، وكسوة الصيف، وموسم الفتح الخليج، ويوم النوروز، ويوم الغطاس،

([1]) شكيل: القاضي الفاضل، 70-71 .

([2]) عاصم محمد رزق: خانقاوات الصوفية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي، ط1، مكتبة مدبولي، (القاهرة، 1997)، 23/1 .

([3]) حمزة: الحركة الفكرية، 111 .

([4]) سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، 515/8 ؛ سلام: الأدب في العصر الأيوبي، 88 .

([5]) المنذري: التكملة، 417/2-418 ؛ أبو شامة: الروضتين، 50/3 ؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، 398/42-400، سير، سير، 212/13-214 ؛ زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن شهاب بن رجب: الذيل على = طبقات الحنابلة، تحقيق: محمد حامد الفقي، مطبعة السُنة المحمدية، (القاهرة، 1952)،436/1، 440 ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، 340/4-341.

([6]) سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، 515/8 ؛ ابن كثير: البداية والنهاية، 35/13 .

([7]) المقريزي: السلوك، 77/1 ؛ حمزة: الحركة الفكرية، 347-348 .

([8]) بدوي: الحياة الأدبية، 20-21 .

ويوم الميلاد، وخميس العدس، وأيام الركوبات"[1]. وعلى الرغم من أن هذه الأعياد تخص الفاطميين أنفسهم كحكام، إلا أن جمهور الشعب المصري لم يكن يأنف من الاشتراك في هذه الاحتفالات والإقبال على ما تقدمه الدولة خلالها من بذخها وثرائها ممثلاً في الهبات والموائد والصدقات التي لا يخلوا عيد من أعياد الدولة الفاطمية[2].

وكان هناك متنزهات لأهل مصر والقاهرة، لاسيما في أيام النوروز والميلاد والمهرجان ونحو ذلك من أيام اللهو والقصف والعزف، فكانوا يخرجون إلى بركة الجيش وبركة الفيل وغيرها، فيضربون المضارب الجليلة والسرادقات والقباب[3]، حيث انتشر الغناء والطرب في عصر الدولة الفاطمية، وهذا راجع لتشجيع الخلفاء وكبار رجال الدولة، فلم يكن يخلو مجلس من مجالسهم الخاصة ومآدبهم المتعددة من سماع الغناء والموسيقى ومشاهدة فنون الرقص والألعاب المسلية[4].

ولما جاءت الدولة الأيوبية إلى مصر، لم يكن عندها من وقت فراغ يسمح بإقامة كل هذه الأعياد، ولا كان عندها المال الوفير لتنفقه في غير الحرب التي فرضتها على نفسها ضد الصليبيين[5]، ولكن هذا لا يعني أن الحياة الاجتماعية في مصر في العصر الأيوبي صارت مجدبة كل الجدب أو خشنة كل الخشونة[6]، بل نجد أن الأيوبيين قد ساروا على نسق الفاطميين في الاحتفال بالأعياد[7]، ولكن في غير إسراف وبدون تهتك، إلا أنهم ألغوا بعض الأعياد السابقة السابقة وحوروا وغيروا في البعض الآخر من تلك الأعياد وطبعوها بطابع جديد[8]، وتلونت بلون طباعهم، حتى في المأكل والمشرب والملبس. ولم تزل تتلون بتلون القوة الحاكمة ومن جاء معها من الشام[9].

والراجح أن الأيوبيين كانوا يحتفلون بالأعياد الحربية أكثر من احتفالهم بالأعياد الأخرى، فإذا رجع السلطان أو أحد الأمراء من غزوة له ضد الصليبيين، أو انتصر على الخارجين عن سلطة الدولة، أمر فدقت له البشائر في عموم البلاد، ومد السماط فنالت منه طبقات الشعب على اختلافها، وكان اليوم يوم فرح وسرور يعم الشعب، ويصول فيه الشعر، وتوزع فيه العطايا[10].

فعلى الرغم من معرفة مصر لكثير من مواكب الاحتفالات في العصر الفاطمي، إلا أنها لم تعرف موكب تقليد السلطنة (تتويج)، الذي لم يدخل مصر إلا على أثر دخول لقب وحكم السلاطين، وقد عرفت مصر مواكب تقليد السلطنة لأول مرة بعد سقوط الخلافة الفاطمية[11]، وأول من ركب بشعار السلطنة في مصر كان السلطان صلاح الدين الأيوبي[12]. وبهذا يكون هذا التقليد محاكاة لما كان يحدث في الشام من وصول خلع السلطنة والتقليد ومواكب السلطنة الزنكية التي حكمت الشام، والتي أخذت هذا التقليد عن السلاجقة في العراق.

([1]) المقريزي: الخطط، 347/2 .

([2]) عبد المنعم عبد الحميد سلطان:الحياة الاجتماعية في العصر الفاطمي، دار الثقافة العلمية، (الإسكندرية، 1999)، 151 .

([3]) مبارك: الخطط التوفيقية، 76/1 .

([4]) سلطان: الحياة الاجتماعية، 215 .

([5]) حمزة: الحركة الفكرية، 59 .

([6]) عاشور: مصر والشام، 133 .

([7]) بدوي: الحياة الأدبية، 21 .

([8]) المقريزي: الخطط، 358/1 ؛ السلوك، 136/1 ؛ مبارك: الخطط التوفيقية، 68/1 .

([9]) مبارك: الخطط التوفيقية، 68/1 .

([10]) حمزة: الحركة الفكرية، 60 .

([11]) ابن واصل:مفرج الكروب، 219/1-220؛المقريزي:السلوك،46/1؛ بهجت:أثر الحضارة السلجوقية،89/1-90 .

([12]) ابن واصل: مفرج الكروب، 220/1 ؛ المقريزي: السلوك، 46/1 ؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك، 155.

وقد لعب القاضي الفاضل الذي عاش وعمل في ظل الدولتين الفاطمية والأيوبية، دوراً بارزاً في معاونة السلطان صلاح الدين في القضاء على الأعياد التي عرفتها مصر زمن الفاطميين من خلال أقواله وأفعاله التي خدم بها دولة الأيوبيين بمصر[1].

3. آثار أخرى في الحياة الاجتماعية :

كان الناس يخضعون في القرنين السادس والسابع الهجريين لنظم اجتماعية لم يسبق مشاهدتها في العالم الإسلامي، كانت نظماً طارئة أساسها الإقطاع الذي ساد العصور الوسطى في أوربا والشرق[2].

فعلى الرغم من محاسن هذا النظام إلا أن هذا النظام كان له مساوئه، لأن ذلك أدى إلى تقسيم الناس إلى طبقتين متناقضتين إحداهما طبقة الأمراء وأصحاب الإقطاع ويلحق بهم التجار الكبار، وأصحاب الثراء من المقربين من الأمراء والسلاطين، ثم الطبقة الثانية، وهي الطبقة الدنيا طبقة الشعب الفقير، وهي طبقة لا تملك شيء[3].

وقد حرص الأمراء الأيوبيين على الاحتفاظ بعلاقات حميمة مع الفلاحين في مصر عن طريق زيارتهم للقرى في مواسم الحصاد، وكذلك كان الحال في الشام[4].

وكان طبيعياً أن ينتج عن هذا الاضطراب وعدم التوازن في دخل الناس التجاء بعض الناس إلى كثير من ألوان الكسب غير المشروع، وغير الطبيعي الذي لا يأتي عن طريق زراعة الأرض وفلاحتها، ولا عن طريق التجارة، ولا الأعمال المهنية المختلفة، ولا عن الصناعة، إنما يأتي عن طرق ملتوية قد يكون أساسها السعي لاجتذاب الرزق من السلاطين والأمراء والطبقة الغنية عن طريق الاستجداء والتملق في صور مختلفة ومتعددة[5]. إلا أن المستوى الاجتماعي والخلقي لم ينحط في مصر كما حدث في أوربا في العصور الوسطى، بسبب الدور المهم الذي لعبته المدارس وأثرها على الناحية الاجتماعية[6].

أما التصوف فهو ليس مجرد ظاهرة دينية فحسب، وإنما كان ظاهرة اجتماعية أيضاً. ولم يلبث أن وفد على مصر في العصر الأيوبي الكثير من زعماء المتصوفة ومشايخهم من الشام وغيرها من بلدان العالم الإسلامي، فأشاعوا بمصر حياة الزهد والتقشف مما ترك أثراً خطيراً في المجتمع المصري[7]. فكان التصوف أصلح نبات يلائم مصر البلاد العظيمة الحظ من الحرارة والدفئ فسيطر التصوف على الحياة الاجتماعية في مصر، سيطرة شملت جميع أنحائها، وزادت من دفئها[8].

ومما لا شك فيه أن كثيراً من المصريين اتخذوا طريق التصوف حتى ينعموا بما كان ينعم به غيرهم من سكان الخوانق أي أنهم اتخذوا التصوف وسيلة للحياة الدنيا، ومنهم من اتخذ التصوف مذهباً دينياً له[9]. وقد ظهرت جماعات في المجتمع المصري لم يكن لهم عمل في الحياة إلا أنهم متدينون صالحون، وكان الأمير أو السلطان يتقرب للناس بتقريب هؤلاء وإيوائهم وهكذا ظهرت بدعة التكايا، ورباطات الصوفية، وكانت تضم جماعات وأشتاتاً من الناس من

([1]) شكيل: القاضي الفاضل، 55 .

([2]) سلام: الأدب في العصر الأيوبي، 47 ؛ الأدب في عصر صلاح الدين، 44 .

([3]) القلقشندي: صبح الأعشى، 4/50-51 ؛ سلام: الأدب في العصر الأيوبي، 48.

([4]) توجيتاكا ساتو: "نظام الإقطاع في مصر والشام في العصر الأيوبي"، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، العدد (38)، مجلد (10)، جامعة الكويت، الكويت، (1990)، 188 .

([5]) سلام: الأدب في عصر صلاح الدين، 45-46 .

([6]) بيومي: قيام الدولة الأيوبية، 238 .

([7]) المقريزي: الخطط، 3/570 ؛ عاشور: مصر والشام، 117 .

([8]) حمزة: الحركة الفكرية، 94 .

([9]) حسين: دراسات في الشعر، 65-66 .

مختلف بلدان العالم الإسلامي، يأكلون ويشربون ويدعون للأسياد بالخير والبركة إذا ما استمر المدد، أو يدعون عليهم بالويل والثبور والنكال إذا انقطعت رواتبهم أو تساء معاملتهم[1] وبذلك يكون التصوف من الظواهر الهامة التي شهدتها مصر في العصر الأيوبي[2].

لاشك أن الذي ساعد على تقبل المؤثرات الشامية في مصر هو احتفاظ المصريين للكثير من عاداتهم وتقاليدهم ومذهبهم الذي عرفوا به قبل دخول الفاطميين لمصر[3].

([1]) المقريزي: الخطط، 571/3 ؛ سلام: الأدب في العصر الأيوبي، 49 .

([2]) سلام: الأدب في العصر الأيوبي، 70 .

([3]) عبد العزيز سليمان نوار: تاريخ مصر الاجتماعي منذ فجر التاريخ حتى العصر الحديث، دار الفكر العربي، العربي، (القاهرة، د.ت)، 121 .

الفصل الثالث

الميدان الثقافي

الفصل الثالث

الميدان الثقافي

كان للشام وغيرها من أقاليم العالم الإسلامي الأثر البارز في نقل وتطوير الكثير من المظاهر الثقافية في مصر، ليس في العصر الأيوبي فحسب بل كان هذا التواصل مستمراً طيلة العصور الإسلامية. حيث كانت مصر قد شهدت نهضة تعليمية ثقافية في عصر الفاطميين[1]، الذين حرصوا على أن يجعلوا لمصر المكانة المرموقة في العالم الإسلامي، لكي يجذبوا أنظار المسلمين إليهم في وقت كانت الخلافة العباسية في بغداد تضعف شيئاً فشيئاً، وقد نجح الفاطميون فأصبحت القاهرة تنافس بغداد في الغنى والرفاهية، بل إن الأدب والفن والعلم ازدهرا ازدهاراً ملحوظاً، مما آذن بتحول القيادة الثقافية والفنية في القرون التالية إلى القاهرة[2].

أما في بلاد الشام فنجد اهتمام حكامها بالعلم في تلك الفترة واضحاً فيذكر أبو شامة أنه: " كان نور الدين محمود يحضر مشايخ الصوفية عنده، ويقربهم، ويدنيهم ويبسطهم، ويتواضع لهم، وإذا أقبل أحدهم إليه يقوم له مذ تقع عينه عليه، ويعتنقه ويجلسُهُ معه على سجادته، ويقبل عليه بحديثه. وكذلك كان أيضاً يفعل بالعلماء من التعظيم والتوقير والاحترام، ويجمعهم عند البحث والنظر"[3] وبذلك يمكن القول بأن الحكام كان لهم دوراً كبيراً في بعث الحركة العلمية في مصر والشام[4].

لقد جاءت الدولة الأيوبية في أعقاب الدولة الفاطمية، وكان صلاح الدين والأيوبيين يعرفون أهمية مصر وقدروا ما يمكن أن تقوم به في مناوأة الصليبيين، لهذا كان صلاح الدين حريصاً على تقوية مصر وتدعيمها داخلياً وخارجياً، فكانت الثقافة والاهتمام بها إحدى هذه الدعائم، التي عبّرت عن روح صلاح الدين ومناهجه الإصلاحية، لأنه كان يرى في مصر خط الدفاع الثاني ضد الصليبيين، بعد دمشق المواجهة لهم[5].

لهذا ازدهرت الحركة الثقافية في مصر في عصر الأيوبيين ازدهاراً عظيماً، حيث مثل هذا العصر ثورة من الناحية الفكرية وإحياء للتراث العربي الإسلامي، والذود عنهما ضد تيارات الفكر الأجنبي، والدفاع عن ذخائره ضد عوامل الضياع والانحلال والضعف، والتي بدت في صورة جمع للذخائر في موسوعات كبيرة في الفقه أو اللغة والأدب[6]. فكانت حقبة بني أيوب في مصر والشام من أخصب الحقب في التأليف والتصنيف[7] فكان عصرهم عصر إحياء للفكر والثقافة والسياسة، وتمثل هذا الإحياء في بعث العلوم الشرعية والاهتمام بالقرآن والحديث

([1]) الخربوطلي، مصر العربية، 351.

([2]) القلقشندى: صبح الأعشى، 3/348-349 ؛ سلام: الأدب في العصر الأيوبي، 137.

([3]) الروضتين، 1/106.

([4]) إبراهيم فرغلي: الحركة التاريخية في مصر وسوريا خلال القرن السابع الهجري، ط1، دار العربي للنشر والتوزيع، (القاهرة، 2000)، 59.

([5]) سلام: الأدب في العصر الأيوبي، 137-138، الأدب في عصر صلاح الدين، 156.

([6]) عمر موسى باشا: أدب الدول المتتابعة عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك ، ط1، دار الفكر الحديث ، (القاهرة، 1967)، 134؛الخربوطلي: مصر العربية، 351؛ ناظم رشيد: " التعليم في ظل الدولتين الزنكية والأيوبية في الشام"؛ مجلة آداب الرافدين، العدد (10)، كلية الآداب، جامعة الموصل، (1979)،273.

([7]) ناظم رشيد: "النشاط العلمي والأدبي في عهد الأسرة الأيوبية"، مجلة آداب الرافدين، العدد (8)، كلية الآداب، جامعة الموصل، (1975)، 445.

اهتماماً بالغاً. وقد اشتهر السلاطين الأيوبيين بميلهم الفطري إلى العلم، فقربوا إليهم العلماء والفقهاء والشعراء، وحضروا مجالسهم، وشاركوا في أبحاثهم، وناظروهم في مسائلهم، واستدعوهم إلى قصورهم لمسامرتهم ومنادمتهم فلا نعجب والحالة هذه إذا ظهر من بني أيوب أعلام في مختلف ضروب المعرفة فكان منهم العالم والأديب والمؤرخ والشاعر[1]. وبذلوا كل ما في وسعهم لتوفير الأساتذة من أقطار العالم الإسلامي شرقاً وغرباً، وكانت المدارس الكثيرة التي سارع الأيوبيين بإنشائها وسيلة أخرى من وسائل جذب خيرة العلماء من البلاد الإسلامية وبخاصة من الشرق ليتولوا التدريس فيها ويحققوا لها النجاح الذي سبق وحققوه من خلالها في الشرق[2]. فكانت الشام وأبنائها واحدة من هذه البلدان الشرقية التي رفدت مصر بالعلماء في هذا العصر. وخير مثال على ذلك هو الحافظ السلفي احمد بن محمد المتوفى سنة (576هـ/1180م) الذي وفد من بلاده في فارس إلى الشام ثم القاهرة واستقر بالإسكندرية وله فيها مدرسة مشهورة عرفت بالحديث واجتمع إليه الشعراء والأدباء المشهورين[3].

لم تتغير مصر جوهرياً في عهد صلاح الدين عما كانت عليه سابقاً، وكانت إصلاحاته السياسية والإدارية ومحاولة رفع إمكانيات الناس عن طريق العلم والإكثار من المدارس وجلب علماء من الأقطار المجاورة وتشجيعهم على الإقامة بمصر والتأليف بها، وتخريج جيل جديد من المصريين قادر على تخليص العالم الإسلامي من الاحتلال الصليبي[4]، بالإضافة إلى العمل العمل على صيانة المناهج التعليمية وتوحيدها، ونشر مبدأ تكافؤ الفرص التعليمية وربط الأمة بواقعها من خلال عقيدتها الصحيحة[5]. لتشهد مصر بذلك عصر إفاقة من القهر والضعف الذي فرضته عليهم ظروف التخلف الاجتماعي والسياسي التي كانت تحكم مصر، وكان الكاتب والوزير القاضي الفاضل راعياً لهذه النهضة الأدبية الثقافية التعليمية[6].

وانسجاماً مع ما تقدم لابد من القول أن صلاح الدين كان مهتماً بالعلم والعلماء ومجالستهم وتقريبهم منه ورعايتهم، فسمع الحديث الشريف وإخباره، وكان حافظاً للقرآن وصاحب ذوق لطيف في رواية الشعر وحفظه[7]، فيذكر العماد الأصفهاني عنه أنه: "كان يؤثر سماع الحديث بالأسانيد، وتكلم العلماء عنده في العلم الشرعي المفيد، وكان لمداومة الكلام مع الفقهاء، ومشاركة القضاة في القضاء، أعلم منهم بالأحكام الشرعية، والأسباب المرضية والأدلة المرعية وكان من جالسه لا يعلم أنه جليس السلطان، بل يعتقد أنه جليس أخ من الأخوان..."[8]. فنشر العلم في البلاد المصرية من علوم دينية ودنيوية. وأصبحت القاهرة إلى جانب بغداد مركزاً رئيسياً لجميع العلوم، واستمر هذا الاهتمام بالعلم والعلماء في الفترات اللاحقة فهذا الملك الكامل نراه يؤسس الكثير من المعاهد العلمية بمصر[9]، وكان يجالس العلماء في ليالي الجمعة لسماع حديثهم والمناقشة معهم، "فينصب لهم أسرة ينامون عليها بجانب سريره، ليسامروه"[10].

([1]) ابن شداد: النوادر، 7، 9-10، ؛ سلام: الأدب في العصر الأيوبي، 75 ؛ حسن شميساني: مدارس دمشق في العصر الأيوبي، ط1، دار الآفاق الجديدة، (بيروت، 1983)، 268 ؛ رشيد: النشاط العلمي والأدبي، 445 ؛ الصائغ: عصر الملك الكامل، 172.

([2]) المقريزي: الخطط ، 438/3؛ بهجت: أثر الحضارة السلجوقية، 59/1-60.

([3]) الذهبي: سير ، 4/13، 17؛ سلام: الأدب في العصر الأيوبي، 53.

([4]) المقريزي: الخطط، 250/1 ؛ سلام: الأدب في العصر الأيوبي، 138.

([5]) الصلابي: صلاح الدين الأيوبي، 290.

([6]) سلام: الأدب في العصر الأيوبي، 5؛ حمادة: الوثائق السياسية، 70/4.

([7]) البنداري: سنا البرق، 183؛ أبو شامة: الروضتين، 2/ 295- 296.

([8]) الفتح القسي، 344.

([9]) أبو شامة:الروضتين،296/2؛ الاسكندري وآخرون: تاريخ مصر،253؛ تشنر وآخرون:تاريخ العالم العربي، 161.

([10])الصفدي: الوافي، 158/1 ؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، 172/5-173.

وقد أدى نظام اللامركزية الذي اتبعه الأيوبيين بمصر إلى ظهور مراكز ثقافية وفنية متعددة، كالقاهرة والإسكندرية ودمياط وغيرها من البلاد المصرية، فمصر بحكم مركزها أولاً، وبحكم الزعامتين الدينية والأدبية اللتين ورثتهما عن بغداد ثانياً، أصبحت محطاً للكثير من علماء المسلمين على اختلاف أقطارهم وأجناسهم، بحيث كانت الرحلة إليها أكثر من الرحلة إلى غيرها ، فكانت الشام واحدة من هذه البلدان التي وجهت رحلاتها إلى مصر بحكم قربها ووحدة الإدارة والحكم في العصر الأيوبي، فنرى في التراجم فلاناً المصري المقدسي، وآخر المصري الشامي[1]. بحيث أصبحت مصر ملاذ الحضارة العربية وموئل علومها وفكرها وآدابها، فعنت بإنشاء المدارس، واستقبال علماء الأقطار –ومن أهمها الشام- وأسندت إليهم كثيراً من المناصب العلمية وأحياناً المناصب الوزارية، فعلى سبيل المثال كان لصلاح الدين وزيران: القاضي الفاضل والعماد الأصفهاني، الأول شامي، والثاني عراقي الثقافة أصبهاني المولد[2]. كذلك ازدانت هذه الحاشية الجليلة بالقاضي بهاء الدين بن شداد، الذي لايبرح السلطان في مواطن السلم والحرب ولا يغفل يوماً عن مطالعته الحديث والتفسير[3].

وكان العلماء يتنقلون بين البلاد الإسلامية –ومنها الشام ومصر زمن الأيوبيين- ويلقون دروسهم حيث يذهبون في حلقات الدرس بالمساجد أو المدارس[4]، وقد أثرت هذه الرحلات على على الحياة الفكرية في الحواضر الإسلامية، وجعلت المسلمين وأمرائهم يوجهون عنايتهم إلى هؤلاء العلماء الرحّل فيبنون لهم الربط والمدارس والنزل التي تأويهم وتوفر لهم الراحة وتكفل سبل الرزق ليتفرغوا للدرس والعلم، غير منشغلين بأمور العيش والكسب[5].

وإن غنى المكتبة العربية بإنتاجها الضخم في ذلك العصر، ليدلنا على حركة علمية ناشطة، وثقافة ممتازة، تنوعت فروعها، وحمل لواءها أعلام نابغون، من فقهاء على المذاهب الأربعة إلى نحاة، ولغويين، وعروضيين، ومحدثين، ومفسرين، وقراء ومتكلمين، ورجال أدب، وبلاغة، ومؤرخين، وجغرافيين، وعلماء منطق، وفلسفة وسياسية، وطب، ورياضة، وموسيقى، وفلك. وساعد على ازدهار هذه الحركة انتشار دور العلم في مصر وما فيها من خزائن الكتب، بالإضافة إلى ثقافة الحكام العالية، التي أحاطت نفسها بطبقة من المثقفين[6]. وهكذا عاشت مصر مصر في العصر الأيوبي، عصر إشعاع متوّهج ثقافياً ودينياً وتطورت الفنون تطوراً حراً[7].

والمعروف إن الدراسات الإسلامية تنقسم إلى قسمين: العلوم الطبيعية والعلوم النقلية - فالعلوم الطبيعية تعتمد على الملاحظة والإدراك الحسي والاستنتاج لذا أطلق عليها العلوم الفلسفية أو العقلية- أما العلوم النقلية فتعتمد على الوازع الديني وتشتمل على كل فروع المعرفة التي تتعلق بالقرآن مثل التفسير والقراءات والحديث والتصوف وعلوم اللغة وآدابها[8].

أولاً: العلوم الدينية (الشرعية)

يقصد بالعلوم الدينية علوم القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والفقه وأصوله وما له صلة بها من علوم شكلت مجتمعةً محور النشاط العلمي والتعليمي في عالمنا الإسلامي منذ أقدم

([1]) ابن واصل:مفرج الكروب،3/300-301؛ بهجت: أثر الحضارة السلجوقية،1/82؛ حمزة: الحركة الفكرية، 21.

([2]) ضيف: تاريخ الأدب العربي، 85.

([3]) ابن شداد: النوادر، 7 ؛ حمزة: الحركة الفكرية، 150.

([4]) محمد فريد أبو حديد: امتنا العربية، دار المعارف، (القاهرة، 1961)، 151.

([5]) أبو حديد: أمتنا العربية، 153 ؛ سلام: الأدب في العصر الأيوبي، 87.

([6]) بدوي: الحياة العقلية، 4-5.

([7]) شاندور: صلاح الدين الأيوبي، 121.

([8]) العريني: الشرق الأدنى، 1/222.

العصور ويقف القرآن الكريم على رأس تلك العلوم فحظي بالدرس والبحث من حيث قراءته وتفسيره وغريبه ومجازه وأمثاله ومفرداته ولم يكن هذا الاهتمام مقتصراً على عصر دون سواه وهكذا هو شأن العصر الأيوبي الذي اهتم قادته بالعلماء وطلاب العلم على حد سواء وصولاً إلى الغاية المنشودة ألا وهي بناء الدولة الإسلامية على أسس علمية وفكرية رصينة[1].

لقد شهدت مصر تحت الحكم الأيوبي قدوم أعداد كبيرة من العلماء إليها من مختلف بقاع العالم الإسلامي وبالذات من الشام ومارسوا نشاطهم العلمي بكل حرية وأغنوا المسيرة العلمية بكل ما يمتلكونه من علوم ومعارف جعلت من هذا البلد قاعدة للجهاد يواجه المد الصليبي[2].

1. علوم القرآن الكريم:

لقد اعتنى المسلمون بالقرآن الكريم عناية كبيرة لكونه دستورهم ومصدرهم الأول في التشريع[3]. ومن علوم القرآن التي كان للشام والشاميين دوراً في تدريسها في مصر في العصر الأيوبي، علم القراءات وعلم التفسير.

أ. علم القراءات:

تعرف القراءات لغةً على أنها: جمع قراءة[4]، أما اصطلاحاً فهي: "اختلاف ألفاظ الوحي المذكور في كتابة الحروف أو كيفيتها من تخفيف أو تثقيل وغيرهما"[5].

لقد تعددت القراءات القرآنية تبعاً لقول الرسول محمد (ﷺ): "إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فأقرؤوا ما تيسر منه"[6]، فكان هناك اختلاف في عدد القراءات، فبعضهم جعلها سبعة، وجعلها البعض الآخر عشرة ثم أضيف عليها أربع لكنها عدت شاذة وبقيت القراءات السبعة هي المتداولة، ففي مكة قراءة عبد الله بن كثير الداري (ت 120هـ/737م)، وفي المدينة قراءة نافع بن عبد الرحمن (ت 169هـ/785م) وفي الشام قراءة عبد الله اليحصبي (ت 118هـ/736م)، وفي البصرة قراءة أبي عمرو بن العلاء (ت 154هـ/770م)، ويعقوب بن اسحق الحضرمي (ت 205هـ/820م) وفي الكوفة قراءة عاصم بن أبي النجود (ت 127هـ/744م)، وحمزة الزيات (ت 156هـ/772م)[7]. وقد عرفت مصر قراءة ورش، وهو أبو سعيد عثمان بن سعيد بن عبد الله بن عمرو بن سليمان بن إبراهيم، الذي أخذ القراءة عن نافع بن عبد الرحمن الذي بعثه الخليفة عمر بن عبد العزيز (99-101هـ/717-719م)، إلى مصر ليعلم أهلها قراءة القرآن، ففعل وكان ورش

---

(1) ابن خلدون: المقدمة، 215، 473-513 ؛ باشا: أدب الدول المتتابعة، 135.

(2) مشتاق كاظم عاكول المياحي: الحركة الفكرية في مصر في العصر الأيوبي (567-648هـ/1171-1250م)، أطروحة دكتوراه غير منشورة، (كلية الآداب، جامعة بغداد، 2006)، 91.

(3) خلف: الحياة العلمية، 19 ؛ منال محمود رشيد أحمد الزبيدي: الرحلات العلمية من بلاد الشام واليها في العصرين الزنكي والأيوبي، رسالة ماجستير غير منشورة، (كلية الآداب، جامعة الموصل، 2006)، 30.

(4) ابن منظور: لسان العرب، 3563/40.

(5) محمد بن عبد الله الزركشي: البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، (القاهرة، 1957)، 318/1 ؛ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي: الراتقان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة، 1975)، 273/1.

(6) أبو الحسين بن الحجاج مسلم القشيري: صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، (بيروت، 1954)، 560/1 ؛ محمد بن محمد بن الجزري: النشر في القراءات العشر، تصحيح: علي محمد الضّباع، دار الكتب العلمية، (بيروت، د.ت)، 8/1، 19.

(7) محمد بن إسحاق بن النديم: الفهرست، تحقيق: رضا تجدد بن علي المازارني، (طهران، 1971)، 30-32 ؛ ابن خلدون: المقدمة، 474 ؛ ابن الجزري: النشر، 8/1-9 ؛ صبحي الصالح: مباحث في علوم القرآن، ط7، دار العلم للملايين، (بيروت، 1972)، 248-250.

من تلامذته، وانتهت إليه رياسة الإقراء بمصر في زمانه وكثر أتباعه وتلاميذه وتوفي ورش بمصر سنة (197هـ/812م)[1].

إن نظام التعليم في مصر والشام في ذلك العصر، كان يبدأ بالقرآن الكريم أولاً، حيث كان يوجه المتعلم في طفولته إلى المكتب، فيلقن القرآن، ويدرس قراءاته التي هي إحدى علوم القرآن[2]. وقد زاول القراء عملهم بصفة أساسية في المدارس والمساجد والأضرحة وغيرها من المؤسسات الدينية[3].

وقد بلغ علم القراءات بمصر حد القمة مع انتشار حركة إنشاء المدارس الأيوبية[4]، ذات التأثير القادم من الشام، وقد زخرت بلاد الشام في العصر الأيوبي بالكثير من مشاهير القراء الذين ساهموا في حركة الإقراء والتأليف في القراءات[5]، ومما يجدر ذكره هو أن قسماً من هؤلاء القراء كانوا قد انتقلوا إلى مصر تحت تشجيع الأيوبيين فاظهروا هناك إمكانياتهم الإقرائية الكبيرة[6]. ومن هؤلاء القراء:

- أبو حفص عمر بن نعمة بن يوسف بن سيف بن عساكر المقدسي المعروف بالبناء، قدم مصر "وأقرأ القران الكريم مدة طويلة بمسجده بسوق وردان بمصر وحكي عنه من صبره على ملازمة الطلبة نهاراً وليلاً ما يستغرب مع علو سنه"[7].
- أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن مفرج النابلسي المقريء الصوفي "وكان رجلاً صالحاً متقللاً من الدنيا كثير التلاوة للقرآن الكريم، وأمّ بالناس بالمدرسة المعروفة بمنازل العز على شاطئ النيل المبارك مدة" توفي سنة (ت 600هـ/1203م)[8].
- الوزير الجواد نجم الدين بن مجاور يوسف بن الحسين، ألتزم بقراءة القرآن وإقراءه منذ نشأته في مكة بعد أن ترك دمشق وجاور البيت الحرام لتعلم القراءات، ثم عاد إلى دمشق واتخذ مكتباً يعلم فيه الصبيان قرب جامع دمشق، وعلم أبناء الأمراء وكبار الدولة، ثم استدعاه السلطان صلاح الدين إلى مصر ليعينه معلماً لابنه العزيز توفي سنة (601هـ/1204م)[9].
- أبو الحسن علي بن فاضل بن سعد الله بن حمدون الصوري، قرأ القرآن الكريم بالقراءات ألثمان على الشيخ أبي القاسم أحمد بن جعفر بن أحمد بن إدريس الشافعي، وتصدر للإقراء بالجامع العتيق (جامع عمرو بن العاص) بمصر توفي سنة (602هـ/1205م)[10].
- أبو موسى عيسى بن يوسف بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي نزل في حلب "وقرأ فيها ثم سكن مصر مدة وأقرأ بها ثم سافر إلى الإسكندرية"، توفي سنة (613هـ/1216م)[11].

([1]) محمد بن محمد بن الجزري: غاية النهاية في طبقات القراء، عنى بنشره: ج. برجستر، ط2، دار الكتب العلمية، (بيروت، 1980)، 502/1 ؛ حمزة: الحركة الفكرية، 231.

([2]) فرغلي: الحركة التاريخية، 70.

([3]) الباشا: الفنون الإسلامية، 829/2.

([4]) أيمن شاهين سلام: المدارس الإسلامية في مصر في العصر الأيوبي ودورها في نشر المذهب السني، أطروحة دكتوراه غير منشورة، (كلية الآداب، جامعة طنطا، 1999)، 183.

([5]) خلف: الحياة العلمية، 20.

(6) ابن شداد: النوادر، 9 ؛ خلف: الحياة العلمية، 20.

(7) المنذري: التكملة، 165/1-166.

(8) المنذري: التكملة، 37/3-38.

(9) ابن سعيد: الغصون اليانعة، 19.

(10) المنذري: التكملة، 151/3-152 ؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، 10/5.

(11) الذهبي: تاريخ الإسلام، 157/44-158.

- أبو الحسن مرتضى بن حاتم بن المسلم بن أبي العرب ألحارثي المقدسي، قرأ القران الكريم بالقراءات بمصر وكتب الكثير بخطة، توفي سنة (634هـ/1236م)[1].
- أبو الحسن علي بن علي بن عبد الله بن ياسين العسقلاني المعروف بابن البلان تصدر للإقراء بالجامع العتيق بمصر، توفي سنة (636هـ/1238م)[2].
- محمد بن علي النصيبي الصوفي، تعلم القراءات بنصيبين، ثم نزل بعلبك وأصبح شيخ الإقراء بجامعها ثم انتقل إلى مصر فقرأ بها القراءات، فكان بديع النظم عارفاً بالقراءات يحل القصيد حلاً متوسطاً، توفي في بعلبك سنة (695هـ/1295م)[3].

ب. علم التفسير:

يُعرف التفسير على أنه البيان والكشف والإظهار[4] أما اصطلاحاً: فهو علم يختص في البحث في أحوال القران من حيث دلالته بقدر الطاقة البشرية وبحسب ما تقتضيه القواعد العربية وأصول الكلام وأصول الفقه[5].

لقد نزل القرآن الكريم بلغة العرب وحسب بلاغتهم، فكانوا يفهمونه ويعرفون معانيه[6]، ويلجأ الصحابة إلى الرسول (ﷺ) في تفسير الآيات التي يصعب فهمها بوصفه المفسر الأول، قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[7]. زادت الحاجة إلى التفسير بعد أن دخل الإسلام عناصر غير عربية، بالإضافة إلى تعدد لهجات القبائل واختلافها، فوقع ذلك على عاتق الصحابة والتابعين بعد وفاة النبي(ﷺ)[8].

وأخذ التفسير اتجاهين، الأول: التفسير بالمأثور ويسمى بالمنقول أو بالرواية أيضاً، أما التفسير الثاني: فهو التفسير بالرأي أو بالاجتهاد أو الدراية[9].

كانت حركة التفسير ناشطة في مصر والشام في العصر الأيوبي، وكان التفسير مادة أساسية تدرس في المدارس التي قامت في مصر، وقد زخرت الشام في ذلك العصر بالعديد من المفسرين وانتاجاتهم في هذا المجال[10]. وقد انتقل عدد من المفسرين إلى مصر وزاولوا نشاطهم هناك ومنهم:

- زين الدين أبو الحسن علي بن إبراهيم بن نجا الحنبلي الدمشقي المعروف بابن نجا، اشتغل بالتفسير والوعظ، سافر إلى بغداد وسمع علم التفسير من مشايخها ووسع

---

(1) المنذري: التكملة، 233/6-234.

(2) المنذري: التكملة، 315/6-316 ؛ ابن الجزري: طبقات القراء، 554/1-555 ؛ السيوطي: حسن المحاضرة، 499/1.

(3) محمد بن محمد الذهبي: معرفة القراء الكبار على الطبقات والاعصار، تحقيق: محمد سيد جاد الحق، ط1، مطبعة دار التأليف، (مصر، 1967)، 567/2-568 ؛ ابن الجزري: غاية، 244/2-245.

(4) ابن منظور: لسان العرب، 3412/38 ؛ محمد بن يعقوب الفيروز آبادي: القاموس المحيط، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، (بيروت، د.ت)، 111/2 ؛ الزركشي: البرهان، 13/1؛علي بن محمد الجرجاني: التعريفات، الدار التونسية للنشر، (تونس، 1971)، 34 ؛ محمد حسين الذهبي: التفسير والمفسرون، دار القلم، (بيروت، 1987)، 13/1.

(5) السيوطي: الإتقان، 192/4، 194 ؛ حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار العلوم الحديثة، (بيروت، د.ت)، 27/1.

(6) ابن خلدون: المقدمة، 475.

(7) سورة النحل: آية 44.

(8) صابر حسن محمد أبو سليمان: مورد الضمان في علوم القرآن، ط1، الدار السلفية، (بومباي، 1984)، 197 ؛ الذهبي: التفسير، 67/1 ؛حسن: تاريخ الإسلام،418/4؛ الزبيدي: الرحلات العلمية، 48.

(9) ابن خلدون: المقدمة، 475؛ أحمد أمين: فجر الإسلام، ط10، دار الكتاب العربي،(بيروت، 1969)، 200.

(10) بدوي: الحياة العقلية، 108.

معلوماته في هذا المجال، ثم سكن مصر، ولما قامت دولة الأيوبيين صارت له منزلة جليلة عند السلطان، الذي كان يحضر مجلسه وأولاده من بعده، وكانت تجري بينه وبين شهاب الدين محمد بن محمود الطوسي المناظرات العجيبة، وانتفع الناس بعلمه، توفي في مصر سنة (599هـ/1202م)[1].

- عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام الدمشقي، الملقب بسلطان العلماء، برع في علوم دينية عدة ومنها التفسير، فقد رحل إلى بغداد للقاء كبار المفسرين هناك، ثم عاد إلى دمشق وتولى الخطابة والإمامة بالجامع الأموي وقد أجاد علم التفسير حتى صار أعلم أهل عصره ثم رحل إلى مصر وتولى خطابة جامع عمرو بن العاص والتدريس في المدرسة الصالحية وله مؤلفات في مجال علم التفسير منها كتاب (بحار القران) و(التفسير الكبير)، توفي ابن عبد السلام في مصر سنة (660هـ/1261م)[2].

2. علم الحديث النبوي الشريف:

يعرف الحديث لغةً على أنه الأخبار وهو اسم من التحديث[3]. أما اصطلاحاً: فهو أقوال الرسول (ﷺ) وأفعاله وتقريراته[4].

وقد اعتنى الصحابة والتابعون بالحديث النبوي عناية كبيرة من حيث الحفظ والشرح والتثبت من صحة سنده، لان الحديث هو مصدر التشريع الثاني باتفاق جميع المذاهب الإسلامية[5].

كانت المدينة المنورة الموطن الأول الذي نشأ به علم الحديث، لذلك كان على طلبة العلم أن يرحلوا إليها[6]، لتشهد بلاد الشام حركة واسعة في الرحلة لطلب علم الحديث من منبعه في المدينة المنورة[7]. وحظيت مصر بجماعة من الذين اهتموا بنقل الحديث الشريف وتنقيحه والتصنيف فيه، وبقيت حركة الحديث تزداد في مصر يوماً بعد يوم وعلى مدى العصور التي مرت بها البلاد[8]. ومنها العصر الأيوبي حيث ازداد الاهتمام بالحديث الشريف، بسبب اهتمام السلاطين والأمراء الأيوبيين بهذا العلم[9]، تلبيةً لحاجة المجتمع الإسلامي في مصر والشام،

([1]) أبو شامة: الذيل، 54-55 ؛ محمد بن محمد الذهبي: المختصر في المحتاج إليه، تحقيق: مصطفى جواد، مطبعة المعارف، (بغداد، 1951)، 3/118-119 ؛ ابن رجب: الذيل، 1/436-437 ؛ محمد بن علي الداودي: طبقات المفسرين، تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة وهبة، (مصر، 1972)،1/383-385.

([2]) أبو شامة: الذيل، 330 ؛ موسى بن محمد بن أحمد اليونيني: ذيل مرآة الزمان، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، العثمانية، (حيدر آباد، 1954)، 1/505-506 ؛ الذهبي: العبر، 3/299 ؛ محمد بن شاكر الكتبي: عيون التواريخ، تحقيق: نبيلة عبد المنعم داؤد فيصل السامر، دار الحرية للطباعة، (بغداد، 1984)، 20/274 ؛ الأسنوي: طبقات، 13/197-199 ؛ ابن كثير: البداية والنهاية، 13/235.

([3])ا بن منظور: لسان العرب، 9/796 ؛ خليفة: كشف الظنون، 1/635.

([4]) محمد بن أحمد الخوارزمي: مفاتيح العلوم، إدارة المطبعة المنيرية، (القاهرة، 1923)، 7 ؛ محمد علي الفارقي التهانوي: كشاف اصطلاحات الفنون، تحقيق: لطفي عبد البديع، ترجمة النصوص الفارسية: عبد المنعم محمد حسنين: مطبعة السعادة،(مصر، 1963)، 1/37-38 ؛ خليفة: كشف الظنون، 1/635-636.

([5]) محمد بن يوسف العامري: الإعلام بمناقب الإسلام، تحقيق: أحمد عبد الحميد غراب، دار الكتاب العربي، (القاهرة، 1967)، 36 ؛ سعيد عبد الفتاح عاشور وآخرون: دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية، ط2، منشورات ذات السلاسل، (الكويت، 1986)، 49-50.

([6]) خليل إبراهيم السامرائي: دراسات في تاريخ الفكر العربي، مطبعة جامعة الموصل، (الموصل، 1983)،143.

([7]) الزبيدي: الرحلات العلمية، 54.

([8]) حمزة: الحركة الفكرية، 175 ؛ سلام: المدارس الإسلامية، 182.

([9]) أبو شامة: الروضتين، 2/295-296 ؛ باشا: أدب الدول، 138 ؛ خلف: الحياة العلمية، 34.

لمواجهة عدو يتربص بهم الدوائر، ويعبث بعقيدتهم، ولتحريض المؤمنين على قتالهم[1]. فقد ذكر ابن شداد أن السلطان صلاح الدين "كان شديد الرغبة في سماع الحديث... وكان رحمه الله يحب أن يقرأ الحديث بنفسه... وإذا بلغه عن شيخ رواية عالية... استحضره وسمع عليه وأسمع أولاده ومماليكه وأمرهم بالقعود عند سماعه إجلالا له..."[2]. فالسلطان كان قد ترعرع في الشام الشام التي عرف عنها اهتمامها بالحديث وتدريسه لاسيما وأن نور الدين محمود كان أول من شيد دار الحديث في تاريخ الإسلام[3]. وتأثرت مصر بهذا العمل فإنشاء الملك الكامل أول دار حديث بمصر سنة 621هـ/1224م[4]. وقد عرف عنه شغفه بسماع الحديث النبوي، حتى صار أحد المحدثين في مصر[5]. ومن أبرز المحدثين الشاميين الذين ذهبوا إلى مصر وعملوا فيها:

- أبو المظفر المرتضى عبد الله بن محمد بن الحسن الدمشقي المعروف بابن عساكر، وكان قد جمع أربعين حديثاً، فحدث بها بمصر والإسكندرية، توفي سنة (591هـ/1194م)[6].
(591هـ/1194م)[6].
- أبو الفتح نصر بن مقلد القضاعي الشيزري، سمع الحديث بدمشق، ثم انتقل الى مصر فسكنها وحدّث ودرس بالقرافة بمدرسة الشافعي، توفي سنة (598هـ/1201م)[7].
- أبو محمد عبد الغني بن عبد الواحد بن علي بن سرور المقدسي، أوحد زمانه في علم الحديث والحفظ، سمع الحديث بدمشق وبغداد وأصبهان والموصل وغيرها، فدخل مصر، وقال عنه ابن نجا الواعظ لما دخل مصر "قد جاء الإمام الحافظ، وهو يريد أن يقرأ الحديث فاشتهي ان تحضروا مجلسه ثلاث مرات، وبعدها أنتم تعرفونه وتحصل لكم الرغبة،... فقرأ أحاديث بأسانيدها حفظاً، وقرأ جزءاً، ففرح الناس به..."، وكان يجلس بمصر في غير موضع يقرأ الحديث. وصنف في الحديث تصانيف مهمة هي (الكمال في أسماء الرجال) و(تبيين الإصابة لأوهام حصلت في معرفة الصحابة) و(المصباح في عيون الأحاديث)، توفي في دمشق سنة (600هـ/1203م)[8].
- أبو محمد القاسم بن علي بن الحسن بن عساكر، سمع الحديث بدمشق وحدث فيها، ثم دخل مصر وحدّث وانتفع به أهلها، وروى عنه الكثير من علماء الشام ومصر، توفي سنة (600هـ/1203م)[9].
- أبو الحسن علي بن محمد بن جمال الإسلام ابن المسلم الدمشقي المعروف جده بابن بنت الشهرزوري، سمع الحديث بدمشق، ثم قدم مصر وحدث بها، وانتفع به الناس وحدث عنه علماء مصر، توفي سنة (602هـ/1205م)[10].

([1]) الصلابي: صلاح الدين الأيوبي، 261-262.
([2]) النوادر، 9-10 ؛ وينظر سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، 427/8.
([3]) باشا: أدب الدول، 138.
([4]) الصفدي: الوافي، 158/1 ؛ الحنبلي: شفاء القلوب، 300.
([5]) المقريزي: السلوك، 258/1.
([6]) المنذري: التكملة، 409/1-410 ؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، 68/42.
([7]) الذهبي: تاريخ الإسلام، 374/42.
([8]) المنذري: التكملة، 19/3-22 ؛ أبو شامة: الذيل، 69-70 ؛ الذهبي: تذكرة الحفاظ، 1372/4، 1373، 1381؛ الصفدي: الوافي، 21/19 ؛ ابن كثير: البداية والنهاية، 38/13-39 ؛ السيوطي: طبقات الحفاظ، 486، حسن المحاضرة، 354/1 ؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 185/6.
([9]) المنذري: التكملة، 6/3، 9 ؛ السبكي: طبقات الشافعية، 148/5 ؛ النعيمي: الدارس، 101/1، 103.
([10]) المنذري: التكملة، 126/3-127 ؛ الذهبي: سير،229/13-230؛ الأسنوي: طبقات، 429/2-430.

- أبو عمر محمد بن أحمد بن محمد بن قدامه بن مقدام الحنبلي المقدسي ثم الدمشقي، سمع الحديث من والده وعلماء الحديث في دمشق بعد انتقاله إليها، ثم قدم مصر وحدث فيها وقد روى عنه علماء ممن سمعوا منه، توفي سنة (607هـ/1210م)[1].
- أبو الحسن علي بن المفضل بن علي المقدسي، سمع الحديث من السلفي في الإسكندرية ثم دخل مصر، وحدث بها، حيث كان من حفّاظ الحديث وله تصانيف فيه توفي سنة (611هـ/1214م)[2].
- أبو عبد الله بن الحسن بن محمد العامري المقدسي المعروف بابن القطان، سمع الحديث بدمشق ومصر، وحدّث بمصر وتولى فيها ديوان الأحباس، توفي سنة (613هـ/1216م)[3].
- نجم الدين أبي عبد الله محمد بن عمر بن عبد الله بن سعد المقدسي الدمشقي، سمع الحديث ببغداد، وأصبهان، والموصل وغيرها، دخل مصر،وحدّث بها،توفي سنة (616هـ/1219م)[4].
- أبو عبد الله محمد بن عمر بن عبد الغالب بن نصر بن عبد الله الدمشقي، سمع الحديث في دمشق وبغداد، ثم انتقل إلى مصر فسمع بها وحدث، وقد روى عنه علماء مصر والشام، توفي سنة (618هـ/1221م)[5].
- أبو الفضل نعمة بن عبد العزيز بن هبة الله العسقلاني، سمع الحديث بدمشق من أبي القاسم بن عساكر، وحدث بمصر، وروى عنه علماء الشام ومصر، توفي سنة (625هـ/1227م)[6].
- أبو بكر محمد بن عبد الوهاب بن عبد الله بن علي الدمشقي، المعروف بابن الشيرجي، سمع الحديث بدمشق والإسكندرية، وحدث بمصر، ثم انتقل إلى دمشق فتوفي فيها سنة (627هـ/1229م)[7].
- أبو موسى عبد الله بن عبد الغني بن عبد الواحد بن سرور المقدسي، سمع الحديث بدمشق وبغداد وغيرها، وحدث بمصر، ثم رجع إلى دمشق فتوفي هناك سنة (629هـ/1231م)[8].
- أبو عبد الله محمد بن محمد بن إبراهيم بن الحسن الحموي، سمع الحديث بالشام، وحدّث بمصر، وكان من صوفية خانقاه سعيد السعداء، وروى عنه علماء الشام ومصر، توفي بعد سنة (630هـ/1232م)[9].
- أبو الفرج عبد الرحمن بن نجم بن عبد الوهاب بن عبد الواحد الدمشقي المعروف بابن الحنبلي، سمع الحديث في بغداد، وأصبهان، والموصل قدم مصر مرتين وحدّث بها فانتفع الناس به وبعلمه توفي في دمشق سنة (634هـ/1236م)[10].

([1]) ابن رجب: الذيل، 52/2، 61 ؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، 27/5، 30.
([2]) المنذري: التكملة، 15/4، 18؛الذهبي: تاريخ الإسلام، 80/44-81؛ السيوطي: حسن المحاضرة، 354/1.
([3]) المنذري: التكملة، 232/4.
([4]) الذهبي: تاريخ الإسلام، 319/44.
([5]) الذهبي: تاريخ الإسلام، 426/44-427.
([6]) الذهبي: تاريخ الإسلام، 240/45.
([7]) المنذري: التكملة، 411/5 ؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، 294/45.
([8]) المنذري: التكملة، 34/6-35.
([9]) الذهبي: تاريخ الإسلام، 463/46.
([10]) المنذري: التكملة، 192/6-193 ؛ الذهبي: سير، 92/14-93 ؛ ابن رجب: الذيل، 193/2، 200.

- أبو المفضل مكرم بن محمد بن حمزة الدمشقي المعروف بابن أبي الصقر سمع الحديث من جماعة من علماء عصره في الشام وكان يرحل لمصر كثيراً لغرض التجارة فيحدّث بها وانتفع به الناس توفي سنة(635هـ/1237م)[1].
- كمال الدين أحمد بن صدر الدين محمد بن عمر بن علي بن حموية الدمشقي، سمع الحديث من جماعة من علماء عصره، ثم انتقل إلى مصر وحدث بها وتولى فيها الوظائف المهمة توفي بغزة سنة (640هـ/1242م)[2].
- جمال الدين أبو القاسم عبد الرحمن بن مكي الطرابلسي، سمع من السلفي وغيره من علماء العصر حدّث بمصر وانتهى إليه علو الإسناد، توفي سنة (651هـ/1253م)[3].
- أبو الحسن علي بن يوسف بن أبي المعالي الصوري الدمشقي، سمع الحديث بنيسابور والشام، وكان يرحل للتجارة، دخل مصر وحدّث بها وانتفع به الناس، توفي سنة (654هـ/1256م)[4].
- زكي الدين أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوي بن عبد الله بن سلامة ألمنذري الشامي الدمشقي، سمع الحديث بمكة ودمشق وحران والرها والإسكندرية، فكتب وصنف وخرج وأملى وحدث للكثير بمصر، واختصر صحيح مسلم وسنن أبي داؤود، وله كتاب "التكملة لوفيات النقلة" وهو أحد الحفاظ المشهورين، وروى عنه علماء مصر في علم الحديث، توفي سنة (656هـ/1258م)[5].
- شرف الدين أبو محمد عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن الدمشقي الحموي ابن الرفاء، سمع الحديث من علماء عصره بعد أن ارتحل به أبوه في كثير من البلدان، فحدّث بعد ذلك بعدة بلدان منها مصر، وحدّث مسند الإمام أحمد بالجزء، وانتفع به الناس بمصر وروى عنه علمائها، توفي سنة (662هـ/1263م)[6].
- رشيد الدين أبو الحسين يحيى بن علي بن عبد الله النابلسي، سمع الحديث من عمه وأباه وعدد من علماء العصر، فتقدم في علم الحديث فكان حافظاً متقناً للحديث، انتقل إلى مصر، وتولى فيها رياسة الحديث في دار الحديث الكاملية، وروى عنه علماء مصر، توفي سنة (662هـ/1263م)[7].
- النجيب عبد اللطيف بن عبد المنعم بن الصقل الحراني، سمع الحديث من علماء عصره تولى مشيخة دار الحديث الكاملية في مصر، توفي سنة (672هـ/1273م)[8].
- جمال الدين محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن الصابوني، عني بالحديث وسمعه بالشام رحل إلى مصر وحدّث بها، روى عنه علماء مصر، ثم عاد الى الشام، توفي سنة (680هـ/1281م)[9].
- غازي الحلاوي أبو محمد بن عبد الوهاب الدمشقي، سمع الحديث عن علماء عصره، وقد انتهى إليه علو الإسناد بمصر حتى توفي فيها سنة (690هـ/1291م)[10].

([1]) المنذري: التكملة، 265/6-266 ؛ الذهبي: سير، 11/14.
([2]) الذهبي: تاريخ الإسلام، 427/46 ؛ الصفدي: الوافي، 49/8-50.
([3]) السيوطي: حسن المحاضرة، 379/1.
([4]) الذهبي: تاريخ الإسلام، 173/48.
([5]) الذهبي: تذكرة الحفاظ، 1436/4-1439 ؛ العيني: عقد الجمان في، 188/1-189 ؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 63/7 ؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، 277/5-278.
([6]) الذهبي: تاريخ الإسلام، 101/49-102 ، سير، 27/15-28 ؛ الصفدي: الوافي، 334/18.
([7]) الذهبي: تذكرة الحفاظ، 1442/4-1443 ؛ السيوطي: حسن المحاضرة، 356/1، طبقات الحفاظ، 502.
([8]) السيوطي: حسن المحاضرة، 379/1.
([9]) النعيمي: الدارس، 110/1-111.
([10]) السيوطي: حسن المحاضرة، 384/1.

3. الفقه والمذاهب الفقهية:

يعرف الفقه على أنه العلم بالشيء والفهم له[1]، أما اصطلاحاً: فهو العلم بالأحكام الشرعية العملية المستنبطة من أدلتها التفصيلية[2]، وهو علم مستنبط بالرأي والاجتهاد ويحتاج العامل فيه إلى النظر والتأمل[3]. وبذلك يتناول جميع المسائل التي تهم الإنسان في حياته الشخصية والدينية والاجتماعية والاقتصادية[4].

والعامل في هذا المجال له مكانة خاصة عند الله وعند المسلمين، حيث يقول النبي (ﷺ): "من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين"[5]. ولعلم الفقه فروع منها، علم الفرائض، وعلم القضاء، وعلم الشروط والسجلات، وعلم الفتاوى، وعلم أصول الفقه[6]. ولأهمية الفقه فقد نال الفقهاء على اختلاف مذاهبهم احترام الناس والملوك والأمراء على مر العصور الإسلامية، ومنها العصر الأيوبي[7].

لقد عرفت مصر المذاهب الفقهية الأربعة، وأول المذاهب الفقهية التي دخلت مصر هو مذهب الإمام مالك بن أنس المتوفى سنة(179هـ/795م)[8]، ثم جاءها مذهب محمد بن إدريس الشافعي المتوفى سنة(204هـ/819م)[9]، ثم مذهب أبي حنيفة النعمان بن ثابت المتوفى سنة(150هـ/767م)[10]، أما مذهب احمد بن محمد بن حنبل المتوفى سنة(241هـ/855م)[11]، فقد دخل مصر وعرف بها في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي وما بعدها[12]. ثم توقف العمل بهذه المذاهب بدخول الفاطميين لمصر، واستمر التوقف مدة حكمهم[13]، أما في بلاد الشام فقد توقف العمل بالمذاهب الأربعة عندما كانت تحت سلطة الفاطميين التي لم تستمر طويلاً[14].

لقد عرفت الشام في القرنين السادس والسابع الهجريين/ الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، العمل بالمذاهب الفقهية الأربعة من خلال الاعتماد على المدارس التي خصصت لكل مذهب من هذه المذاهب[15]، ولما قامت دولة الأيوبيين في مصر، سار صلاح الدين على سياسة نور الدين في الشام في إعادة العمل بالمذاهب الفقهية في مصر[16]، فقرب هو والملوك الأيوبيين الفقهاء، وأحبوهم واتخذوا منهم سنداً في حروبهم مع الصليبيين، وشحذ همم الناس للجهاد[17]،

([1]) ابن منظور: لسان العرب، 3450/38.

([2]) ابن خلدون: المقدمة، 482 ؛ الجرجاني: التعريفات، 90.

([3]) الجرجاني: التعريفات، 90.

([4]) خاشع المعاضيدي: دراسات في تاريخ الحضارة العربية، مطبعة أوفسيت الحديثة، (بغداد، 1979) ؛ السامرائي: دراسات، 157.

([5]) محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري: صحيح البخاري، مطبوعات محمد علي صبيح وأولاده بميدان الأزهر، (مصر، د.ت)، 39/1.

([6]) ابن خلدون: المقدمة، 487، 489 ؛ خليفة: كشف، 579/1.

([7]) الزبيدي: الرحلات العلمية، 66.

([8]) محمد بن سعد بن منيع: الطبقات الكبرى، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط2، دار الكتب، (بيروت، 1997)، 465/5، 143/7 ؛ أبو شامة: الروضتين، 61/3 ؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، 135/4-138.

([9]) السبكي: طبقات الشافعية، 100/1 ؛ الأسنوي: طبقات، 11/1-12.

([10]) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 405/5، 414 ؛ شميساني: مدارس دمشق، 36.

([11]) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 63/1-64.

([12]) المقريزي: الخطط، 363/3 وما بعدها.

([13]) ابن خلدون: المقدمة، 485 ؛ المقريزي: الخطط، 209/3.

([14]) بدوي: الحياة العقلية، 148.

([15]) محمد: المجتمع الإسلامي، 66.

([16]) أبو شامة: الروضتين، 120/2 ؛ الداوداري: كنز الدرر، 49/7 ؛ ابن خلدون: المقدمة، 485.

([17]) سلام: الأدب في العصر الأيوبي، 65.

كما عمل صلاح الدين على رفع إمكانيات الناس في مصر وإعدادهم إعداداً صالحاً عن طريق العلم، ولذلك انشأ المدارس التي تطلبت جلب علماء من الأقطار المجاورة ومنها الشام وتشجيعهم على الإقامة بمصر والتأليف والتدريس وتخريج جيل جديد من الفقهاء المصريين[1].

كما كان الملك الكامل محباً للعلماء ومجالستهم، "وكانت عنده مسائل غريبة في الفقه والنحو، يسأل الفقهاء عنها، فمن أجاب منهم حظي عنده وقرّبه"[2]. كما "كانت تنصب لهم تخوت إلى جانب تخته ينامون عليها ويسامرونه ويجارونه في العلوم والأدب"[3].

لقد أسهم فقهاء العصر الأيوبي في مجال التأليف، فقد كان لهم بعض الآثار لأن فكرة الإحاطة في التأليف موجودة إلى جانب التخصص[4]، مع ذلك فمن الإنصاف أن يقال عن فقهاء العصر الأيوبي بمصر والشام، أنهم كانوا يتطلعون إلى نوع من الاستقلال في الفقه[5].

أ. المذهب الشافعي:

أساس هذا المذهب هو الأخذ بالقرآن والسنة والإجماع، أما القياس فلم يتشدد فيه كتشدد مالك، ولم يتوسع فيه توسع أبي حنيفة[6]، وقد أعتنق نور الدين محمود المذهب الحنفي في الشام، واعتنق السلطان صلاح الدين وأولاده بمصر المذهب الشافعي[7]، ليتميزوا بمذهب غير مذهب السلاجقة والأتابكة، كما أن أساتذته كانوا شافعيين[8]، حتى وصف على أنه كان شافعي المذهب، أشعري العقيدة[9]، وبذلك أصبح المذهب الشافعي المذهب الرسمي للدولة الأيوبية بمصر[10].

أما أبرز فقهاء الشافعية الذين وفدوا إلى مصر من الشام وزاولوا نشاطهم العلمي فيها فهم:

- أبو القاسم علي بن أبي المكارم الدمشقي، تفقه في الشام ثم دخل مصر، فصار فيها أحد الأعيان الشافعية، توفي سنة (579هـ/1183م)[11].
- ضياء الدين أبو محمد عيسى بن محمد بن عيسى الهكاري، عمل في الفقه في الجزيرة وحلب، ثم انتقل إلى مصر مع قيام الدولة الأيوبية، وتذكر المصادر التاريخية أن الناس في مصر قد انتفعوا كثيراً من علمه، توفي سنة (585هـ/1189م)[12].
- أبو العباس أحمد بن المظفر بن الحسين الدمشقي، المعروف بابن زين التجار، كان من أعيان الشافعية بمصر، تولى تدريس الفقه الشافعي في المدرسة الناصرية الصلاحية المجاورة للجامع العتيق بمصر، توفي سنة (591هـ/1194م)[13].

([1]) سلام: الأدب في العصر الأيوبي، 165.
([2]) ابن واصل: مفرج الكروب، 185/5 ؛ الحنبلي: شفاء القلوب، 300.
([3]) ابن واصل: مفرج الكروب، 164/5.
([4]) باشا: أدب الدول المتتابعة، 145-146.
([5]) حمزة: الحركة الفكرية، 202.
([6]) سيد الأهل: أيام صلاح الدين، 122.
([7]) حمزة: الحركة الفكرية، 199.
([8]) سيد الأهل: أيام صلاح الدين، 121-122.
([9]) الصفدي: الوافي، 48/29 ؛ المقريزي: الخطط، 390/3، 425 ؛ حمزة: الحركة الفكرية، 94-95.
([10]) ابن واصل: مفرج الكروب، 198/1 ؛ المقريزي: الخطط، 209/3، 389.
([11]) السبكي: طبقات الشافعية، 284/4-285 ؛ السيوطي: حسن المحاضرة، 406/1.
([12]) الأصفهاني: الفتح القسي، 174 ؛ أبو شامة: الروضتين، 65/4 ؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، 497/3؛ الصفدي: الوافي، 170/23-171 ؛ ابن كثير: البداية والنهاية، 334/12.
([13]) المنذري: التكملة، 434/7-435 ؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، 57/42؛ السبكي: طبقات الشافعية، 55/4؛ الأسنوي: طبقات، 312/1 ؛ السيوطي: حسن المحاضرة، 406/1.

- تاج الدين أبو عبد الله محمد بن هبة الله بن مكي الحموي، اعتنى بالمذهب الشافعي وتولى تدريسه في المدرسة الناصرية المجاورة للجامع العتيق بمصر، وكان أهل مصر يرجعون إليه في فتاويهم، توفي سنة (599هـ/1202م)[1].
- شهاب الدين محمد بن إبراهيم المعروف بابن الجاموس، تفقه بحماه في الشام، ثم انتقل إلى مصر، فكان من كبار الشافعية فيها، تولى تدريس الفقه الشافعي في المشهد الحسيني، توفي سنة (615هـ/1218م)[2].
- صدر الدين أبو الحسن محمد بن عمر بن علي بن حمويه شيخ الشيوخ الدمشقي، فوضه نور الدين محمود أمر الربط والزوايا والأوقاف بالشام، انتقل من الشام إلى مصر فتولى التدريس في المدرسة الشافعية، بعد وفاة نجم الدين الخبوشاني، كما كانت داره مجمعاً للفضلاء من الشافعية، وقد استمر عمل تدريس المذهب الشافعي في المدرسة الشافعية من اختصاص أبنائه من بعده، توفي سنة (617هـ/1220م)[3].
- زين الدين أبو الحسن علي بن يوسف بن عبد الله الدمشقي، تفقه ببغداد على يد والده، ثم سافر إلى الشام، ثم مصر، روى مسند الشافعي، وتولى قضاء مصر على المذهب الشافعي، توفي في القاهرة سنة (622هـ/225م)[4].
- أبو الحسن علي بن محمد بن سالم ألتغلبي، الملقب سيف الدين الآمدي، كان في أول الأمر على المذهب الحنبلي، ثم انتقل الى المذهب الشافعي، انتقل الى الشام ودرس فيها عدة فنون بالإضافة للفقه، ثم انتقل لمصر وتولى الإعادة[5] بالمدرسة المجاورة لضريح الامام الشافعي، وانتفع الناس بعلمه، توفي بدمشق سنة (631هـ/1233م)[6].
- أبو الحسن علي بن نصر الله بن علي الدمشقي، المعروف بابن الماسح، تفقه على مذهب الشافعي ثم قدم مصر، فتولى تدريس الفقه بالجامع الظافري بالقاهرة، حتى توفي سنة (635هـ/1237م)[7].
- عماد الدين أبو الفتح عمر بن صدر الدين محمد بن حمويه شيخ الشيوخ الدمشقي، تفقه على يد فقهاء من بغداد والشام، تولى تدريس الفقه الشافعي بعد والده في المدرسة الشافعية، قتل
في دمشق سنة (636هـ/1238م)[8].
- كمال الدين أحمد بن صدر الدين محمد بن حمويه شيخ الشيوخ الدمشقي، تولى تدريس الشافعية في المدرسة الشافعية بمصر، توفي سنة (640هـ/1242م)[9].
- عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام الدمشقي، برع في الفقه والأصول واللغة في الشام، وتولى تدريس الشافعية فيها، ثم قدم مصر في عصر السلطان الصالح نجم الدين أيوب، سنة 639هـ/1241م، وعندما وصل مصر تنحى له العلماء عن أماكنهم، وتأدب

([1]) الذهبي: تاريخ الإسلام، 415/42 ؛ السبكي: طبقات الشافعية، 195/4-196.
([2]) المنذري: التكملة، 319/4 ؛ السبكي: طبقات الشافعية، 19/5؛السيوطي:حسن المحاضرة، 406/1.
([3]) أبو شامة: الذيل، 189-190 ؛ سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، 272/8؛ الصفدي: الوافي، 182/4.
([4]) الذهبي: تاريخ الإسلام، 122/45-123 ؛ السيوطي: حسن المحاضرة، 406/1.
([5]) ومهمته إعادة ما ألقاه المدرس على الطلبة ليفهموه، كما يشرح لهم ما صعب عليهم فهمه، ويعتبر المعيد المدرس الثاني للطالب، وقد يكون المعيد معيد في مدرسة، ومدرساً في أخرى. القلقشندي: صبح الأعشى،464/5 ؛ السبكي: معيد النعم، 108 ؛ أمينة البيطار: "التعليم في دمشق في القرن السادس الهجري"، مجلة آداب الرافدين، العدد (11)، كلية الآداب، جامعة الموصل، (1979)، 53-54.
([6]) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 293/3-294 ؛ ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، 230/2.
([7]) المنذري: التكملة، 255/6 ؛ أبو شامة: الذيل، 254 ؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، 251/46.
([8]) المنذري: التكملة، 300/6-301 ؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، 181/5.
([9]) ابن واصل: مفرج الكروب، 169/5-170 ؛ الصفدي: الوافي، 49/8-50 ؛ المقريزي: الخطط، 439/2.

الشيخ زكي الدين عبد العظيم ألمنذري وامتنع عن الإفتاء من أجله وتقديراً لعلمه وولاه السلطان القضاء و تدريس المذهب في المدرسة المعروفة بين القصرين[1]، وانتفع الناس بعمله، توفي في مصر سنة (660هـ/1261م)[2].

- موفق الدين أبو البيان نبا بن سعد الله بن راهب بن مروان بن عبد الله الحموي، كان فقيهاً صالحاً، انتقل إلى مصر، وتولى الإعادة بمصر بالمدرسة الشافعية مدة، توفي سنة (665هـ/1266م)[3].
- محيي الدين أبو عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله الشافعي الحلبي، الذي تولى تدريس الشافعية بالقاهرة بالمدرسة المسرورية، إلى أن توفى سنة (672هـ/1273م)[4].

ب. المذهب الحنفي:

يقوم هذا المذهب على الأخذ بالقرآن والسنة مع التشديد في أخذ الحديث وهو ما جعله يتوسع في القياس والاجتهاد وأعمال العقل مما أثار حفيظة المحدثين والفقهاء[5]، وقد ساد هذا المذهب في بلاد الشام فاعتنقه نور الدين محمود فأصبح المذهب الرسمي للزنكيين[6]، فعمل على نشره بمصر، ومن وقتها بدأت الحنفية تكثر بمصر، فأكمل السلطان صلاح الدين المهمة بإنشاء المدرسة السيوفية بالقاهرة لتدريس المذهب الحنفي[7] مع الاستعانة بعدد من فقهاء المذهب من بلاد الشام ومن أبرزهم:

- بدر الدين أبو محمد عبد الوهاب بن يوسف بن علي، تفقه في الشام على المذهب الحنفي ثم انتقل إلى مصر وتولى تدريس الحنفية بمدرسة السيوفيين بالقاهرة، توفي سنة (599هـ/1202م)[8].
- علم الدين أبو الربيع سليمان بن أبي بكر بن أميرك الحموي، انتقل إلى مصر وتولى تدريس المذهب الحنفي بمدرسة الأمير يازكوج ألأسدي المتوفى سنة(599هـ/1202م)، ومدرسة حارة الديلم في القاهرة، توفي سنة (638هـ/1240م)[9].
- صدر الدين سليمان بن أبي العز بن وهيب المفتي الكبير ألأذرعي الدمشقي تفقه بالشام وتبحر بالفقه وغوامضه، درّس الفقه بدمشق مدة، ثم انتقل إلى مصر فدرس الفقه الحنفي بالمدرسة الصالحية وتولى رئاسة الحنفية بمصر والشام، عاد إلى دمشق وتوفي فيها سنة (677هـ/1278م)[10].

جـ. المذهب الحنبلي:

([1]) بين القصرين: ويقصد بالقصرين قصر عبد الله بن عمرو بن العاص، وقصر عمر بن مروان بن الحكم. صارم الدين إبراهيم بن محمد الشهير بابن دقماق: الانتصار لواسطة عقد الأمصار، المكتب التجاري للطباعة والنشر، (بيروت، 1893)، 5/6-7.

([2]) أبو شامة: الروضتين، 12/1 ؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، 45/46 ؛ الكتبي: فوات الوفيات، 350/2-351؛ السبكي: طبقات الشافعية، 80/5-83 ؛ ابن كثير: البداية والنهاية، 236/13 ؛ العسقلاني: رفع الإصر، 350/2، 353 ؛ النعيمي: الدارس، 413/1، 419.

([3]) الذهبي: تاريخ الإسلام، 208/49-209.

([4]) الصفدي: الوافي، 194/3.

([5]) عاشور وآخرون: دراسات، 46 ؛ شميساني: مدارس دمشق، 36 ؛ خلف: الحياة العلمية، 54.

([6]) المقريزي: الخطط، 389/3-390 ؛ الزبيدي: الرحلات العلمية، 66.

([7]) المقريزي: الخطط، 389/3-390 ؛ الخربوطلي: مصر العربية الإسلامية، 351-352.

([8]) الذهبي: تاريخ الإسلام، 394/42.

([9]) أبو شامة: الذيل ،52؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، 366/46-367 ؛ الصفدي: الوافي، 219/15-220.

([10]) اليونيني: ذيل، 302/3 ؛ الذهبي: العبر، 335/3 ؛ النعيمي: الدارس، 475/1.

يعتمد هذا المذهب في أحكامه على القرآن الكريم والحديث الصحيح وفتوى الصحابة والقياس ولكن عند الضرورة القصوى[1]، لقد لقي هذا المذهب رواجاً محدوداً في بلاد الشام بالمقارنة مع المذاهب الأخرى[2]، وأنسحب الأمر على مصر بحكم تأثرها بالشام في هذه الفترة، الفترة، حيث يذكر السيوطي قائلاً: "ولم أسمع بخبرهم في مصر إلا في القرن السابع وما بعده... وأول إمام في الحنابلة علمت حلوله بمصر الحافظ عبد الغني المقدسي"[3].الذي دخل مصر في أواخر أيام الدولة الأيوبية ومن أبرزهم:

- تقي الدين أبو محمد عبد الغني بن عبد الواحد بن سرور المقدسي، تفقه ببغداد والشام، ثم انتقل إلى مصر بعد أن أباح الفقهاء دمه، فأقام بها فكان له دور في نشر المذهب الحنبلي بمصر، وظل في مصر حتى توفي سنة (600هـ/1203م)[4].
- أبو عمر محمد بن أحمد بن محمد بن قدامه بن مقدام المقدسي الدمشقي، تفقه بالشام ثم انتقل إلى مصر فقراء الحديث والنحو بالإضافة إلى معرفته بالفقه على المذهب الحنبلي فانتفع الناس بعلمه، وقضى حوائجهم، توفي سنة (607هـ/1210م)[5].
- ناصح الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن نجم بن عبد الوهاب بن عبد الواحد، المعروف بابن الحنبلي، تفقه على المذهب الحنبلي بعد رحلة في عدة بلدان، وكان قد تولى رياسة الحنابلة في دمشق، انتقل إلى مصر مرتين وقد وعظ بها و دروس المذهب الحنبلي، توفي سنة (634هـ/1236م)[6].
- أبو الحرم مكي بن عمر بن نعمة بن يوسف بن سيف بن عسكر المقدسي، تفقه على المذهب الحنبلي، واشتهر بمعرفته وأم بالمسجد المعروف به بدرب البقالين بمصر، وانتفع به الناس من علماء وعامة، توفي سنة (634هـ/1236م)[7].
- شمس الدين أبو بكر محمد بن إبراهيم بن عبد الواحد بن سرور المقدسي، تفقه على المذهب الحنبلي ببغداد والشام، ثم انتقل إلى مصر، فصار شيخ المذهب علماً وصلاحاً وتولى رياسة الحنابلة بمصر ودرس المذهب بمدرسة الصالحية وولي مشيخة خانقاه سعيد السعداء، وانتفع به الناس كثيراً، توفي بمصر سنة (676هـ/1277م)[8].

د. المذهب المالكي:

يقوم هذا المذهب في أحكامه على القرآن الكريم والحديث الصحيح ثم عمل أهل المدينة إذا اتفقوا على عمل معين، لأنه حجة عند مالك تجعله يقوم على القياس[9]، وسبب قلة حاجاتهم إلى الرأي هو لسهولة الحياة في المدينة بالمقارنة مع العراق[10]، و أن أكثر الوافدين إلى مصرا من أتباع هذا المذهب هم من بلاد المغرب[11]، وقلة عدد الشاميين الذين عملوا به في مصر. وقد

([1]) عاشور وآخرون: دراسات، 48 ؛ خلف: الحياة العلمية، 57.
([2]) الزبيدي: الرحلات العلمية، 77.
([3]) حسن المحاضرة، 480/1.
([4]) أبو شامة: الذيل، 69-70 ؛الذهبي: تذكرة الحفاظ، 1372/4 - 1374 ؛ ابن رجب: الذيل، 19/2 ؛ ابن كثير: البداية والنهاية، 33/13-34.
([5]) ابن رجب: الذيل، 52/2-61 ؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، 27/5-30.
([6]) المنذري: التكملة، 192/6-193 ؛ الذهبي: سير، 92/14-93 ؛ ابن رجب: الذيل، 193/2-200.
([7]) المنذري: التكملة، 221/6-222 ؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، 222/46.
([8]) المقريزي: الخطط، 367/2 ؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، 353/5-354.
([9]) عاشور وآخرون: دراسات، 47 ؛ خلف: الحياة العلمية، 60.
([10]) شميساني: مدارس دمشق، 37.
([11]) خلف: الحياة االعلمية، 60.

أقيمت لهم مدرسة لتعليم الفقه المالكي في مصر[1]. ومن أبرز فقهاء المالكية الشاميين الذين عملوا بمصر:

- شرف الدين أبو الحسن علي بن الأنجب المفضل بن علي بن مفرج المقدسي، تفقه على المذهب المالكي، وناب في الحكم بالإسكندرية و درس فيها في المدرسة التي عرفت باسمه، ثم انتقل إلى القاهرة ودرس المذهب في المدرسة الصاحبية إلى أن توفى سنة (611هـ/1214م)[2].
- أبو الحسين أحمد بن شرف الدين علي بن الأنجب المقدسي، تفقه على المذهب المالكي، ونشأ على غاية من الورع والتقوى، تولى تدريس المذهب المالكي في المدرسة الصاحبية بالقاهرة بعد والده، توفى سنة (613هـ/1216م)[3].
- أبو الطاهر محمد بن شرف الدين علي بن الأنجب المقدسي تفقه على المذهب المالكي، وتولى تدريس المالكية بالمدرسة الصاحبية بالقاهرة بعد والده وأخيه، توفى سنة(631هـ/1233م)[4].

4. علم التصوف:

التصوف لغةٌ مشتق من الفعل "تصوف" أي لبس الصوف، على وزن تقمص إذا لبس القميص[5]، أما اصطلاحاً فهو منهج مذهبي نهجته الحياة الروحية الإسلامية منذ بواكير نشأتها في صدر الإسلام[6]. فهو من العلوم الشرعية المحدثة في الإسلام[7]، ويعني العكوف على العبادة والزهد في متاع الدنيا، وليس بمعنى الرهبنة والانقطاع عن الدنيا[8]. أما الجرجاني فيعرفه على أنه الصبر تحت الأمر والنهي[9].

شكلت ظروف الشام حافزاً للمجتمع الشامي للتوجه إلى طريق التصوف والعزوف عن مباهج الدنيا ونعيمها والتقرب الى الله تعالى[10]. بحيث استطاع نور الدين في الشام الاستفادة من المتصوفة هؤلاء في التحشيد لتحقيق الوحدة الإسلامية، والتصدي للحملات الصليبية[11]. ثم قام السلاطين الأيوبيين بجذب تيار التصوف إلى مصر[12] وكان من نتائج هذا الانتقال، أن أفرزت أقطاباً وطرقاً للتصوف بين المصريين على اختلاف أوضاعهم الاجتماعية[13]. وأصبح التصوف مظهراً جماعياً بعد ان كان اتجاهاً فردياً محدوداً، من خلال بناء أماكن خاصة يتجمعون بها[14].

([1]) قراعه: مساجد ودول، 16.

([2]) المنذري: التكملة، 15/4-18 ؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، 290/3-292 ؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، 80/44-81 ؛ السيوطي: طبقات الحفاظ، 489-490 ؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، 47/5-48.

([3]) المنذري: التكملة، 211/4 ؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، 136/44.

([4]) المنذري: التكملة، 104/6.

([5]) المقريزي: الخطط، 567/3.

([6]) عاصم محمد رزق:خانقاوات الصوفية في مصر في العصرين الأيوبي و المملوكي، ط1، مكتبة مدبولي ، (القاهرة ،1997)،39/1.

([7]) ابن خلدون: المقدمة، 505.

([8]) ماجد: تاريخ الحضارة، 182.

([9]) التعريفات: 38.

([10]) م. غود فروا: النظم الإسلامية، ترجمة: فيصل السامر وصالح الشماع، ط2، دار النشر للملايين، (بيروت، 1961)، 31 ؛ بهجت: أثر الحضارة السلجوقية، 121/1.

([11]) ضيف: تاريخ الأدب العربي، 64 ؛ الصلابي: صلاح الدين الأيوبي، 355.

([12]) المقريزي: الخطط، 570/3 ؛ بهجت: أثر الحضارة السلجوقية، 122/1.

([13]) بهجت: أثر الحضارة السلجوقية، 123/1.

([14]) المقريزي: الخطط، 570/3-571 ؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك، 138.

وقد أقبلت على مصر في بداية العصر الأيوبي الطريقة القادرية للشيخ عبد القادر الكيلاني البغدادي المتوفى سنة(561هـ/1165م)، والطريقة الرفاعية لمواطنه ومعاصره الشيخ أحمد الرفاعي المتوفى سنة(578هـ/1182م)، وأخذت هاتين الطريقتين تشيعان بين المتصوفة المصريين[1].

وتعهد صلاح الدين أن ينفق على سائر من يلجأ إلى المساجد بالقرافة والقاهرة من الغرباء والصلحاء والصوفية وجعل جامع أحمد بن طولون مأوى للغرباء من المغاربة، وترك غرباء الشام يكسبون معاشهم بممارسة ما يلائمهم من الخدمة[2]. وساهم بقية السلاطين بتهيئة أماكن خاصة للزهاد والصوفية من زوايا وربط لاسيما دار سعيد السعداء التي حولها السلطان صلاح الدين سنة 569هـ/1173م، لتكون خانقاه لتجمع الطرق الصوفية القادمة إلى مصر، وجعل لها وقفاً، كما وضع أول نظام رئاسي للطرق الصوفية عندما منح شيخ خانقاه سعيد السعداء لقب "شيخ الشيوخ"[3]، على غرار ما كان في الشام، عندما فوض العادل نور الدين محمود، شيخ الشيوخ صدر الدين بن حموية أمر الربط والزوايا والأوقاف[4]، وقد انتقل صدر الدين فيما بعد إلى مصر وتولى فيها مشيخة الشيوخ بخانقاه سعيد السعداء، وتولى المنصب أبنائه من بعده،لتكون هذه الوظيفة حكراً على أفراد أسرة بن حموية،وظلت هذه الوظيفة تسند إلى العلماء الصوفية الوافدين من خارج مصر [5].

كما كانت الإسكندرية قد بلغت قمة ازدهارها الثقافي في العصر الأيوبي، وفيها ازدهرت حركة التصوف، وكانت قبلة علماء المسلمين من المشرق والمغرب[6].

لقد ارتحل إلى مصر عدد كبير من المتصوفة من بلاد المشرق والمغرب، أما أبرز من انتقل إلى مصر من الشام من المتصوفة في العصر الأيوبي، فيأتي في مقدمتهم صدر الدين بن حموية شيخ الشيوخ وأولاده وقد ذكرنا ترجمتهم في الفقه الشافعي وتوليهم مشيخة شيوخ خانقاه سعيد السعداء الصوفية بمصر. ومن المتصوفة الآخرين:

- أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله النابلسي الصوفي، درس التصوف في دمشق على يد مفتي العراقيين عبد القاهر بن عبد الله السهروردي، عندما رحل للشام للوعظ فيها، انتقل بعدها النابلسي إلى مصر، فعرف هناك بزهده، وأمّ بالناس بمدرسة منازل العز، توفي سنة (600هـ/1203م)[7].
- أبو عبد الله محمد بن محمد بن إبراهيم بن الحسن الحموي، كان من صوفية الخانقاه السعيدية بمصر، توفى بعد سنة (630هـ/1232م)[8].
- ناظم الدين عمر بن علي بن مرشد بن الفارض الحموي، انتقل أبوه من حماه إلى مصر فولد هناك فلما شب وترعرع اشتغل بفقه الشافعية، ثم حبب إليه الخلاء وسلوك طريق الصوفية، لكنه لم يكن من متصوفة خانقاه سعيد السعداء، بل كان متصوف ذو نزعة فردية، فكان يسيح لوحده في الجبل ويأوي إلى أوديته والى بعض المساجد المهجورة

([1]) ضيف: تاريخ الأدب العربي، 64.
([2]) بهجت: أثر الحضارة السلجوقية، 59/1.
([3]) المقريزي: الخطط، 570/3 ؛ السيوطي: حسن المحاضرة، 260/2 ؛ ماجد: تاريخ الحضارة، 185.
([4]) سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، 272/8.
([5]) المقريزي: الخطط، 571/3 ؛ السيوطي: حسن المحاضرة، 260/2-261.
([6]) سحر عبد العزيز سالم: العراقيون في مصر في القرن السابع الهجري، مؤسسة شباب الجامعة، (الإسكندرية، 1991)، 52.
([7]) المنذري: التكملة، 37/3-38.
([8]) الذهبي: تاريخ الإسلام، 463/46.

في القرافة ثم يعود، واستمر ابن الفارض في نهجه التصوفي في هذا إلى أن توفي سنة (632هـ/1234م)[1].

- شمس الدين أبو يعقوب يوسف بن محمود بن الحسين بن أحمد الساوي الدمشقي، المعروف بابن المخلص، سمع من السلفي ومن غيره من علماء عصره، وكان من صوفية خانقاه سعيد السعداء، توفي سنة (647هـ/1249م)[2].
- عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام الدمشقي، رحل إلى مصر فتولى القضاء وتدريس الصالحية فيها، وقد أخذ التصوف عن الشهاب السهرودي وكان يقرأ عليه (الرسالة القشيرية) وصنف في التصوف مؤلفات منها: (حل الرموز ومفاتيح الكنوز) و(أحاديث الصوفية)، كما كان الطلبة يقرؤون عليه (بيان أحوال الناس يوم القيامة) توفي بالقاهرة سنة (660هـ/1261م)[3].

ثانياً: علوم اللغة العربية وآدابها

كانت مصر والشام قبلة العالم الإسلامي في العصر الأيوبي، بسبب الوحدة السياسية الشاملة والتي تصدت للخطر الصليبي، وقضائها على خطر العزلة الجاثم عليها منذ عقود. لذلك نرى معظم اللغويين والأدباء ينشأون في بلد، ويتلقون علومهم في ثانٍ، ويدرسون في ثالث، وقليل منهم ارتضى لنفسه العزلة في بلده، بل نرى حركة التنقل طلباً للعلم أو وراء المجد والشهرة واسعة بسبب مساعدة السلاطين والأمراء الأيوبيين لهم[4]، وذلك لارتباط العلوم اللغوية اللغوية بالعلوم الشرعية من أجل استيعاب مضامينها والعمل بمقتضى أحكامها، فتناول علماء هذا العصر علوم اللغة العربية والتأليف فيها من لغة وصرف وبلاغة وعروض[5].

وقد اتصف الأدب في العصر الأيوبي بصفات تميزه عن غيره من العصور إذ تأثر الأدب في مصر والشام بالحروف الصليبية، التي اندلعت نارها في ذلك العصر[6].

1. علوم اللغة العربية:

اللغة هي "... أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم..."[7]، وهو بيان الموضوعات اللغوية[8]. وهو كلام يعبر به كل قوم عن حاجاتهم، فهي وسيلة للتخاطب من أجل فهم الحياة[9]. الحياة[9].

أما النحو في اللغة يعني القصد والطريق[10]، أما اصطلاحاً: فهو علم بقوانين يعرف بها أحوال التراكيب العربية من الأعراب والبناء وغيرهما ويعرف بها صحة الكلام وفساده[1].

([1]) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، 149/5-153.
([2]) الذهبي: سير، 234/14.
([3]) اليونيني: الذيل، 172/2-174 ؛ الداودي: طبقات، 309/1 ؛ بدوي: الحياة العقلية، 162-164.
([4]) باشا: أدب الدول المتتابعة، 8.
([5]) مجير الدين الحنبلي العليمي: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، المطبعة الحيدرية، (النجف، 1968)، 217/2 ؛ خليفة: كشف، 55/1 ؛ باشا: أدب الدول المتتابعة، 149 ؛ خلف: الحياة العلمية، 62.
([6]) فرغلي: الحركة التاريخية، 79.
([7]) أبو الفتح عثمان بن جني:الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، دار الكتاب العربي،(بيروت، 1952)، 33/1.
([8]) ابن خلدون: المقدمة، 585.
([9]) إسماعيل بن حماد الجوهري: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ط2، دار العلم، (بيروت، 1979)، 2484/6 ؛ ابن منظور: لسان العرب، 4049/45.
([10]) ابن منظور: لسان العرب، 4371/48.

"فيعرف من خلالها الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر ولولاه لجهل أصل الإفادة"[2]. فالنحو بذلك يعد قانون اللغة وميزان تقويمها[3].

والبلاغة هي الوصول إلى الشيء الذي يريده[4]. أما اصطلاحاً: فهي مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته[5]. ويتضمن علم البلاغة ثلاثة فروع هي البيان ومعناه "... إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة..."[6] وعلم المعاني وهو "... تتبع خواص تراكيب الكلام ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ..." [7] أما علم البديع فيعني: "تحسين الكلام معنى ولفظاً..."[8].

أما أبرز من ارتحل إلى مصر من الشام وساهم في الأنشطة اللغوية والأدبية هنالك فهم:

- أبو محمد عبد الله بن أبي الوحش بن بري بن عبد الجبار المقدسي الشافعي اللغوي، سمع النحو واللغة من علماء العصر في مصر حتى نال حظاً منها، حتى تصدر بجامع مصر العتيق لإقراء العربية، وتخرج على يده عدد كبير من علماء اللغة بمصر، وقصده الطلبة من كل مكان، وكان لشدة معرفته باللغة أن تولى التصفح في ديوان الإنشاء، فلا يصدر كتاب إلى ملوك النواحي إلا بعد أن يتصفحه، ومن مصنفاته في اللغة: (الاختيار في اختلاف أئمة الأمصار) و(الإيضاح في حاشية الصحاح للجوهري) وغيرها، توفى ابن بري سنة (582هـ/1186م)[9].
- القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني، شيخ البلاغة[10]، الذي جاء إلى مصر من فلسطين من أيام الدولة الفاطمية، إلا أنه وصل إلى درجة النضج اللغوي في عصر الدولة الأيوبية حيث تولى فيها ديوان الإنشاء، ورسائله تدل على تمكن تام من علوم العربية وعلى سلامة الأسلوب ومتانة في التعبير، فانتشر مذهبه الفني الكتابي انتشاراً كبيراً، وتحمس له الكثرة من أهل مصر، توفي سنة (596هـ/1199م)[11].
- أبو الفتح عثمان بن عيسى البلطي، تعلم النحو في بلاد الشام، انتقل إلى مصر في عهد السلطان صلاح الدين الذي رتب له في الجامع العتيق بمصر ليقرأ به النحو، لينتفع به الناس، ومن مصنفاته في اللغة والنحو (كتاب النير) و(العروض الكبير) و(العروض الصغير) و(العظات الموقظات)، توفي سنة (599هـ/1202م)[12].
- نجم الدين محمد بن أبي بكر بن علي المعروف بابن الخباز، اشتغل وبرع في علم العربية، خرج من حلب إلى مصر، فأقرأ العربية للناس فيها، وصنف كتباً مشهورة

([1]) يوسف بن عبد الله السكاكي: مفتاح العلوم، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، (مصر، 1937)، 137 ؛ الجرجاني: التعريفات، 125.

([2]) ابن خلدون: المقدمة، 583.

([3]) شوقي ضيف: المدارس النحوية، ط2، دار المعارف، (مصر، 1972)، 11-13.

([4]) ابن منظور: لسان العرب، 346/5.

([5]) محمد بن عبد الرحمن القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، راجعه وصححه: بهيج غزاوي، ط1، دار إحياء العلوم، (بيروت، 1988)، 9.

([6]) السكاكي: مفتاح، 156 ؛ ابن خلدون: المقدمة، 588.

([7]) السكاكي: مفتاح، 77.

([8]) السكاكي: مفتاح، 200 ؛ القزويني: الإيضاح، 16.

([9]) شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي: إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء وطبقات الأدباء، مراجعة: وزارة المعارف العمومية ،ط1، دار إحياء التراث العربي ،(بيروت ، د.ت)، 56/12-57 ؛ المنذري: التكملة، 73/1-76 ؛ أبو شامة: الروضتين، 172/3؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، 138/41-140، سير، 72/13-73 ؛ السبكي: طبقات الشافعية، 234/4 ؛ ابن كثير: البداية والنهاية، 319/12-320.

([10]) السيوطي: حسن المحاضرة، 564/1.

([11]) حمزة: الحركة الفكرية، 14، 28؛ حسن وآخرون: النظم الإسلامية، 160؛ حمادة: الوثائق السياسية،70/4.

([12]) الحموي: معجم الأدباء، 141/12-167 ؛ الكتبي: فوات الوفيات، 443/2.

منهـا، "شـرح ألفيـة ابـن معطـي"، ثـم عـاد إلـى حلـب، وتـوفي فيهـا سـنة (631هـ/1233م)[1].

- جمال الدين محمد بن محمد بن عمرون الحلبي، كان إماماً في علم النحو، سمع من علماء عصره في الشام، انتقل إلى مصر وأقرأ بها النحو، ثم عاد إلى الشام، وتوفي سنة (649هـ/1251م)[2].
- عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام الدمشقي، برع في العربية بالإضافة الى براعته في الفقه، انتقل إلى مصر، ودرس فيها العربية إلى جانب الفقه، وانتفع به الناس، توفي سنة (660هـ/1261م)[3].
- علاء الدين علي بن أبي الحزم المعروف بابن النفيس الدمشقي، كان إمام وقته في فنه، أجاد عدة علوم من بينها العربية والبيان، انتقل إلى مصر وصنف فيها تصانيف مشهورة بمختلف العلوم منها العربية وانتشر على يده التلاميذ بمصر، توفي بمصر سنة (687هـ/1288م)[4].

2. **الأدب:**

أثرت الحروب الصليبية في الأدب العربي بمصر والشام تأثيراً كبيراً، حيث ألهبت هذه الحروب العواطف، وأوقدت نار الحقد على الصليبيين، فعبر الشعراء عن هذه العواطف أصدق تعبير[5]. ساعدهم في هذا أن نور الدين محمود وصلاح الدين كانا يقربان الشعراء ويجالسونهم لاستماع قصائدهم في تسجيل الانتصارات أو تخليد المآثر التي يقومان بها، وكانا لا يبخلان على الشعراء بالمال والعطاء الجزيل. وقد وصف صلاح الدين أنه كان صاحب ذوق لطيف في رواية الشعر وحفظه[6]. وقد فتحت مآثره وانتصاراته مجالاً واسعاً للحديث عنه وعن مآثره، فاشترك الشعراء المصريين إلى جانب إخوانهم الشعراء الشاميين في تمجيد هذه الانتصارات من خلال الشعر[7]. ومن أمراء الأسرة الأيوبية الذين اهتموا بالشعر عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب المتوفى سنة(578هـ/1182م)[8]، ابن أخي السلطان صلاح الدين فعن شعره يذكر ابن العماد الأصفهاني أن "شعره ظَرفُ الظرفِ، وحُسنِي الحُسنِ، ومَلِحُ الملاحةِ، وجادَّةُ الإجادةِ، ومائدة الفائدةِ، ومأدبةُ الأدب، وعلمُ العلم، وحِكمةُ الحِكمة، ونُور الحِدقة، ونور الحديقة". وقد أنشد بيتين لصديق له بمصر:

عَرَتنـي هُمـومٌ أرقتَنـي لِعُظمِهـا ... كمـا يـأرق الصَّـبُّ الكئيـب مـن الوَجْـدِ

ولابُـدّ أن أدعـوا شـقيقاً يُزيلهـا ... فـإن تسـتجب يـابن الرشـيد فمِـن رُشـدي[9]

---

(1) الأسنوي: طبقات، 499/1.
(2) الذهبي: سير، 244/14-245 ؛ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، والنحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، مطبعة عيسى ألبابي الحلبي، (القاهرة، 1964)، 231/1.
(3) الذهبي: سير، 15/16-18 ؛ الصفدي: الوافي، 318/18.
(4) الأسنوي: طبقات، 506/2-507.
(5) رشيد: النشاط العلمي، 452.
(6) سلام: الأدب في العصر الأيوبي، 231-232 ؛ رشيد: التعليم في ظل الدولتين، 273.
(7) حسين: دراسات في الشعر، 97-98.
(8) سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، 372/8 ؛ خير الدين الزركلي:الأعلام ، ط15، دار العلم للملايين،(بيروت، 2002)، 141/5.
(9) خريدة القصر و جريدة العصر (شعراء الشام)، تحقيق:شكري فيصل ، المطبعة الهاشمية ،(دمشق، 1968)، 1968)، 113/6-116.

يضاف إلى هذه العوامل التي ساعدت على نهضة الأدب في مصر في العصر الأيوبي، عامل تنافس مدنها ومباراة بعضها بعضاً في إكرام الأدباء والعلماء الوافدين إليها[1].

واتخذ البعض الشعر طريقاً للحصول على الرزق، فكان السلطان أو الأمير يأوي إليه جماعة من هؤلاء سواء عن طريق الدولة بتعيينهم في وظائف متعلقة بديوان الرسائل أو الدواوين الأخرى أو عن طريق شخصي، كأن يكفل لهم الرزق عن طريق راتب معين[2].

وظهرت في العصر الأيوبي بمصر بعض الاصطلاحات الفنية عند الشعراء، فعرفت الموشحات الشعرية الصوفية، التي انتشرت في الشام أولاً بفعل انتشار التصوف فيها، ومنها انتقلت إلى مصر[3]. أما الزجل[4] فقد اتجه نحو التصوف، وشهد رواجاً وازدهاراً في بلاد الشام الشام ومصر في هذه الفترة، إذ أقبلت عليه الفئات الشعبية المختلفة، لاتصافه بالسهولة أولاً، وتحلله من قيود الأعراب واللغة ثانياً، ويعبر عن نفسياتها تعبيراً مباشراً باللغة العلمية التي ينظم فيها. وقد ظهر الزجل في الشام وبدأ من النقطة التي وقف عندها في المغرب والأندلس، بعد المصائب التي حاقت بالأندلس في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، ليظهر نوع جديد من الزجل يعرف بـ "البليق" الذي نشأ في الشام وانتقل منها إلى مصر، بدليل أن اسمه مشتق من اسم طائر جميل يدعى الأبلق، وهو معروف بكثرة في بلاد الشام بأبي بليق، ويجمع ريشه بين اللونين الأسود والأبيض[5].

وكانت الشام قبل قيام دولة الأيوبيين، أجزل شعراً، وأقرب إلى الديباجة العربية القديمة من مصر وبلاد الجزيرة العربية، في مجال البديع[6] من الشعر، حيث انتقل الأدب المصري بالبديع نقلة جديدة في العصر الأيوبي،على يد الوافدين من الشام من شعراء وكتاب وعلى رأسهم القاضي الفاضل[7].

وقد ظهر في مصر في هذه الفترة شعر أو فن الأخوانيات، وقد أكثر المصريين منه نتيجة العلاقة المتينة التي كانت تربط الشعراء المصريين مع بعضهم و حتى مع الوافدين إليها، ويجعلهم إخواناً في السراء والضراء [8].

أما صور الأدب النثري فكانت هي نفسها تقريباً الصور والفنون التي عرفها الأدب العربي من قبل، والمقصود بذلك الرسائل والخطب وأضيفت إليها المقامات فيما بعد[9]. أما الرسائل فقد ظهر فيها ما يعرف بـ (الأخوانيات) على غرار الشعر، وقد ذكرناها في ديوان الإنشاء في الميدان الإداري، وأبرز من مثلها الرسائل المتبادلة بين القاضي الفاضل والعماد الأصفهاني[10].

([1]) حمزة: الحركة الفكرية، 272.

([2]) سلام: الأدب في العصر الأيوبي، 49.

([3]) باشا: أدب الدول المتتابعة، 586 ؛حسين: دراسات في الشعر ،167.

([4]) الزجل: هو أرفع الشعر رتبة وأشرفها نسبة وأكثرها أوزاناً وأرجحها ميزاناً. والزجل في اللغة: الصوت. يقال: سحاب زجل: أذا كان فيه الرعد. وقد أطلق على كل ما أعرب: موشحاً، وكل ما خلا من الأعراب: زجلاً. صفي الدين الحلي: العاطل الحالي والمرخص الغالي، تحقيق: حسين نصار، ط2، دار الشؤون الثقافية العامة، (بغداد، 1990)، 5، 8.

([5]) باشا: أدب الدول المتتابعة،614,611-615.

([6]) البديع لغةً: المحدث العجيب، أما اصطلاحاً: اسم موضوع لفنون من الشعراء يذكرها الشعراء ونقاد المتأدبين منهم، والبديع يرادف كلمة البيان أو البلاغة. ابن منظور: لسان العرب، 230/3 ؛ أبو العباس عبد الله بن محمد بن المعتز العباسي: البديع في البديع، ط1، دار الجيل، (بيروت، 1990)، 7، 19.

([7]) حمزة: الحركة الفكرية، 268-279,269.

([8]) حسين: دراسات في الشعر، 167.

([9]) سلام: الأدب في العصر الأيوبي، 177.

([10]) القلقشندي: صبح الأعشى، 167/8.

أما الخطابة فقد حظيت بمكانة رفيعة لدى الأدباء في العصر الأيوبي، وقد شاع النثر الفني في مصر في هذه الفترة لغلبة العامل الديني على الناس فيها. وقد تنوعت أهداف الخطابة آنذاك، فمنها الخطب الدينية التي تهدف إلى تهيئة النفوس لفعل الخير وهدايتها لمنهج الحق، وعرف هذا النوع من الخطب بـ (الخطب الوعظية) لذلك اهتم الأيوبيين بالخطابة والخطباء وأغدقوا عليهم الأموال، وعمدوا إلى تقريبهم[1].

وأبرز من انتقل من الشام الى مصر فعمل بها في مجال الشعر والنثر في العصر الأيوبي:

- أبو علي الحسين بن عبد الله بن رواحة الحموي الفقيه الشافعي، انتقل إلى مصر، ومدح بها جماعة من الملوك، وقال فيها الشعر الجيد، وانتفع بشعره الناس بمصر، قتل قرب عكا سنة (585هـ/1189م)[2].
- القاضي الفاضل، الذي برع في مجال الشعر والنثر بفرعه الكتابي، حتى عُدَّ رئيس مدرسة تبعه فيها المصريون والشاميون[3]، أما في الشعر فهو فصيح الألفاظ سهل التركيب واضح المعاني، وله مدح جيد وفخر وغزل واخوانيات[4]. وله قصيدة يشتاق يشتاق فيها إلى مصر ونيلها لما غادر مع السلطان صلاح الدين في حملاته على الموصل:

بـــالله قُـــل للنيـــل عنـــي إننـــي ... لـــم أشـــفِ مـــن مـــاء الفـــرات غَلـــيلاً

وســـل الفـــؤاد فإنـــه لـــي شـــاهد ... أن كـــان طرفـــي بالبكـــاء بخـــيلا

يـــا قلـــب كـــم خلفـــت ثـــم بثينـــة ... وأظـــن صـــبرك أن يكـــون جمـــيلا[5]

وقد ضمت مدرسة القاضي الفاضل الشعرية، جماعة من شعراء مصر الأعلام تجمعهم رابطة واحدة وهم: هبة الله بن سناء الملك المتوفى سنة(608هـ/1211م)[6]، والأسعد بن مماتي، وجمال الدين بن مطروح المتوفى سنة(649هـ/1251م)[7]، وجمال الدين بن الجزار المتوفى سنة(679هـ/1280م)[8]، وابن الفارض[9]. وقد اقتدى هؤلاء بشعره وساروا على نهجه[10].

أما دور القاضي الفاضل في مجال النثر فكان عن طريق الرسائل الديوانية الرسمية وإخوانيات شخصية[11]، ويكفي شهادة السلطان صلاح الدين على مكانة كتابته وعظمتها وأسلوبه الرهيب فيها عندما قال: "لاتظنوا أني ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم القاضي الفاضل..."[12].

- بهاء الدين أبو الحسن علي بن محمد بن رستم الدمشقي، المعروف بابن الساعاتي، عرف بهذا اللقب نسبة لأبيه الذي عمل الساعات في دمشق أيام الملك العادل نور الدين محمود بن

([1]) البنداري: سنا البرق، 246 ؛ الباشا: الفنون الإسلامية، 1302/3.
([2]) المنذري: التكملة، 196/1-198.
([3]) ضيف: تاريخ الأدب العربي، 412.
([4]) عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، (بيروت، 1984)، 411/3.
([5]) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 160/3 ؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، 247/42.
([6]) الحموي: معجم الأدباء، 265/19-271.
([7]) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 258/6-260.
([8]) الكتبي: فوات الوفيات، 277/4-293 ؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 345/7.
([9]) سلام: الأدب في عصر صلاح الدين، 362.
([10]) حسين: دراسات في الشعر، 214.
([11]) فروخ: تاريخ الأدب العربي، 411/3.
([12]) سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، 472/8.

زنكي[1]، أجاد ابن الساعاتي الشعر في الشام، ثم انتقل إلى مصر سنة 585هـ/1189م، ليقضي بقية عمره هناك، حيث أقام بمدينة المحلة الكبرى، مع عائلته[2]. واتسم شعره بسلامة اللفظ ولطافة التعبير، وفنونه المدح والفخر والرثاء والهجاء والوصف والغزل والمجون، وأكثر شعره الغزل ووصف الطبيعة والقصور والرياض[3]. وله في هذا المجال قطعة يذكر فيها ليلة له في أسيوط:

لله يـــومٌ فـــي ســـيوط وليلـــةٌ ... صَـــرفُ الزمـــان بأختهـــا لا يغلـــط

بتنـــا وعُمُـــر الليـــل فـــي غُلوائـــهِ ... ولـــه بنـــور البـــدر فـــرعٌ أشـــمطُ

والـــطل فـــي ســـلك الغصـــون كـــالؤلؤ نـــظم يصـــافحه النســـيم فيســـقط

والطَّيـــر تقـــرأُ والغـــديرُ صـــحيفةٌ ... والـــريحُ تكتـــب والغمـــامُ يـــنقطُ[4]

ومهما يذكر عن غرور الشاعر، وهي صفة نجدها لدى أدباء هذا العصر، إلا أن شعره وحياته يمثلان مظهران من مظاهر الوحدة الأدبية في عصر الأيوبيين بين الشام ومصر[5]، توفي ابن الساعاتي بالقاهرة سنة (604هـ/1207م)[6].

- شرف الدين أبو المحاسن محمد بن نصر بن الحسين المعروف بابن عنين الدمشقي، تتلمذ على يد شعراء ونحوي العصر في الشام، ورحل الى بغداد وسمع مقامات الحريري[7]، وابتدأ يقول الشعر سنة 565هـ/1169م وهو ابن ستة عشر سنة وكان شاعراً محسناً، رقيق الشعر بديع الهجو، ولم يكن في عصره آخر مثله بالشام، ويذكر عنه انه: "كان خاتمة الشعراء، لم يأت بعده مثله، ولاكان في أواخر عصره من يقاس به..."، وكان ابن عنين مولعاً بثلب أعراض الناس، وله قصيدة سماها "مقراض الأعراض".انتقل الى مصر سنة 594هـ/1197م وأقام بها مدة طويلة، وطالت فيها عشرته لشعراء مصر وأدبائها، فأعجبوا به وبخفة روحه ودعابته [8]، وقد تركت زيارته هذه لمصر أثراً في نفسه، فلم يتشوف إلى بلد بعد عودته لدمشق، قدر تشوقه إلى مصر وقال بها:

تحيـــة مشـــتاقٍ بعيـــد مـــزارهُ ... أبـــى شـــوقه أن يســـتقر قـــرارهُ

إذا نَفْحَـــةٌ مـــرت بـــه قاهريـــةٌ ... ذكـت فـي الحشـا بـين الجـوانح نـارهُ

ومـا شـام مـن أعـلا المقطـم جفنـهُ ... سـنا بـارقٍ إلا توالـت قطـارهُ

* * * * *

([1]) أبو شامة: الروضتين، 26/3 ؛ ابن سعيد: الغصون اليانعة، 118/2 ؛ الصفدي: الوافي، 5/22.

([2]) سلام: الأدب في العصر الأيوبي، 304.

([3]) فروخ: تاريخ الأدب العربي، 440/3.

([4]) الصفدي: الوافي، 7/22 ؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، 13/5.

([5]) باشا: أدب الدول المتتابعة، 331.

([6]) أبو شامة: الروضتين، 26/3 ؛ الصفدي: الوافي، 5/22 ؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، 13/5.

([7]) مقامات الحريري: من كتب البلاغة الشهيرة لأبي محمد القاسم بن علي الحريري المتوفى سنة (516هـ/1165م)، ينظر كتاب مقامات الحريري، مطبعة المعارف، (بيروت، 1872).

(4) الحموي: معجم الأدباء،19/81-83 ؛ سبط بن الجوزي:مرآة الزمان ، 8/696-697 ؛ابن خلكان: وفيات الأعيان،5/14-16؛ الذهبي: تاريخ الإسلام ،45/411-412؛ الصفدي: الوافي،5/83؛ابن كثير:البداية والنهاية ،13/137-138 ؛خليل مردم بك: الشعراء الشاميون ، تحقيق: عدنان مردم بك، دار صادر ،(بيروت ، د.ت)،245-248.

أحـنُّ إلـى مصـرٍ ويـا ليـت أن لـي إذا ذكـرت مصـر جناحـاً أعـارُهُ

فـآوى إلـى ظـلٍ ظليـل ونائـل جزيـل وملـك حـالف المـز جـاره[1]

وقد التقى ابن عنين في مصر بالشاعر ابن سنا الملك، فكانت لهم مجالس يجري بينهم فيها مفاكهات ومحاورات يروق سماعها عرفت بـ (الاخوانيات)، وكان يقال عنه بمصر، هذا شاعر الشام، توفي ابن عنين سنة (630هـ/1232م)[2].

- شرف الدين أبو القاسم عمر بن علي بن مرشد بن علي الحموي، المعروف بابن الفارض سيد شعراء العصر، له ديوان شعر لطيف وينحى في أسلوبه منحى طريقة الفقراء وهو من شعراء التصوف، وسمع المنذري من شعره، توفي بالقاهرة سنة (632هـ/1234م)[3].
- أبو الجنان رضوان بن عمر بن علي بن خميس الدمشقي، قدم مصر بعد سنة 600هـ/1203م، ومدح بها جماعة، وله شعر جيد، روى عنه ألمنذري، توفي سنة (634هـ/1236م)[4].
- عبد المحسن بن حمود الحلبي، كان شاعراً أديباً مترسلاً، رحل إلى مصر وعمل بخدمة الملك الكامل، واتصل بعلمائها، ثم عاد إلى دمشق، له ديوان شعر، توفي سنة (643هـ/1245م)[5].

أما في مجال النثر بفرعيه الخطابة والوعظ فقد برز كل من الفقيه زين الدين بن نجية (ت 599هـ/1202م) رأس الحنابلة في مصر الذي كان يعظ بجامع القرافة بمصر[6]، وأبو عبد الله المعروف بالتاج الحموي (ت 599هـ/1202م) الذي تولى الخطابة بجامع القاهرة[7]، والحافظ تقي تقي الدين المقدسي (ت 600هـ/1203م) الذي كان يعظ بجامع عمرو بن العاص[8]، وشهاب الدين أبو عبد الله بن الجاموس الحموي (ت 615هـ/1218م) الذي تولى خطابة الجامع العتيق [9]، وناصح الدين أبو الفرج بن الحنبلي (ت 634هـ/1236م) الذي وعظ بمصر في زيارته لها مرتين وحصل له بها قبول[10]، وشيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام (ت 660هـ/1261م) الذي كان يعظ بجامع عمرو بن العاص [11].

ثالثاً: العلوم العقلية

---

(1) شرف الدين أبي المحاسن ابن عنين: ديوان ابن عنين، تحقيق: خليل مردم بك، مطبوعات المجمع العلمي العربي، (دمشق، 1946)، 91 ؛ سلام: الأدب في العصر الأيوبي، 298.

(2) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 18/5 ،62/6؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، 411/45 ؛ الصفدي: الوافي، 83/5؛ ابن كثير: البداية والنهاية، 137/13؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب ،35/5.

(3) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 454/3-455 ؛ الترمانيني: أحداث التاريخ الإسلامي، 835/3-837.

(4) الذهبي: تاريخ الإسلام، 188/46.

(5) الذهبي: سير، 222/14-223 ؛ الكتبي: فوات الوفيات، 393/2-394 ؛ شاكر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون، ط1، دار العلم للملايين، (بيروت، 1979)، 298/2-299.

(6) المنذري: التكملة، 417/2-418 ؛ أبو شامة: الذيل، 54-55 ؛ الذهبي: سير، 212/13-214؛ العبر، 126/3 ؛ ابن رجب: الذيل، 436/1-440 ؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 183/6.

(7) المنذري: التكملة، 408/2-409.

(8) الذهبي: تذكرة الحفاظ، 1372/4-1380 ؛ ابن رجب: الذيل، 11/3.

(9) المنذري: التكملة، 319/4 ؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، 258/44-259 ؛ الصفدي: الوافي، 21/2.

(10) المنذري: التكملة، 192/6-193 ؛ الذهبي: سير، 92/14-93 ؛ ابن رجب: الذيل، 193/2-200.

(11) الذهبي: تاريخ الإسلام، 45/46 ؛ السبكي: طبقات الشافعية، 81/5.

حظيت العلوم العقلية بعناية واسعة من قبل العلماء العرب المسلمين على مر العصور الإسلامية، ومنها العصر الأيوبي، وذلك لأهمية هذه العلوم لحياتهم الدينية والاجتماعية والاقتصادية والصحية وغيرها، لذلك قام العلماء العرب بالإطلاع على ما عند الأمم الأخرى من علوم ومن ثم بترجمتها وأضافوا إليها الكثير. ومع ذلك فان الاعتناء بالعلوم العقلية كان أقل شأناً مقارنةً بالعلوم الدينية واللغوية، لأن الظروف التي حاقت بالشام ومصر في العصر الأيوبي، والمتمثلة بالحروب الصليبية حتمت على العرب المسلمين إعطاء الأهمية الأكبر لعلومهم ؛ لأنها تعمق إيمانهم بعقيدتهم وجهادهم ضد الأعداء[1].

ويلاحظ أن كثير من العلماء قد صرف النظر عن الاشتغال بالفلسفة والمنطق لأنها لقيت مقاومة شديدة من رجال الدين وإعراضاً من السلاطين. أما علوم الطب والصيدلة والرياضيات فقد لقيت كل التشجيع، فكثر الإقبال عليها، وأخذ العلماء منها بحظ وافر[2].

1. علم الطب والصيدلة:

الطب: هو علاج الجسم والنفس[3]، وهو "علم نظري وعملي أباحت الشريعة علمه وعمله، لما فيه من حفظ الصحة ودفع العلل والأمراض عن هذه البنية البشرية"[4]، ويعرفه ابن خلدون على أنه "علم ينظر في بدن الإنسان من حيث يمرض ويصح فيحاول صاحبها حفظ الصحة وبرء المرض بالأدوية والأغذية بعد أن يتبين المرض الذي يخص كل عضو من أعضاء البدن وأسباب تلك الأمراض التي تنشأ عنها وما لكل مرض من الأدوية..."[5].

لقد ظهر في بلاد الشام في العصرين الزنكي والأيوبي عدد كبير من الأطباء الذين كان لهم إسهام في تطور الطب، ولم يقتصر هذا في بلاد الشام فقط بل انتقلوا إلى خارجها، فكانت مصر إحدى هذه البلدان التي ساهم بها علماء الشام في المجال الطبي[6].

وكان الأيوبيين يهتمون بالطب والأطباء منذ عهد السلطان صلاح الدين، حيث بدأ هذا الاهتمام باتخاذه مارستاناً أو بيمارستاناً[7] ضخماً في القاهرة[8]. فبلغ الطب في مصر في العصر الأيوبي مستوى متقدم، كما تطورت وسائل دراسته، وزخرت مكتبات البلاد بمختلف المصنفات الطبية التي تعالج حالات مرضية مختلفة، ولعل هذا التطور يعود إلى استمرار الحروب الصليبية، وما تتطلبه من تحشيدات ومنها الجانب الطبي، فضلاً عن حاجة المجتمع المصري بصورة عامة والبلاط السلطاني على وجه الخصوص لخدمات الأطباء بمختلف اختصاصاته الطبية[9].

([1]) خلف: الحياة العلمية، 104.

([2]) باشا: أدب الدول المتتابعة، 167.

([3]) ابن منظور: لسان العرب، 2630/29 ؛ الفيروز آبادي: القاموس، 96/1.

([4]) الشيزري: نهاية الرتبة، 97.

([5]) المقدمة: 531.

([6]) الزبيدي: الرحلات العلمية، 109.

([7]) البيمارستان: ويقال له المارستان، كلمة فارسية مركبة من كلمتين (بيما) بمعنى مريض و(ستان) بمعنى المكان أو دار و تعريبها: بيت المرضى وهو يقال له اليوم المستشفى.ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء،47؛ احمد عيسى بك: تاريخ البيمارستانات في الإسلام ، المطبعة الهاشمية ،(دمشق ،1939) ، 4.

([8]) ابن الأثير: الكامل، 441/11 ؛ البنداري: سنا البرق، 120 ؛ سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، 339/8؛ أبو شامة: الروضتين، 294/2 ؛ ابن واصل: مفرج الكروب، 55/2 ؛ الحنبلي: شفاء القلوب، 189.

([9]) عمر رضا كحالة: العلوم العملية عند العرب، المطبعة التعاونية، (دمشق، 1972)، 64.

وقد اتصلت صناعة الطب بالبيمارستانات التي أنشئت لأغراض التجارب الطبية[1]، ولتعليم الطلاب الطب، ووصف الأمراض وطرق معالجتها. وهذا ما جعله مكاناً للتدريب العملي وللدراسة النظرية، ليتخرج منها المتطببون والجراحون والكحالون[2].

وأما الصيدلة فهي علم يبحث عن التمييز بين النباتات المتشابهة في الشكل ومعرفة منابتها... و جيدها من رديئها، و خصائصها والفائدة منها"[3]. وعرف علم الصيدلة بأسماء مختلفة منها علم العقاقير، وعلم الأدوية، وغير ذلك، وكان من الصعب فصل علم الصيدلة عن الطب، حيث كان الطبيب يتفحص المرضى ويشخص حالاتهم ثم يصف العلاج الذي يقوم بتحضيره بنفسه[4]. وبمرور الوقت أخذ الطب ينفصل عن الصيدلة وأصبح كل علم قائماً بنفسه[5]، نتيجة ازدياد أنواع العقاقير، وتشعب طرق تركيبها[6] ، ازداد نشاط الصيادلة في البحث عن أنواع جديدة من النباتات من أجل توفير الأدوية، واكتشاف ما هو ضار أو مفيد منها، وألفوا الكتب عن الأدوية وطرق تركيبها وفوائدها، وقد شهد العصر الأيوبي بروز عدد من الصيادلة الذين أسهموا في تطور علم صناعة الأدوية في بلاد الشام ومصر[7]. وأبرز من انتقل من الشام إلى مصر وعمل فيها في مجال الطب والصيدلة في العصر الأيوبي:

- مهذب الدين أبو سعيد بن أبي سليمان بن أبي المنى بن أبي فانه المقدسي، ينحدر من أسرة طيبة من نصارى القدس، قرأ الطب على يد أبيه وغيره من أطباء الشام، اشتغل بالطب، ثم انتقل إلى مصر وخدم السلطان صلاح الدين والملك العادل أيضاً، واستمرت إقامته بمصر إلى أن توفي فيها سنة (613هـ/1216م)[8].
- موفق الدين أبي شاكر بن أبي سليمان المقدسي، درس الطب على يد أخيه مهذب الدين أبي سعيد، وقد لفتت مهارته الطبية نظر الملك العادل فضمه إلى حاشيته ثم جعله في خدمة ولده الملك الكامل بمصر، وكانت له منه أقطاعات وضياع وغيرها حتى غدا أحد أبرز أطباء مصر في ذلك الوقت، توفي بالقاهرة سنة (613هـ/1216م)[9].
- جمال الدين عثمان بن هبة الله بن أحمد المعروف بابن أبي الحوافر، اشتغل على يد علماء الطب في عصره، وخدم الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين، وانتقل معه الى مصر وولاه رئاسة الطب بها، واشتغل عليه جماعة من أطباء مصر، وخدم الملك الكامل، وصنف كتاباً مختصراً في الطب، توفي سنة (619هـ/1222م)[10].
- مهذب الدين أبو محمد عبد الرحيم بن علي بن حامد الدمشقي، المعروف بالدخوار، كان قد فات أهل زمانه في صناعة الطب، ويُعد أحد أعلام الطب زمن الدولة الأيوبية، وتردد إلى البيمارستان الكبير في دمشق وأخذ بتدريس صناعة الطب، ثم انتقل إلى مصر وساهم بقسط وافر وجهد عظيم في صناعة الطب بشقيه المهني العملي والبحثي النظري مما جعله يتبوأ مكانة مرموقة ومعيشة هنيئة، حتى وصل إلى

([1]) سيد الأهل: أيام صلاح الدين، 128.

([2]) عيسى بك: تاريخ البيمارستانات، 3-4 ؛ الحسين: موسوعة الحضارة ،214.

([3]) خليفة: كشف، 1085/2.

([4]) محمد كامل حسين: الموجز في تاريخ الطب والصيدلة، د.ن، (طرابلس، د.ت)، 270-272.

([5]) زيغريد هونكة: شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة: فاروق بيضون وآخرون، ط2، المكتب التجاري للطباعة والنشر، (بيروت، 1969)، 320.

([6]) حسين: الموجز، 272 ؛ المياحي: الحركة الفكرية، 192.

([7]) الزبيدي: الرحلات العلمية، 120-121.

([8]) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، 589.

([9]) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، 589-590 ؛ الصفدي: الوافي، 15/16. كحالة: الموجز، 270-272.

([10]) المنذري: التكملة، 117/5-118 ؛ ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، 584-585 ؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، 520/44 ؛ الترمانيني: أحداث التاريخ الإسلامي، 760/3.

منصب رئاسة الأطباء بالشام ومصر، وقصده عدد من الطلبة لينهلوا من علمه، ومن تصانيفه اختصار كتاب (الحاوي) للرازي، وكتاب (الجنينة) وتعاليق ومسائل في الطب، ثم عاد إلى الشام وتوفي بدمشق سنة (628هـ/1230م)[1].

- رشيد الدين أبو المنصور بن أبي الفضل علي الصوري، كان بارعاً بصناعة الأدوية المفردة وماهيتها واختلاف أسمائها وصفاتها وخصائصها، ويعد من خيرة العشابين في الشام في ذلك العصر، وعمل بخدمة الملك العادل وابنه المعظم الذي رحل معه إلى مصر، والتقى هناك بالشيخ أبي العباس بن الرومية أحد المهتمين بعلم الأدوية، وتباحث معه في موضوع النباتات والأدوية وانتفع به الناس، وألف كتاباً سماه (الأدوية المفردة)، توفي سنة (639هـ/1241م)[2].
- أبو الفضل بن أبي سليمان بن أبي المنى المقدسي، كان أصغر أخوته، عمل بصناعة الطب، وكان طبيباً للملك المعظم بالكرك، ثم خدم الملك الكامل بمصر، وتوفي فيها سنة (644هـ/1246م)[3].
- رشيد الدين أبو سعيد بن الموفق يعقوب المقدسي، من أعيان الأطباء وعلمائهم المشاهير، درس الطب في الشام على يد علماء العصر آنذاك، انتقل إلى مصر فعمل في خدمة الملك الكامل، ثم بعده الملك الصّالح نجم الدين أيوب، توفي سنة (646هـ/1248م)[4].
- فتح الدين أبو الفتح أحمد بن عثمان الدمشقي، المعروف بابن أبي الحوافر، سمع الطب عن أبيه وبرع في الطب، حتى صار رئيس الأطباء بمصر، توفي سنة (657هـ/1258م)[5].
- نجم الدين أبي زكريا يحيى اللبودي الحلبي، اشتغل بصناعة الطب في دمشق واعتمد عليه صاحب حمص الملك المنصور إبراهيم بن أسد الدين شيركوه، وبعد وفاته انتقل نجم الدين إلى مصر، وعمل بخدمة الملك الصالح نجم الدين أيوب مدة، ثم عاد إلى الشام وأنشأ بها مدرسة طبية، توفي سنة (666هـ/1267م)[6].
- موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم بن خليفة الدمشقي، المعروف بابن أبي أصيبعة، ويعد من أشهر الأطباء، وكان والده أمهر الكحالين (أطباء العيون) فأخذ عنه الطب، ثم انتقل إلى مصر ودرّس الطب دراسة قيمة في القاهرة في البيمارستان الناصري وهو صاحب كتاب (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) الذي صنفه سنة 643هـ/1245م، ومن كتبه أيضا (التجارب والفوائد) و(حكايات الأطباء في علاجات الأدواء)، توفي سنة (668هـ/1269م)[7].
- رشيد الدين أبو الوحش بن أبي الخير بن أبي سليمان المعروف بأبي حليقة، درس الطب في الشام على يد عمه مهذب الدين أبي سعيد، ومهذب الدين الدخوار، انتقل إلى مصر سنة 609هـ/1212م، وتميز بصناعة الطب بعد أن حفظ (الفضول) و(تقدمة المعرفة) لابقراط وعمل في البيمارستان الناصري، واهتم بصناعة الأدوية أيضاً،

([1]) سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، 672/8 ؛ ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، 728، 731-732 ؛ الصفدي: الوافي، 233/18-234 ؛ غانم عبد الله خلف: "مهذب الدين الدخوار رئيس الأطباء في عهد الأيوبيين 565-628هـ"، مجلة آداب الرافدين، العدد (27)، كلية الآداب، جامعة الموصل، (1995)، 310-312، 315.

([2]) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، 699-703.

([3]) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، 590.

([4]) الذهبي: تاريخ الإسلام، 334/47.

([5]) الذهبي: تاريخ الإسلام، 312/48.

([6]) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، 663-664 ؛ الكتبي: عيون التواريخ، 429/20.

([7]) بدوي: الحياة العقلية، 321-322 ؛ عيسى بك: تاريخ البيمارستانات، 81 ؛ الزركلي: الأعلام ،197/1.

ونجح في صنع ترياق ذي فاعلية عالية في علاج المريض بسرعة وله كتاب في الأدوية المفردة سماه (المختار في الألف عقار) و(كتاب في الأمراض وأسبابها وعلاماتها ومداواتها بالأدوية المفردة والمركبة المجربة)، وخدم أبي حليقة الملك الكامل وابنه الصالح نجم الدين أيوب، ثم ابن الصالح المعظم تورنشاه، وخدم في دولة المماليك أيضاً، توفي سنة (670هـ/1271م)[1].

- شمس الدين محمد بن إبراهيم الدمشقي، المعروف بالكلي، درس الطب على يد مهذب الدين الدخوار في الشام، وحفظ كتب الأوائل التي يحفظها المشتغلون بالطب، وحفظ الكتاب الأول من (القانون) ولذلك سمي الكلي، انتقل إلى مصر وعمل في البيمارستان الناصري وبقى مدة يعالج المرضى ويدرس الطب فيه إلى أن توفي سنة (675هـ/1276م)[2].
- علاء الدين علي بن أبي الحزم الدمشقي، المعروف بابن النفيس، لم يكن في العصر من يضاهيه في الطب والعلاج والعلم كما تذكر المصادر، درس الطب على يد مهذب الدين الدخوار، ثم انتقل إلى مصر، واشتغل طبيباً في البيمارستان الناصري وانتشرت عنه التلاميذ، وصار رئيس الأطباء بمصر، ويعد أول مكتشف للدورة الدموية الصغرى، وله تصانيف عديدة في الطب منها: (الشامل في الطب) و(الموجز) و(شرح القانون) لابن سينا، و(شرح مسائل حنين) و(شرح فصول ابقراط)، توفي بالقاهرة سنة (687هـ/1288م)[3].

2. علم الكلام والفلسفة:

علم الكلام هو: "ملكة يقتدر بها الإنسان على نصرة الآراء والأفعال المحدودة التي صرح بها واضع الملكة وتزييف كل ما خالفها بالأقاويل"[4]. أما ابن خلدون فيعرف هذا العلم على أنه "علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة. وسر هذه العقائد الإيمانية هو التوحيد"[5]. وقد استند هذا العلم على النقل والعقل في آن واحد لأن المتكلم يعتمد في منهجه على النصوص الدينية فضلاً عن استنتاجه العقلي[6]، ويعد القرآن الكريم المصدر الأساس الذي استمد منه علماء الكلام الكلام مادتهم، ولما كان علم الكلام يعتمد على العقل ؛ لذلك شكل مدخلاً لظهور الفلسفة الإسلامية البحتة[7]، والفلسفة مشتقة من كلمة يونانية معناها حب الحكمة[8]. فتكون دراسة الفيلسوف للموضوع دراسة لا ترتبط بدين، وتبدأ عادة بالشك في الأشياء، ثم يتدرج هذا الشك حتى يصل لليقين[9].

إن أغلب من اشتغل بالكلام كان من رجال الدين والفقهاء[10]، وعلى الرغم من اتهام المتكلمين للفلاسفة بالكفر والإلحاد إلا أن هذا لم يمنع من تأثير أحدهما بالآخر، لأن الفلاسفة لم

([1]) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، 590-597 ؛ بدوي: الحياة العقلية، 321.
([2]) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، 755.
([3]) الكتبي: عيون التواريخ، 429/21 ؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 377/7.
([4]) محمد بن محمد الفارابي: إحصاء العلوم، تحقيق:عثمان أمين، ط3،مكتبة الأنجلو المصرية، (القاهرة، 1968)، 113.
([5]) المقدمة: 494.
([6]) ابن خلدون: المقدمة، 500.
([7]) جب: دراسات ،260، 269؛ عاشور وآخرون: دراسات، 94.
([8]) الفارابي: إحصاء، 140 ؛ الخوارزمي: مفاتيح، 79.
([9]) ابن خلدون: المقدمة، 551-552.
([10]) ابن شداد: النوادر، 10.

يتجرؤا على التنكر لتعاليم الإسلام ومبادئه[1]. ولذا اشترط ابن خلدون في المتكلم ان يكون ذا معرفة بالفلسفة وخصائص الأشياء بقدر معرفته بالدين[2]. وبذلك يكون الترابط بين العلمين واضحاً، فلا يمكن دراسة علم الكلام دون الفلسفة والعكس كذلك، فلا يمكن الفصل بينهما[3]. لم يظهر هذا العلم بظهور الإسلام، ولكنه ظهر لما انتشر الإسلام بين الشعوب المتحضرة[4].

وفي العصر الأيوبي في مصر والشام، ابتعد العلماء عن الاشتغال بالعلوم الفلسفية لأنها لقيت مقاومة شديدة من رجال الدين وإعراضاً من السلاطين[5].فالسلطان صلاح الدين "كان مبغضاً للفلاسفة... ومن يعاند الشريعة ولقد أمر ولده صاحب حلب الملك الظاهر غازي بقتل شاب نشأ يقال له شهاب الدين يحيى بن محمد السهروردي، قيل عنه انه كان معانداً للشرائع مبطلاً... فقتله وصلبه سنة(587هـ/1191م)"[6].

ولم يعثر في دمشق على مدارس تختص بالطبيعيات والفلسفة، لكره الاتابكة ومن بعدهم الأيوبيين لأصحاب تلك العقائد، الأمر الذي اضطرهم إلى عدم الظهور سياسياً وثقافياً في أوقات الشدة[7]، فانعكس الحال على مصر أيضاً في العصر الأيوبي. وقد ترتب على سياسة الأيوبيين هذه في مصر تجاه الفلسفة والفلاسفة أن تأخرت العلوم الفلسفية فيها في هذا العصر، على الرغم من ازدهارها في العصر الفاطمي[8].

وعلى الرغم من الحملة التي قادها العلماء والسلاطين والأمراء ضد الفلسفة والفلاسفة والمتكلمين، إلا أن هذا لايمنع من وجود بعضهم، ممن وجدوا متنفساً وبيئة تثمر بها علومهم الفلسفية[9]، وتذكر المصادر التاريخية بعض الأسماء التي قدمت من الشام إلى مصر لتعمل في علم الكلام والفلسفة بالخفاء، حيث لم يتخصصوا في هذا المجال فحسب، بل نجد منهم الفقهاء والأطباء وغيرهم، ممن عمل خلف الجدران حتى لا يكون عرضة للقمع من قبل السلطنة[10].

ومن أبرز هؤلاء ممن رحل من الشام إلى مصر:

- تقي الدين أبو محمد عبد الغني بن عبد الواحد بن سرور المقدسي، تفقه على المذهب الحنبلي في الشام وبغداد وغيرها من البلاد، انتقل إلى مصر بعد أن دخل في خلاف مع فقهاء دمشق وصار يقرأ الحديث في مصر، فأفتى فقهاء مصر بإباحة دمه، وكتبوا إلى الصفي بن شكر وزير العادل على أنه أفسد عقائد الناس ويذكر التجسيم على رؤوس الأشهاد، فطلب الوزير من والي مصر أن ينفيه إلى المغرب، فمات تقي الدين قبل وصول الكتاب سنة (600هـ/1203م)[11].
- سيف الدين أبو الحسن علي بن محمد، المعروف بالآمدي الحنبلي ثم الشافعي، درس القراءات وعلوم الأوائل بأمد، والشام، وتبحر بالعلوم، وتفرد بعلم المعقولات والمنطق والكلام، ثم تصدر لأقرأ الفلسفة والمنطق بمصر بالجامع الظافري، وأعاد بقبة الشافعي، وانتفع به الناس، وصنف التصانيف ثم قام عليه الفقهاء ورموه بانحلال

([1]) ابن خلدون: المقدمة، 551-552.
([2]) المقدمة، 556.
([3]) الزبيدي: الرحلات العلمية، 126.
([4]) ماجد: تاريخ الحضارة، 179.
([5]) باشا: أدب الدول المتتابعة، 167 ؛ سلام: الأدب في العصر الأيوبي، 94.
([6]) الحموي: معجم الأدباء ، 19/314-316؛ ابن شداد: النوادر، 10 ؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان ،6/268-273؛ الحجازي وآخرون: النجوم الزاهرة، 115.
([7]) شميساني: مدارس دمشق، 35.
([8])بهجت: أثر الحضارة السلجوقية، 1/139.
([9]) سلام: الأدب في عصر صلاح الدين، 103.
([10]) السبكي: طبقات الشافعية، 8/108 ؛ السيوطي: حسن المحاضرة، 1/541.
([11]) أبو شامة: الذيل، 69-70 ؛ الذهبي: تذكرة الحفاظ، 4/1372-1374 ؛ ابن رجب: الذيل، 2/19.

عقيدته وبالفلسفة وكتبوا به محضراً بذلك، وحمل إلى بعضهم ليكتب فيه مثل ما كتبوا فكتب:

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه فالقوم أعداء له وخُصُومُ

فخرج من مصر إلى الشام، واستقر بدمشق حتى توفي سنة (631هـ/1233م)[1].

- نجم الدين أبي زكريا يحيى اللبودي الحلبي، كان قد درس علوم الحكمة من منطق وفلسفة حتى إتقانها، وانتقل إلى مصر واتصل بالملك نجم الدين أيوب وعمل عنده والتقى بعدد من العلماء البارزين هنالك، وتباحث معهم في هذا العلم، ومن تصانيفه مختصر (الاشارات) و(المناهج القدسية في العلوم الحكمية) وغيرها، توفي بدمشق سنة (666هـ/1267م)[2].
- جمال الدين محمد بن سالم بن واصل الحموي، تعلم علم أصول الدين والكلام والفلسفة والمنطق، في حماة مسقط رأسه، ثم انتقل الى مصر فعمل في خدمة الملك الصالح نجم الدين أيوب، ثم خدم الظاهر بيبرس في العصر المملوكي، الذي بعثه إلى صقلية في مهمة لدى حاكمها فجرت هناك بينه وبين علمائها مناقشات فلسفية، من تصانيفه (نخبة الفكر) في المنطق و(هداية الألباب)و(خفاية الأفكار) وغيرها، توفي في حماة سنة (697هـ/1297م)[3].

3. الرياضيات:

هو "علم بأحوال ما يفتقر من الوجود الخارجي دون التعقل الى المادة كالتربيع والتثليث والتدوير والعدد وخصائصه"[4]. وقد اعتنى العلماء المسلمين بعلوم الرياضيات عناية كبيرة لحاجتهم إليها في تسيير حياتهم اليومية من عبادة وحساب ومواريث وفرائض وأعمال تجارية وجباية خراج وضبط نفقات الجيش وغيرها، ويتفرع من علوم الرياضيات، الحساب، والهندسة والفلك[5].

فأما علم الحساب فهو "علم بقواعد تعرف بها طرق استخراج المجهولات العددية من المعلومات العددية..."[6]. أما ابن خلدون فيعرفه على أنه: "صناعة علمية في حساب الأعداد بالضم (جمع) والتفريق (طرح)... والتضعيف (ضرب)... والأفراد (قسمة)..."[7].

ويعد علم الحساب الدعامة الأساسية لعلم الرياضيات، لذا اعتنى به علماء المسلمين وعدوه أهم فرع من فروع العلوم البشرية[8]. ومن أشهر الحسابين الذين ذهبوا إلى مصر:

- نجم الدين اللبودي الحموي، من علماء الشام برع بعلم الحساب والفرائض والجبر، انتقل إلى مصر ودرس فيها علم الحساب وانتفع به الناس، ثم عاد إلى الشام ومن تصانيفه:

([1]) المنذري: التكملة، 90/6-91 ؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، 293/3-294 ؛ الذهبي: سير، 69/14-70 ؛ الأسنوي: طبقات، 137/1-138 ؛ ابن كثير: البداية والنهاية، 140/13-141 ؛السيوطي: حسن المحاضرة، 541/1 ؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، 144/5-145.

([2]) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، 663-664 ؛ بدوي: الحياة العقلية، 300-301.

([3])عماد الدين إسماعيل أبو الفدا:المختصر في أخبار البشر، دار الكتاب اللبناني،(بيروت، 1960)،38/4.

([4]) التهانوي: كشاف، 59/1 ؛ صديق بن حسن القنوجي: أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم، تحقيق: عبد الجبار رزكار، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، (دمشق، 1978)، 307/2.

([5]) باشا: أدب الدول المتتابعة، 170 ؛ السامرائي: دراسات، 337 ؛ بدوي: الحياة العقلية، 299.

([6]) القنوجي: أبجد العلوم، 238/2.

([7]) المقدمة، 520 ؛ وينظر القنوجي: أبجد العلوم، 238/2.

([8]) الزبيدي: الرحلات العلمية، 134.

(كافية الحساب في علم الحساب) و(الرسالة المنصورية في الأعداد الوقفية) و(الرسالة الكاملة في علم الجبر والمقابلة)، توفي سنة (666هـ/1267م)[1].

أما الهندسة فهي "العلم الذي يفحص في الخطوط وفي السطوح وفي المجسمات على الإطلاق على أشكالها ومقاديرها وتساويها وتفاضلها وعن أصناف أوضاعها وترتيبها وعن جميع ما يلحقها مثل النقط والزوايا وغير ذلك..."[2].

وظهرت الحاجة إلى علم الهندسة في بناء الحصون والقلاع والمنازل وغيرها[3]، ولعلم الهندسة أهيمته عند علماء الشام، لهذا عملوا على تطويره بالبحث والتطبيق نظرياً وعملياً، وكانت الآثار التي خلفوها في المدن والقلاع والسدود دليلاً على براعتهم الهندسية، وبرز عدد من المهندسين في الشام في العصرين الزنكي والأيوبي، وانتقل عدد منهم إلى بلدان أخرى ومنها مصر، إما لغرض الدراسة أو لوضع مخططات هندسية في البلاد التي انتقلوا إليها[4]. ومن هؤلاء:

- جمال الدين محمد بن سالم بن واصل الحموي، من علماء الشام البارزين، درس عدة علوم ومن بينها علم الهندسة، درَّس علم الهندسة بحلب ثم انتقل إلى مصر في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب وفي تلك الأثناء التقى بعلماء بارزين بعلم الهندسة، فأخذ منهم وأخذوا منه ، توفي سنة (697هـ/1297م)[5].

أما الفلك فهو "علم ينظر في حركات الكواكب الثابتة والمتحركة ويستدل بكيفيات تلك الحركات على أشكال وأوضاع للأفلاك لزمت عنها هذه الحركات المحسوبة بطرق هندسية"[6]، هندسية"[6]، ولعلم الفلك مسميات أخرى منها: (علم الهيئة)، و(علم النجوم)، أما الشخص الذي يزاول هذه المهنة فيسمى بـ (الفلكي)[7].

لم يكن الفلك علماً جديداً بالنسبة للعرب بدليل اهتمامهم بالتنجيم وربطه بحركة الكواكب والنجوم والاستدلال بالنجوم للسير براً وبحراً، منذ عصور ما قبل الإسلام، فكان لهم إطلاع على بعض الأمور الفلكية، ولما جاء الإسلام اهتم العرب المسلمين بعلم الفلك أكثر من ذي قبل من أجل كشف الكثير من الأمور الفلكية التي كانت غير واضحة لديهم فكشف القرآن الكريم ذلك الغموض وأزال إبهامه، وقد شهد العصر الأيوبي اهتماماً بالعلوم الفلكية كباقي العصور الإسلامية الأخرى[8]. ومن أبرز العلماء في هذا الشأن:

- مهذب الدين عبد الرحيم الدخوار، من علماء الشام المعروفين أجاد عدد من العلوم العقلية، واعتنى بعلم الفلك في الشام، ثم انتقل إلى مصر، وجمع العديد من الآلات الفلكية النحاسية التي ساعدته في دراسة هذا العلم، توفي سنة (628هـ/1230م)[9].
- جمال الدين محمد بن سالم بن واصل الحموي، برع بالعلوم الفلكية أيضاً، انتقل إلى مصر وتجلت براعته في مصر عندما قام بالتعاون مع العالم الرياضي علم الدين قيصر المتوفى سنة(649ه/1251م)، برسم خارطة الكواكب على كره من الخشب للملك تقي

([1]) ابن أبي اصيبعة: عيون الأنباء، 663-668.
([2]) الفارابي: إحصاء، 96 ؛ ابن خلدون: المقدمة، 523 ؛ خليفة: كشف الظنون، 2046/2.
([3]) عمر فروخ: تاريخ العلوم عند العرب، ط3، دار العلم للملايين، (بيروت، 1980)، 27.
([4]) الزبيدي: الرحلات العلمية، 138.
([5]) ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، 349/2 ؛ بدوي: الحياة العقلية، 280-281.
([6]) الخوارزمي: مفاتيح، 125 ؛ ابن خلدون: المقدمة، 525.
([7]) الباشا: الفنون الإسلامية، 826/2.
([8]) خليفة: كشف الظنون، 1930/2-1931 ؛ عاشور وآخرون: دراسات، 110.
([9]) ابن أبي اصيبعة: عيون الأنباء، 733 ؛ الكتبي: فوات الوفيات، 316/2.

الـدين عمـر، واختصـر كتـاب (المجسـطي) لبطليمـوس فـي الفلـك، تـوفي سـنة (697هـ/1297م)[1].

(1) السيوطي: بغية الوعاة، 108/1 ؛ بدوي: الحياة العقلية، 280-281 ؛ الزركلي ، الأعلام ، 210/5.

الفصل الرابع

الميدان العمراني

الفصل الرابع

الميدان العمراني

ظفرت مصر بما فيها من مجموعات معمارية واثأر فنية تمثلت فيها مختلف الحضارات المتعاقبة على حكمها عبر مختلف العصور الإسلامية من الفتح الإسلامي لها سنة 21هـ/641م، إلى سنة 1295هـ/1878م، وكان العصر الأيوبي أحد هذه العصور التي شهدتها مصر في مجال العمارة. وتشاهد هذه الآثار ممثلة لكافة الإغراض التي أنشأت من أجلها مابين مساجد ومدارس ومستشفيات وخوانق وأسبله وكتاتيب وقناطر لتوصيل المياه وقصور وحمامات ووكالات للتجارة وقيساريات وقلاع وأسوار[1].

وقد تأثرت مصر ببلاد الشام في كثير من المجالات العمرانية في العصر الأيوبي، فإذا ما تناولنا موضوع المنشآت والعمائر في بلاد الشام، فلا بد أن نشير إلى الاستحكامات الحربية التي كان المجتمع في أمس الحاجة أيها، فقد قضى قرابة قرنين من الزمان في حروب مستمرة. بل يمكن القول إن المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في القرنين السادس والسابع للهجرة، كان مجتمع عسكري في الدرجة الأولى يدور في فلكه ويعمل لانجاز متطلبات كل الطبقات غير العاملة في العسكر[2].

لقد ساد العالم الإسلامي في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، الكثير من الإعمال الإنشائية والعمرانية على أيدي بعض الشخصيات القوية، الذين يتمتعون بروح بناءة خلاقة، ومن هؤلاء نور الدين محمود بن زنكي في الشام[3]، فيذكر أبو شامة جملة ما أقدم على عمارته الملك نور الدين محمود من منشات وعمائر في بلاد الشام،" وأما مافعله نور الدين محمود في بلاد الشام من المصالح ... فكثير عظيم، من ذلك انه بنى أسوار مدن الشام جميعها وقلاعه، فمنها حلب، وحماة، وحمص ودمشق ...وغيرها من القلاع والحصون،وحصنها وأحكم بناءها... وبنى أيضا المدارس بحلب،وحماه،ودمشق وغيرها للشافعية والحنفية. وبنى الجوامع في جميع البلاد... وجدد في غيرها من عمارة الجوامع... وبنى البيمارستان في البلاد؛ ومن أعظمها البيمارستان الذي بناه بدمشق... وبنى ايضاً الخانات في الطرق، فأمن الناس وحفظت أموالهم... وبنى أيضاً الأبراج على الطرق بين المسلمين والفرنج... وبنى الربط والخانقاهات في جميع البلاد الصوفية، ووقف عليه الوقوف الكثيرة ... وبنى بدمشق أيضاً دار الحديث... وهو أول من بنى دار الحديث فيما علمنا. وبنى أيضاً في كثير من بلاده مكاتب للأيتام، واجرى عليهم وعلى معلميهم الجرايات الوافرة. وهذا فعل لم يسبقه إليه ..."[4]

إما في مصر فقد اهتم سلاطين وملوك الدولة الأيوبية بالناحية العمرانية والبناء فأنفقوا عليها الأموال وأوقفوا عليها الأوقاف، وكان اهتمامهم واضحاً في بناء القلاع والحصون وذلك لأهميتها العسكرية، وشيدوا الدور والقصور والمدارس والجوامع والأسواق والبيمارستانات والجسور والقناطر والقنوات، فضلاً عن الأنشطة العمرانية الأخرى [5]، وكان السلطان صلاح الدين قد أخذ في إصلاح أحوال مصر وعمارتها[6]، مما أدى إلى أتساعها وزيادة اعتبارها،

---

(1) كمال الدين سامح: العمارة الإسلامية في مصر، مطبعة مصر ، (القاهرة، د.ت)، 19.

(2) محمد: المجتمع الإسلامي، 162.

(3) سلام : الأدب في العصر الأيوبي، 54.

(4) الروضتين، 105/1- 107

(5) حسن: مصر في العصور الوسطى، 459، التكريتي: الأيوبيين، 397؛ البدري: بهاء الدين قراقوش،64.

(6) ابن تغري بردي: النجوم الزهراء، 7/6

وأباح سكنى القاهرة للخاص والعام[1]، واستمر الاهتمام بالعمارة بمصر من قبل خلفاء صلاح الدين، كالملك الكامل والصالح نجم الدين أيوب، حيث ظهرت في مصر في عهدهم انجازات معمارية وفنية تدل على مدى تشجيعهم لها، نظراً للإمكانيات المتوفرة في بلادهم، مما يعكس الإبعاد الحضارية والفنية التي عبرت عن المستوى الذي وصلت إليه الحضارة العربية من نضج ورقي[2].

ومما يلاحظ أن المنشات العمرانية الأيوبية كانت تخضع في بنائها للطابع الإفرنجي، بسبب اتصال المسلمين بالصليبيين، الذين عرفوا بإقامة المنشآت الحربية[3]. والذين عمدوا منذ بداية عهدهم بالاستقرار في الشام إلى تشييد القلاع الضخمة والأسوار المحصنة لتضم المحاربين وأسرهم وأتباعهم[4]. حيث عرفت الشام هذا الطراز من المنشات المعمارية بحكم وصول الحملات الصليبية الأولى إلى أراضيها فتأثرت بها، ثم انتقل هذا التأثير إلى مصر بعد قيام دولة الأيوبيين فيها.

وقد واصل التطور الفني تقدمه في العصر الأيوبي بمصر على الرغم مما أحاط بها من ظروف حربية وسياسية خطيرة[5]، حيث أشرق على القاهرة فجر جديد، من خلال العمائر الضخمة التي أنشأت فيها، لتغدو مركزاً اقتصادياً، بعد أن كانت مقراً لبلاط الخلفاء الفاطميين، وما يتعلق به من المواكب والرسوم والاحتفالات [6]. ومن ابرز المعالم والمنشأت العمرانية التي التي عرفتها مصر في العصر الأيوبي وجاءت بفعل تأثرها بالشام هي:

أولاً: القلاع:

شاع بناء الحصون والقلاع واستخدامها في بلاد الشام ومن ثم في مصر، أيام الحروب الصليبية[7]، فقد كان لدخول مصر طرفاً أساسياً في الصراع الإسلامي الصليبي أثره في إضفاء بعض السمات العسكرية عليها والمتمثلة بالتحصينات والقلاع[8]. حيث تغيرت إستراتيجية صلاح الدين بعد انتقاله من الشام إلى مصر حين وجد في الأخيرة نقاط ضعف فشرع في تحصين مدنها لصد الهجمات المحتملة عليها[9]، وقد خطرت فكرة بناء القلعة على ذهن صلاح الدين، لأنه رأى أمثالها على المرتفعات العالية في الشام تتحكم في المدن والأقاليم، فكانت القلاع بهذه الصورة في مأمن من العدوان[10]. وبذلك يكون بناء القلعة في مصر مقتبس من العمارة الشامية[11]، إلا أن تشييد القلاع الإسلامية كان أقل مستوى إذا ما قيس بالقلاع الصليبية[12].

---

(1) مبارك : الخطط التوفيقية، 69/1.

(2) المقريزي: السلوك، 341/1؛ ابن تغري بردي: النجوم الزهراء، 237/6؛ بيكر: الأيوبيون، 225/3؛ عباس: تاريخ بلاد الشام، 279؛ الصائغ: عصر الملك الكامل، 189.

(3) حسن: مصر في العصور الوسطى، 463.

(4) زكي محمد حسن: فنون الإسلام، دار الرائد العربي،(بيروت، 1981)،69.

(5) عاشور: الأيوبيون والمماليك، 167.

(6) الخربوطلي: مصر العربية، 341.

(7) نزار وصفي اللبدي: صورة فن الحرب في أدب الدولتين الزنكية والأيوبية في مصر والشام، أطروحة دكتوراه غير منشورة،(كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، 1992)، 80.

(8) كحيلة: العقد الثمين، 253؛ الخربوطلي: مصر العربية الإسلامية،337.

(9) الصلابي : صلاح الدين الأيوبي ،399.

(10) سيد الأهل : أيام صلاح الدين، 94-95؛ عبد الرحمن زكي: " امتداد القاهرة من عصر الفاطميين إلى عصر المماليك (969هـ- 1517م)"، أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة، دار الكتب، القاهرة،(1971)،625/2.

(11) فروا: النظم الإسلامية،230؛ الحسين: موسوعة الحضارة، 278.

(12) اللبدي: صورة فن الحرب، 82.

1. قلعة صلاح الدين (الجبل):

تعتبر قلعة صلاح الدين في مصر من أفخم القلاع الحربية الإسلامية التي شيدت في القرون الوسطى[1]، ومن ابرز ما خلفه الأيوبيين من منشآت معمارية، فقد كانت القلاع من أهم مظاهر القوة في ذلك العصر[2]. فقد فكر صلاح الدين في بناء قلعة حصينة، كما هو الحال في الشام، ليحتمي بها ويشرف من خلالها على القاهرة والفسطاط معاً[3].

وكانت بداية العمل بإنشاء القلعة في سنة 572ه/1176م[4]، وأقام على بنائها الامير بهاء الدين قراقوش الاسدي[5]، وبالقياس إلى أماكن القلاع بالشام اختار السلطان صلاح الدين أو مهندسوه مكاناً بارزاً من جبل المقطم متوسط الارتفاع مشرفاً على القاهرة القديمة بحيث يستطيع أن يحمي جناحيها من صحراء السويس وسهول حلوان والنيل[6].

بدأ قراقوش ببناء القلعة فقطع الخندق وحفر واديه وعمقه وضيق طريقه، وهدم ما هناك من مساجد، وأزال القبور وهدم الأهرام الصغيرة التي كانت في الجيزة واستخدم حجارتها في بناء القلعة، وحفر في رأس الجبل بئراً ينزل إليها بدرج نحو ثلاثمائة درجة[7].

وتتألف القلعة من مساحتين من الأرض مستقلتين، الشمالية تقترب من شكل المستطيل ولها أبراج بارزة، ويفصلها عن الجنوبية جدار سميك ذو أبراج، وفي وسط هذا الجدار باب القلعة الذي يعرف باسم الباب الجواني. ويشكل الجزء الشمالي من القلعة الحصن نفسه[8]، في حين كان الجزء الجنوبي يضم الملحقات والقصور السلطانية وما يتبعها من دواوين وبيت المال وخزانة السلطان الخاصة والمساجد والمدارس والأسواق والحمامات والاصطبلات[9]. ويحيط بهذه القلعة سور من الحجر له أبراج، ولها بابان: احدهما مواجه لمدينة القاهرة ويسمى الباب المدرج، ويطلق على الباب الثاني باب القرافة. وبين هذين البابين مكان متسع يوصل إلى دهاليز، على يسرة الداخل منها باب يصل إلى جامع فسيح الأرجاء مرتفع البناء مبلط بالرخام، وسقوفه مبطنة بصفائح الذهب، وفي وسطه قبة تليها مقصورة يصلي فيها السلطان الجمعة والعيدين، وتحف الأروقة بصحن الجامع من جميع جهاته. وبصدر هذه الدهاليز مصطبة على جانبها ممر يدخل منه إلى ساحة يواجه الداخل إليها باب الإيوان الكبير وهو مرتفع البناء، به أقنية متسعة وعمد ضخمة. وبصدر هذا الباب سرير الملك، وهو عبارة عن منبر مرتفع من الرخام، يجلس عليه السلطان في الأيام التي يستقبل فيها سفراء الملوك[10].

---

(1) زكي: قلعة صلاح الدين،31

(2) حسن: مصر في العصور الوسطى ، 459؛ العريني: الشرق الأدنى، 211/1؛
Stanley Lane-Poole: A history of Egypt in the middle ages , 4th .ed, Frank Cass , (London,1968), 109.

(3) جومار: وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل، ترجمة: ايمن فؤاد سيد، ط1، مكتبة الخانجي، (القاهرة،1988)،30.

(4) الذهبي: العبر، 61/3 ؛ السبكي: طبقات الشافعية،339/4؛ المقريزي: السلوك، 63/1؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، 241/4؛ الحجازي وآخرون: النجوم الزاهرة، 192؛ زكي: قلعة صلاح الدين، 33.

(5) سبط بن الجوزي: مرآة الزمان،504/8؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، 91/4؛ الصفدي: الوافي، 166/24؛ ابن كثير: البداية والنهاية، 31/13؛ المقريزي: الخطط، 115/3؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 176/6؛ السيوطي: حسن المحاضرة، 333/2؛ مبارك: الخطط التوفيقية، 69/1.

(6) الحجازي وآخرون: النجوم الزاهرة، 390؛ سيد الأهل: أيام صلاح الدين،95.

(7) البغدادي: الإفادة والاعتبار، 108؛ ابن واصل: مفرج الكروب، 53/2-54؛ أبو شامة: الروضتين، 293/2؛المقريزي: الخطط، 40/3-41.

(8) حسن: فنون الإسلام، 69؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك، 168.

(9) القلقشندي: صبح الأعشى، 370/3؛ المقريزي: الخطط،44/3؛ حسن: تاريخ الإسلام، 575/4.

(10) حسن: تاريخ الإسلام، 574/4- 575؛ الحسين: موسوعة الحضارة، 376- 377.

وقد أحيط بالقلعة سور بأبراج نصف دائرية. ويبدأ هذا السور في الجانب الشرقي لبرج المقطم ويمتد نحو الجنوب والشرق والشمال حتى ينعطف ويقف لدى المكان الذي يشغله الآن المتحف الحربي. وينسب إلى صلاح الدين أيضاً البابان الخلفيان والجزء الداخلي من باب القرافة وباب المدرج وكذلك حائط السور الذي يمتد جنوبيه بما في ذلك الجزء الخلفي من البرج النصف الدائري الكائن بين الباب الأخير والباب الأوسط[1].

وبذلك لم تكن القلعة مجرد بناء حربي لحماية القاهرة، بل كانت أيضا مسكناً للسلطان ومقراً للحكومة ودواوين الدولة[2]، وهذا ما ذكره ابن جبير عندما زار مصر سنة 578هـ/1181م. إن القلعة " حصين المنعة، يريد السلطان أن يتخذه موضع سكناه ويمد سوره حتى ينتظم بالمدينتين مصر والقاهرة ..."[3]. فوحد صلاح الدين بهذا البناء جميع الأحياء والمباني المبعثرة بالأطراف وضمها إلى مدينة القاهرة، لتتوسع المدينة وتتنسق هندستها[4]، لتكون شاهداً على عظمة عصر صلاح الدين، ودليلاً ملموساً على شخصيته الفذة، رغم أن صلاح الدين لم يسكنها لأنه توفي قبل إتمام بنائها[5].

وكان الملك الكامل صاحب الفضل في إتمام بناء القلعة في سنة 604هـ/1207م، وشيد فيها القصور، وأقام أبراجها الرئيسية ومنها البرج الأحمر، ثم اتخذها مقراً له ومقاماً للحكم[6]. وقد انشأ الملك الكامل الأبراج العظمى المربعة والمستديرة، وكان الطراز المعماري لهذه الأبراج هو على نفس طراز القلاع في دمشق، واختيرت مواضعها بحيث تكسر تماثل المسافات بين الأبراج نصف الدائرية التي أقامها صلاح الدين[7]. وقد استخدمت الحجارة في عمارة أسوار وأبراج القلعة ومداخلها في العصر الأيوبي[8].

والملك الكامل هو أول من سكن قلعة الجبل، حيث لم يسكنها أحد قبله من الأيوبيين وإنما كان سكناهم بدار الوزارة، ثم استمر السكنى للملوك بالقلعة طوال العصر الأيوبي والمملوكي[9]، والمملوكي[9]، وحتى عصور متأخرة[10].

2. قلعة الروضة (الجزيرة):

في سنة 638هـ/1240م، أمر الملك الصالح نجم الدين أيوب ببناء قلعة الجزيرة – المعروفة بالروضة – قبالة مصر الفسطاط[11]. وكانت هذه الجزيرة متنزهاً ملوكياً ومسكناً

---

(1) زكي: قلعة صلاح الدين، 41.

(2) عاشور: نظم الإدارة، 350/3.

(3) رحلة ابن جبير، 25.

(4) حسن: تاريخ الإسلام، 572/4-573.

(5) أبو شامة: الروضتين، 293/2؛ ابن واصل: مفرج الكروب، 54/2؛ المقريزي: الخطط، 41/3؛ جاستون فييت: القاهرة مدينة الفن والتجارة، ترجمة: مصطفى العبادي، مكتبة لبنان، (بيروت، 1968)، 76.

(6) ابن عبد الظاهر: الروضة البهية،131-132؛ أبو شامة: الروضتين، 293/2؛ ابن واصل: مفرج الكروب، 54/2؛ المقريزي: الخطط،42/3؛ الحجازي وآخرون: النجوم الزاهرة، 390؛ الاسكندري وآخرون: تاريخ مصر، 253؛ عاشور: الأيوبيين والمماليك، 51-52.

(7) ماكنزي: القاهرة الأيوبية، 112.

(8) زكي: قلعة صلاح الدين،33-35.

(9) ابن عبد الظاهر: الروضة البهية، 132؛ أبو شامة: الروضتين، 293/2؛ابن واصل: مفرج الكروب، 54/2؛ المقريزي: الخطط، 42/3؛ الحجازي وآخرون: النجوم الزاهرة،390.

(10) عاشور: الأيوبيين والمماليك، 52.

(11) سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، 737/8؛ الذهبي: تاريخ الإسلام،45/46؛ المقريزي: الخطط، 17/2؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 320/6؛ مبارك: الخطط التوفيقية، 75/1.

للناس قبل بناء القلعة[1]، وشرع في حفر أساسها وهدم الدور والقصور والمساجد، وهدم كنيسة لليعاقبة أيضاً، وتحول الناس من مساكنهم التي كانوا بها، فبنى فيها الدور السلطانية والأسوار وبني فيها ستين برجاً، وبنى بها جامعاً. وغرس بها جميع الأشجار ونقل إليها عمد الصوان وعمد الرخام، فانتقل إليها من قلعة الجبل وسكنها بأهله وحرمه[2]، واسكن بها مماليكه وسماهم البحرية[3]. وقد استغرق تشيدها ثلاثة أعوام[4]، فكانت هذه القلعة من اجل مباني الملوك[5]. كما كما كان الملك الصالح نجم الدين أيوب يشرف على بنائها وزخرفتها بنفسه حتى صارت تدهش الناظر من كثرة زخرفتها وحسن سقوفها المزينة وبديع رخامها[6].

وثمة قلاع أخرى بناها السلطان صلاح الدين في مختلف أنحاء البلاد، أهمها قلعة سيناء قرب عين صدر وتسمى قلعة الجندي وتقع شرق السويس على طريق آيلة وتتحكم في طريق الحج القديم[7]. كما يذكر المقريزي في أحداث سنة 577هـ/1181م، " أن السلطان أنتدب لعمارة قلعة تنيس وتحديد الآلات بها، عندما أشتد خوف أهل تنيس من الإقامة بها، فقدر لعمارة سورها القديم على أساساتها الباقية..."[8].

كما بنى بهاء الدين قراقوش قلعة المقس عندما بنى السور المحيط بالفسطاط والقاهرة، وهي برج كبير، وجعله على النيل بجانب جامع المقس[9] على الجهة الشرقية من الجامع[10]. كما بنى في القلعة أبراج أخرى لأغراض دفاعية[11].

ثانياً: الأسوار:

إن الفترة التي قضاها صلاح الدين في الشام – يوحد القوى الإسلامية ويحارب الصليبيين – أكسبته خبرة واسعة في مجال السياسة في تلك المرحلة. وذلك أن صلاح الدين شاهد في بلاد الشام عندئذ مدناً محصنة، وحصوناً مسورة، بأسوار عالية محكمة البناء، وما تلعبه هذه الحصون والاستحكامات في حماية المدن، فاخذ هذا النظام القوي ليطبقه بمصر من اجل حمايتها من أي هجمات من قبل الصليبيين[12]. ولتلعب هذه العمائر دوراً في نمو المدينة[13].

1. سور القاهرة:

---

(1) المقريزي: الخطط، 799/2.
(2) المقريزي: الخطط، 799/2، السلوك،30/1؛ ضيف: تاريخ الأدب العربي،32.
(3) عبد الرحمن بن حسن الجبرتي: تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، دار الجيل، (بيروت،د.ت)، 28/1.
(4) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة،320/6.
(5) المقريزي: السلوك،341/1.
(6) المقريزي: الخطط، 800/2.
(7) عاشور: مصر والشام، 146؛ طقوش: تاريخ الأيوبيين، 117.
(8) الخطط،508/1.
(9) جامع المقس: هو الجامع الذي أنشائه الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله على شاطئ النيل بالمقس. المقريزي: المقريزي: الخطط، 237/3.
(10) ابن عبد الظاهر: الروضة البهية،19؛ المقريزي: الخطط،97/2؛ مبارك: الخطط التوفيقية، 261/3–262.
(11) البدري: بهاء الدين قراقوش،68.
(12) عاشور: الأيوبيين والمماليك، 50-51.
(13) العريني: الشرق الأدنى، 210/1-211.

في نفس السنة التي بدأ بها بناء القلعة، أوعز السلطان صلاح الدين لبهاء الدين قراقوش ببناء سور عظيم[1] كان الهدف من بناء هذا السور هو حماية البلاد ولجمع المدن الأربعة وهي: الفسطاط التي أنشاها عمرو بن العاص، والعسكر التي أنشاها صالح بن علي العباسي[2]، والقطائع التي أنشاها احمد بن طولون، والقاهرة التي أنشاها جوهر الصقلي[3]، وقد تم استخدام الحجارة في بناء السور حيث انتفع من حجارة الأهرام الصغيرة التي هدمها في الجيزة[4]. وكان وكان هذا السور قد بني ثلاث مرات، الأولى وضعه جوهر الصقلي سنة 358هـ/968م، وكان بنائه من اللبن، والثانية وضعه أمير الجيوش بدر الجمالي في أيام الخليفة الفاطمي المستنصر (427- 487هـ/1035-1094م)، وجعل السور من اللبن أيضا، وجعل الأبواب من حجارة. إما الثالثة فكانت في عهد السلطان صلاح الدين وقد بناه الأمير بهاء الدين قراقوش من الحجارة هذه المرة[5]. وهنا يظهر التأثير الشامي حيث عرف صلاح الدين الأسوار والاستحكامات المبنية من الحجارة في الشام فنقل العمل بها إلى مصر.

وقد بلغ طول السور تسعة وعشرون ألف وثلاثمائة ذراع بالهاشمي[6]، حسبما تذكر المصادر التاريخية[7]، ومن ذلك مابين قلعة المقس على شاطئ النيل والبرج بالكوم الأحمر بساحل مصر عشرة آلاف وخمسمائة ذراع. ومن قلعة المقس إلى حائط القلعة بالجبل بمسجد سعد الدولة[8] ثمانية ألاف وثمانمائة واثنتان وتسعون ذراعاً. ومن جانب حائط القلعة من جهة مسجد سعد الدولة إلى البرج بالكوم الأحمر سبعة آلاف ومائتا ذراع. ودائر القلعة بحيال مسجد سعد الدولة ثلاثة آلاف ومائتان وعشر اذرع، وذلك طول قوسه في ابتدائه وأبراجه من النيل إلى النيل على التحقيق والتعديل...[9]، فيكون مجموع ما ذكر هنا تسعة وعشرون ألف وثمانمائة واثنتان ذراع، بالهاشمي، ويمكن أن يكون سبب هذا الاختلاف في الرقمين المذكورين لطول السور هو أن هذه المصادر قد دونت معلوماتها حول بناء السور لأول مرة فأعطت الرقم الأول، ثم كتبت الرقم الثاني بعد إدخال التعديلات والإضافات على السور.

---

(1) الأصفهاني: البرق الشامي،81/3؛ البنداري: سنا البرق،57؛ سبط بن الجوزي: مرآة الزمان،338/8؛ ابن عبد الظاهر: الروضة البهية ،19 ؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، 15/40؛ السبكي: طبقات الشافعية ، 339/4؛ ابن كثير: البداية والنهاية،31/13؛ المقريزي: الخطط، 237/3، السلوك، 63/1؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 78/6؛ الحنبلي: شفاء القلوب، 93.

(2) صالح بن علي عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم، تولى مصر من قبل الخليفة أبو العباس السفاح السفاح سنة 133هـ/750م، فكانت ولايته الأولى في سنة 136هـ/753م كانت ولايته الثانية.أبو عمر محمد بن يوسف الكندي: كتاب الولاة وكتاب القضاة،تحقيق:محمد حسن إسماعيل وآخرون،ط1،دار الكتب العلمية، (بيروت، 2003)،74، 77.

(3) سيد الأهل: أيام صلاح الدين، 95-96؛ العريني: الشرق الأدنى،211/1؛ شلبي: التاريخ الإسلامي، 164/5؛ حسن: تاريخ الإسلام، 573/4.

(4) ابن عبد الظاهر: الروضة البهية، 19؛ مبارك:الخطط التوفيقية، 69/1؛ زكي: قلعة صلاح الدين، 33-34.

(5) المقريزي: الخطط، 90/2، 97؛ ابن إياس: تاريخ مصر، 70/1؛ بيومي: قيام الدولة الأيوبية، 237.

(6) الذراع الهاشمي: ويقال له أيضاً ذراع العمل، وتبلغ 66.5سم كقيمة وسطى. هنتس: المكاييل والأوزان،89، 91.

(7) أبو شامة: الروضتين، 293/2؛ابن واصل: مفرج الكروب، 52/2؛ ابن عبد الظاهر: الروضة البهية، 20؛ ابن ابن إياس: تاريخ مصر، 70/1؛ الحجازي وآخرون: النجوم الزاهرة، 192.

(8) ولعله سعد الدولة الطواشي مملوك الأفضل أمير الجيوش، وزير الخليفة المستنصر الفاطمي.المقريزي: السلوك، 63/1.

(9) أبو شامة: الروضتين، 293/2؛ ابن واصل مفرج الكروب، 52/2-53؛ ابن عبد الظاهر: الروضة البهية،20. البهية،20.

لم يكن السور- كما يتبادر إلى الذهن- حائطاً يقام حول القاهرة غليظ البنيان ذا ارتفاع، وإنما أنشئت بها براج مستديرة ليرمي منها بالقذائف وتتخذ منافذ للمراقبة، ولاتزال منه باقية إلى اليوم تدل على عظمة بنائه وكثرة نفقاته[1]، والخبرة الفنية الكبيرة التي توحي من خلالها عظم الفكر العمراني والذوق الفني الرفيع[2].

2. أسوار أخرى:

في سنة 581هـ/1185م بنى المظفر تقي الدين عمر سور على مدينة الفسطاط بالحجر، عندما خرج إلى الإسكندرية لتفقد أحوالها[3]، كما أدار الملك الكامل على المنصورة سوراً مما يلي البحر، ووضع علية الآلات الحربية والستائر[4].

ثالثاً: المدارس:

تعتبر المدارس مما استحدث في الإسلام، إلا أنها لم تكن موجودة في زمن الصحابة ولاالتابعيين، وإنما ظهر العمل بها في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي. وأول من عرف ببناء مدرسة في الإسلام هم أهل نيسابور[5]، فبنيت بها المدرسة البيهقية، وبنى بها أيضا نصر بن سبكتكين مدرسة، وبنى بها أخوه السلطان محمود بن سبكتكين مدرسة، وبنى بها أيضاً المدرسة السعيدية، وبنى به أيضاً مدرسة رابعة[6]. إلا أن المدرسة بنظامها المتكامل لم تكن حادثاً ظهر بعد القرن الرابع الهجري، بل إنها مرت بمراحل قبل وصولها إلى هذا النظام المتكامل[7]. لذل يمكن القول أن المسجد كان أول مؤسسة علمية في الإسلام، ثم مر بمراحل خدمت التعليم والحضارة الإسلامية، إلى أن ظهرت المدارس التي أحدثت انقلاباً كبيراً وغيرت من أسلوب التعليم ونظامه[8].

أما أول مدرسة ظهرت بنظامها المتكامل، فكانت المدرسة النظامية ببغداد، لأنها أول مدرسة قرر بها المعاليم للفقراء، وهذه المدرسة منسوبة إلى الوزير نظام الملك أبي علي الحسن بن علي بن إسحاق بن العباس الطوسي، وزير ملك شاه بن ألب ارسلان بن داود بن ميكال بن سلجوق في مدينة بغداد أنشائها سنة 457هـ/1064م، وأتمها سنة 459هـ/1066م [9].

أما عن تاريخ نشأة المدارس في بلاد الشام،فيعود إلى أواخر القرن الرابع وبداية القرن الخامس الهجري /الحادي عشر الميلادي،عندما انشأ قاضي طرابلس وحاكمها، الحسن بن عمار، دار حكمة هي أشبه بمدرسة جامعة، على نحو دار الحكمة التي أنشأها الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله في مصر(386-411هـ/996-1020م) في حدود سنة 400هـ/1009م. وفي دمشق أسس شجاع الدولة، صادر بن عبد الله المدرسة الصادرية، على المذهب الحنفي في سنة 391هـ/1000م. من ذلك يتبين أن دمشق سبقت بغداد من حيث تأسيس المدارس، إلا أنها لم

---

(1) سيد الأهل: أيام صلاح الدين، 96.
(2) البدري: بهاء الدين قراقوش،69.
(3) المقريزي: السلوك، 90/1.
(4) المقريزي: الخطط ،643/1.
(5) نيسابور: مدينة عظيمة ببلاد فارس يقال لها ايرانشهر وهي مابين جيحون إلى القادسية ومن الري إلى نيسابور مائة وستون فرسخاً. الحموي: معجم البلدان، 331/5-332.
(6) المقريزي: الخطط، 436/3؛ السيوطي: حسن المحاضرة، 255/2.
(7) سلام: المدارس الإسلامية، 22.
(8)احمد: المدارس في بلاد الشام،23.
(9) المقريزي: الخطط، 436/3-437؛ السيوطي: حسن المحاضرة، 255/2.

تسبقها من حيث التنظيم الذي قرر فيها للفقهاء والمدرسين وللطلبة المعاليم[1]. أي بغداد سبقت مدارس نيسابور والشام من حيث النظام المتكامل الذي عرفته المدارس فيما بعد.

فالغاية من أنشاء المدارس كما يذكر ابن الحاج أن يأتيها غالباً من قصد العلم والاستغناء[2]، فليس كل من دخل الجامع أو المسجد يريد أن يتعلم بالضرورة، ولكن كل من دخل المدرسة يريد يتعلم بالضرورة[3].

ويبدو أن نور الدين محمود، هو الذي أحيا المشروع الذي بدأ به نظام الملك في أنشاء المدارس النظامية، واقتدى به لأنه كان رجلاً محباً للعلم، فأكثر من بناء المدارس أو ساهم في بنائها في بلاد الشام من دون تعصب لأي مذهب معين من المذاهب الأربعة[4].فشهدت الشام في تلك الفترة نهضة مدرسية كان لها انعكاساتها العلمية والفكرية لعامة المجتمع، ولعل التحديات التي تعرضت لها الأمة الإسلامية من قبل الغرب والمتمثلة بالحروب الصليبية ألقت على كاهل العلماء عبئ النهوض بالأمة من حال الوهن وإزالة الأفكار المريبة والهدامة التي طالت البنية الداخلية للمجتمع، فانفق للعلماء على بناء المدارس بسخاء في دمشق وحلب وغيرها[5]. أما عن المدارس في مصر قبل دخول الأيوبيين،فقد عرفت الإسكندرية نظام المدارس على غرار بلاد الشام، أما الفسطاط والقاهرة وبقية المدن المصرية فلم تعرف المدارس. ومن مدارس الإسكندرية، المدرسة التي أنشأها أبو بكر الطرطوشي[6]، في حدود سنة450هـ/1058م [7]. والمدرسة الحافظية (العوفية) التي أنشأها الوزير رضوان بن الولخشي[8] سنة 532هـ/ 1137م وجعل على رأسها الفقيه المالكي بن الطاهر بن عوف، وسميت بالمدرسة الحافظية نسبة للخليفة الفاطمي الحافظ (525-544هـ/ 1130-1149م)[9]. أما المدرسة الأخرى فهي المدرسة السلفية وأنشأها وزير الخليفة الظافر (544-549هـ/ 1149-1154م)، أبو الحسن علي بن سلار[10]. سنة544هـ/1149م، وجعل على رياستها الحافظ السلفي فسميت به[11]. لكن هذه المدارس كانت شديدة التخلف من حيث النظام المؤسسي والحيوية الثقافية مقارنة بمدارس بلاد الشام[12].

أما النقطة الهامة التي ظهرت في العصر الأيوبي فهي إن صلاح الدين أدخل نظاماً جديداً في مصر لم يكن معروفاً من قبل وهو نظام المدارس. على الرغم من وجود مدارس أخرى كدار الحكمة،الجامع الأزهر قبل مجيء الأيوبيين، ولكنهما أنشئتا لغرض خاص هو لإذاعة

---

(1) شميساني: مدارس دمشق، 13-15.

(2) أبو عبد الله محمد سعد بن الحاج :المدخل ، دار الفكر ، (بيروت ، د.ت) ، 102/2.

(3) بهجت: اثر الحضارة السلجوقية، 130/1.

(4) سلام: الأدب في العصر الأيوبي، 54؛ احمد: المدارس في بلاد الشام، 43.

(5) سلطان جبر سلطان: "جهود العلماء المسلمين في مؤسسات المجتمع المدني في عصر الحروب الصليبية"، الصليبية"، مجلة آداب الرافدين ، العدد (40)، كلية الآداب، جامعة الموصل، (2005)، 95.

(6) محمد بن الوليد بن خلف بن سليمان بن أيوب الفهري المعروف بالطرطوشي ومنها أصله، وهي من بلاد الأندلس محل ميلادهُ، وهو مالكي المذهب، توفي سنة(520هـ/1126م). ابن خلكان: وفيات الأعيان،262/4، 264.

(7) الصلابي: صلاح الدين الأيوبي، 297؛ سلام: المدارس الإسلامية،60-63.

(8) الوزير رضوان بن ولخشي أمير الجيوش وزير الحافظ ، ولي الوزارة سنة 523هـ/1137م، قتلوه السودان بتوجيه من الحافظ سنة (543هـ/1148م). ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة،281/5.

(9) سلام: المدارس الإسلامية، 63.

(10) الوزير العادل سيف الدين أبو الحسن علي بن إسحاق بن السلار، وزير الظافر،كردياً زرزارياً، تولى الوزارة سنة 543هـ/1148م، قتل سنة (548هـ/1153م). ابن خلكان: وفيات الأعيان، 416/3، 418.

(11) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 105/1؛ حمزة : الحركة الفكرية، 158؛ ضيف: تاريخ الأدب العربي ، 82-83.

(12) ماكنزي: القاهرة الأيوبية، 184.

المبادئ العقائدية الخاصة بالفاطميين بين الناس. وأما المدارس التي نشرها صلاح الدين فهي دور للعلم يدرس فيها الجميع الشريعة الإسلامية على المذاهب الأربعة.[1].

وبذلك يكون صلاح الدين قد حاكى سيده نور الدين محمود في الشام، من خلال إنشاء المدارس في مصر على النمط الذي قام في الشام[2]. وقد حذا خلفاء صلاح الدين وولاته والمقربون إليه حذوه ببناء المدارس وحبس الأوقاف عليها[3]. والى جانب هؤلاء العظماء كان الأمراء والأغنياء والتجار يتسابقون في بناء المدارس والوقوف عليها بما يضمن استمرارها وإقبال الطلاب عليها، وكثيرون منهم جعلوا بيوتهم مدارس، وجعلوا مافيها من كتب وما يتبعها من عقار وقفاً على طلاب العلم الدارسين فيها[4].

إن المدارس التي أنشئت بمصر في العصر الأيوبي كانت موزعة على بيئات ثلاث، وهي بيئة الإسكندرية وبيئة القاهرة، وبيئة قوص أو الصعيد[5]، بل ويبدو أنه لم يكن تخلو بلدة كبيرة في مصر من مدرسة[6]. وهذا ماتؤكده المصادر التاريخية التي تذكر أن "القاهرة هي أكثر عمارة واحتراماً وحشمة من الفسطاط لأنها أجل مدارس، وأضخم خانات، وأعظم دثارا، لسكنى الأمراء فيها، لأنها المخصوصة بالسلطة..."[7]. أما ابن جبير فيذكر في رحلته إلى الإسكندرية ومشاهدته لها: "ومن مناقب هذا البلد ومفاخره العائدة في الحقيقة إلى سلطانه (صلاح الدين): المدارس والمحارس (مأوى للدارسين والزهاد والمسافرين والفقراء) الموضوعة فيه لأهل الطلب والتعبد، يفدون من الأقطار النائية فيلقى كل واحد منهم مسكناً يأوي إليه ومدرساً يعلمه الفن الذي يريد تعلمه..."[8]

ومن الملاحظ إن المدارس التي قام ببنائها الأيوبيين في مصر كانت مفتحه أبوابها، وكان المدرسون موجودين بها، ويأتيها طلبة العلم من كل مكان[9]، فكانت هذه المدارس أشبه بالجامعات فهي معاهد للتعليم العالي، ولكل مدرسة مذهبها الذي تتبعه، وان كان بعضها يشمل أربع كليات للمذاهب الأربعة. ولم يقتصر التعليم فيها على العلوم الدينية فحسب، بل شمل العلوم العقلية والطبيعية كذلك[10]. ويشمل مخطط المدرسة طابقين من الغرف للطلبة والمدرسين يقومان حول قاعة مكشوفة وأبهاء من الأواوين الطويلة في وسط كل جانب من الجانبين وأحياناً يقتصر على إيوان واحد[11].

---

(1) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 206/7؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 54/6-55 ؛ بيومي: قيام الدولة الأيوبية،237-238 ؛ طقوش: تاريخ الأيوبيين، 212؛ بدوي: الحياة العقلية، 11.

(2) حمزة: الحركة الفكرية، 82؛ الباشا: الفنون الإسلامية، 1055/3؛ شلبي: التاريخ الإسلامي،179/5 ؛ عاشور: عاشور: مصر والشام، 119 ؛ احمد: المدارس في بلاد الشام، 43.

(3) حسن: مصر في العصور الوسطى،462؛ سلام: الأدب في العصر الأيوبي، 55؛عاشور: مصر والشام،120، والشام،120، الأيوبيون والمماليك،140؛ نوري: سياسة، 435؛ ضيف: تاريخ الأدب العربي، 81؛ الحسين: موسوعة الحضارة،372؛ طقوش: تاريخ الأيوبيين، 219.

(4) مصطفى السباعي:من روائع حضارتنا،ط1،دار السلام، (القاهرة،1998)،104.

(5) حمزة: الحركة الفكرية ،157.

(6) ضيف: تاريخ الأدب العربي،83.

(7) الحجازي وآخرون: النجوم الزاهرة، 27.

(8) رحلة ابن جبير،15.

(9) فرغلي: الحركة التاريخية، 70.

(10) سلام: الأدب في عصر صلاح الدين، 85؛ عاشور: مصر والشام، 120- 121، الأيوبيون والمماليك، 142، غنيم: الدولة الأيوبية، 138؛ شميساني: مدارس دمشق، 33.

(11) عباس: تاريخ بلاد الشام،288.

وكانت المدرسة بناء متجه إلى القبلة، وفي وسطه صحن كبير مربع، وفي كل جانب من جوانبه الأربعة إيوان تعلوه قبة تحتها محراب[1]، وكانت المدارس المصرية في الغالب تشمل على إيوانين متقابلين بينهما فناء ويرتبطان معاً بواسطة غرف متصلة[2].ويحيط بالصحن من جوانبه الأربعة أروقة طويلة مقنطرة السقف، كأنها أجنحة المسجد[3]، ومن المحتمل أن الإيوان القبلي كان يستعمل كمسجد إذا كانت المدرسة لمذهب واحد، فهو يستخدم كمسجد عندما يحين وقت الصلاة فقط، وكقاعة للدرس بين مواعيد الصلوات[4]. ويغلب على الظن أن مصر قد عرفت نظام المدارس ذات الايوانات الأربعة عن طريق الشام في عهد صلاح الدين[5].

وبذلك تكون المدارس ملحقة بالمساجد على غرار ما كان في الشام، وقد روعي فيها الطراز الذي قامت عليه مدارس الشام التي أنشاها نور الدين محمود، فكانت نقلة جديدة في عالم البناء[6]. وبعد ذلك تطور التصميم من الايونات الأربعة إلى الشكل المتقاطع المتعامد وهو نقطة هامة في شكل تخطيط المسجد بعد ذلك[7].

وسارت مصر بذلك في بناء المدارس على منوال المدارس ذات العمارة الشامية، واستقرت منذ دخول الأيوبيين وخلال العصر المملوكي، فأخرجوا أبدع ما يفاخر به الفن العربي، ومن مزايا المدرسة الأيوبية القوة والمتانة. وعلى مادة البناء الصلبة فيها من الحجر الناعم يمكن أن تظهر أبسط المواضيع الزخرفة في منتهى الأناقة ولكنها كانت كالمدارس الأندلسية تستند على قاعدة الإغراق في الزخرفة لإظهار ما فيها من سحر وجمال[8].

ومن المدارس التي ظهرت في مصر في العصر الأيوبي ذات الطراز المماثل لطراز المدارس في بلاد الشام هي:

- **المدرسة الناصرية الأولى (الصلاحية):** بناها السلطان صلاح الدين سنة 556هـ/1170م، بعد أن هدم سجناً كان يعرف بدار المعونة[9] بجوار جامع عمرو بن العاص وجعلها مدرسة للشافعية. كما عرفت المدرسة باسم زين التجار وهو أول من تولى التدريس بها[10].

---

(1) حسن: تاريخ الإسلام، 569/4؛ الخربوطي: مصر العربية الإسلامية،352.

(2) الباشا: الفنون الإسلامية ، 1069/3.

(3) لينبول: سيرة القاهرة ، ترجمة: حسن إبراهيم حسن وآخرون، ط2، مكتبة النهضة المصرية (القاهرة،1902)،171.

(4) لينبول: سيرة القاهرة،171؛ الباشا: الفنون الإسلامية،1069/3.

(5) رزق: خانقاوات الصوفية، 68/1.

(6) الباشا: الفنون الإسلامية، 1067/3؛ حسن: تاريخ الإسلام، 569/4؛
Claude Cahen: "Ayyubids", Encyclopedia of Islam, VOL I, (1960), 801,760,807.

(7) سامح: العمارة الإسلامية،74.

(8) حتى وآخرون: تاريخ العرب، 782/2 ؛ الحسين: موسوعة الحضارة،277.

(9) دار المعونة: أسمها مأخوذ من ظروف أنشائها، إذ أنها بنيت بمعونة المسلمين لينزلها ولاتهم، ثم جعلت داراً داراً للشرطة، ثم حولت في عهد العزيز بالله الفاطمي إلى سجن عرف باسم حبس المعونة، ثم حولها صلاح الدين إلى مدرسة للشافعية. الذهبي: تاريخ الإسلام،29/39؛ المقريزي: الخطط،811/2.

(10) ابن الأثير: الكامل، 366/11؛ البنداري: سنا البرق، 57؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان،283/8؛ أبو شامة: الروضتين، 117/2؛ ابن واصل: مفرج الكروب، 197/1؛ ابن دقماق: الانتصار،93/5؛ المقريزي: الخطط، 438/3؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 385/5؛ الهاشمي وآخرون: الحضارة العربية،155.

- **المدرسة القمحية:** بناها السلطان صلاح الدين سنة 566هـ/1170م، وكان موضعها يعرف بدار الغزل[1] فأقامها صلاح الدين مدرسة وأوقفها للمالكية، ووقف عليها الأوقاف[2].
- **المدرسة القطبية:** بناها الأمير قطب الدين خسرو بن بلبل بن شجاع الهدباني، أحد أمراء السلطان صلاح الدين في سنة570هـ/1174م، هذه المدرسة بالقاهرة في درب الحريري داخل حارة الفرن، وجعلها وقفاً للشافعية[3].
- **مدرسة بن الارسوفي:** بناها التاجر العسقلاني عفيف الدين ابو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الله بن هبه الله الارسوفي، سنة570هـ/1174م، وهذه المدرسة كانت بالبزازين التي تجاور خط النخالين بمصر، وجعلها وقفاً للشافعية[4].
- **المدرسة التقوية:** بناها الأمير تقي الدين عمر بن شاهنشاه ابن أخي صلاح الدين، لم يعرف على التحديد تاريخ بناء هذه المدرسة، إلا أن المصادر تذكر أن تقي الدين عمر اشترى منازل العز[5] بمصر بالقرب من باب القنطرة قبلى الفسطاط، في سنة 566هـ/1170م[6]، وقد أنشئت بعد وفاة العاضد، وخروج صلاح الدين إلى الشام في سنة 570هـ/1174م وقبل سفر تقي الدين إلى حماه وتملكه إياها سنة571هـ/1157م، وأوقفها للشافعية[7].
- **المدرسة الناصرية الثانية:** بناها السلطان صلاح الدين سنة572هـ/1176م، بجوار تربة الإمام الشافعي(ﷺ) بالقرافة بمصر، ووقف عليها وقوف كثيرة، ودرس فيها المذهب الشافعي[8]. وقد وصفها السيوطي بقوله: " وينبغي أن يقال لها تاج المدارس وهي أعظم مدارس الدنيا على الإطلاق..."[9]. أما وصف ابن جبير لها فيذكر، " مدرسة لم لم يعمر بهذه البلاد مثلها، لا أوسع مساحة ولا أحسن بناء، يخيل لمن يطوف عليها أنها بلد مستقل بذاته، بإزائها الحمام، إلى غير ذلك من مرافقها، والبناء فيها حتى الساعة، والنفقة عليها لاتحصى..."[10].

---

(1) دار الغزل: كانت قيسارية يباع فيها الغزل، وعرفت كذلك باسم المدرسة القمحية لأن القمح كان يوزع على على فقهائها من ضيعة بالفيوم، أوقفها صلاح الدين عليها. الذهبي: تاريخ الإسلام، 29/39؛ابن دقماق: الانتصار،95/5.

(2) البنداري: سنا البرق،57؛ أبو شامة: الروضتين،118/2؛ ابن واصل: مفرج الكروب،198/1؛ المقريزي: الخطط ،389/3، 439.

(3) ابن عبد الظاهر: الروضة البهية، 90؛ المقريزي: الخطط ،443/3؛ مبارك: الخطط التوفيقية، 200/3.

(4) المقريزي: الخطط، 440/3.

(5) منازل العز: من دور الخلفاء الفاطميين بنتها ام الخليفة العزيز بالله بن المعز وعرفت بمنازل العز، وكانت وكانت تشرف على النيل وصارت معدة لنزهة الخلفاء. المقريزي: الخطط، 440/3.

(6)ابن الأثير: الكامل، 366/11؛ البنداري: سنا البرق، 58؛ سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، 283/8؛ أبو شامة: الروضتين، 118/2؛ ابن دقماق: الانتصار،93/5؛ المقريزي: الخطط، 334/2.ابن كثير: البداية والنهاية،263/12.

(7) سلام: المدارس الإسلامية، 82-83.

(8) ابن الأثير: الكامل، 440/11-441؛ البنداري: سنا البرق،120؛ سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، 339/8؛ أبو شامة: الروضتين، 294/2؛ ابن واصل: مفرج الكروب، 54/2؛ المقريزي: الخطط، 115/3، 533، السلوك،63/1؛ الحنبلي: شفاء القلوب، 93.

(9) حسن المحاضرة، 257/2.

(10) رحلة ابن جبير، 22-23.

- **مدرسة المشهد الحسيني:** بناها السلطان صلاح الدين بجانب المشهد الحسيني بمصر، وجعل عليها وقفاً كثيراً، لم تحدد المصادر تاريخ إنشاء المدرسة، إلا أنها كانت وقفاً للشافعية[1].
- **المدرسة السيوفية:** بناها السلطان صلاح الدين سنة572هـ/1176م بالقاهرة بالقرب من باب الزهومة، وهي من جملة دار الوزير الفاطمي المأمون البطائحي[2]، وسميت بالمدرسة السيوفية لان سوق السيوفيين كان على بابها آنذاك، وهذه المدرسة هي أول مدرسة وقفت على الحنفية بمصر[3].
- **المدرسة الفاضلية:** بناها القاضي الفاضل سنة580هـ/1184م بالقاهرة بدرب ملوخية، وهذه المدرسة أول مدرسة تجمع بين مذهبين هما الشافعية والمالكية[4]، وقد بنيت بعد المدرسة الاسدية بستة عشر عاماً، وهي أول مدرسة لمذهبين في دمشق[5].
- **مدارس الفيوم:** وعددها خمسة مدارس، ثلاثة منها بنيت في العصر الأيوبي على يد السلطان صلاح الدين وتقي الدين عمر، لم يعرف بالتحديد تاريخ أنشاء هذه المدارس إلا أن المؤكد أن اثنان منها أوقفت للشافعية، وواحدة للمالكية[6].
- **المدرسة الازكشية:** بناها الأمير سيف الدين ايازكوج الاسدي مملوك أسد الدين شيركوه، واحد امراء السلطان صلاح الدين سنة592هـ/1196م، في القاهرة على راس السوق الذي كان يعرف بالحروقيين، وأوقفها للفقهاء الحنفية[7].
- المدرسة السيفية: كانت داراً من المدرسة القطبية، فأوقفها سيف الإسلام طغتكين بن أيوب بن شادي، اخو السلطان صلاح الدين، مدرسة سنة 593هـ/1197م في أيام وزارة صفي الدين بن شكر[8]، وهذه المدرسة بالقاهرة فيما بين خط البندقانيين وخط الملحيين وموضعها من جملة دار الديباج[9]. لم تذكر المصادر شيء عن تاريخ بنائها والمذهب الذي اختصت به[10].
- مدرسة أسوان: وهي من المدارس التي أستدل على وجودها من خلال ترجمة حياة القاضي أبي الطاهر إسماعيل بن محمد بن حسان الأسواني الشافعي المتوفي سنة(599هـ/1202م) الذي كان حاكماً بأسوان ومدرساً بمدرستها[11].

---

(1) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 207/7؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 55/6؛ الحنبلي: شفاء القلوب، 189؛ 189؛ السيوطي: حسن المحاضرة، 256/2.

(2) هو أبو عبد الله محمد بن الأمير نور الدولة أبي شجاع فاتك ألمستنصري. اتصل بخدمة الأفضل بن أمير الجيوش ، وتقلد عدة مناصب حتى توفي سنة (522هـ/1128م). المقريزي: الخطط، 283/2.

(3) المقريزي: الخطط، 390/3، 443-444؛ الحنبلي: شفاء القلوب، 189؛ ابن إياس: تاريخ مصر، 72/1؛ مبارك: مبارك: الخطط التوفيقية، 109/2؛ بدوي: الحياة العقلية، 45.

(4) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 162/3؛ ابن عبد الظاهر: الروضة البهية، 88؛ المقريزي: الخطط، 444/3-445؛ مبارك: الخطط التوفيقية، 238/2.

(5) النعيمي: الدارس، 152/1.

(6) فخر الدين عثمان بن إبراهيم النابلسي: تاريخ الفيوم وبلادها، دار الجيل، (بيروت، 1974)، 29،مبارك: الخطط التوفيقية، 432/3.

(7) ابن عبد الظاهر: الروضة البهية، 87؛ المقريزي: الخطط، 448/3؛مبارك: الخطط التوفيقية، 129/3.

(8) ابن عبد الظاهر: الروضة البهية،90؛ المقريزي: الخطط ،449/3.

(9) المقريزي: الخطط، 449/3.

(10) سلام: المدارس الإسلامية، 93.

(11) كمال الدين جعفر بن ثعلبين الادفوي: الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد، ط1، المطبعة الجمالية، (مصر،1904)، 85-86؛ السيوطي: حسن المحاضرة، 408/1.

- المدرسة الغزنوية: بناها الأمير حسام الدين قايماز ألنجمي مملوك نجم الدين أيوب والد صلاح الدين، وأقام بها الشيخ شهاب الدين أبو الفضل احمد بن يوسف بن محمد الغزنوي البغدادي المقرئ الحنفي المتوفى سنة(599هـ/1202م). ودرس بها فعرفت به[1].
- المدرسة الهكارية: بناها الأمير جمال الدين الهكاري في القاهرة بين القصرين، وقد أوقفها للفقهاء الشافعية[2].
- المدرسة العادلية (ابن شاس): بناها الملك العادل الأيوبي، في مصر. بخط الساحل، بجوار الربع العادلي، تولى التدريس فيها تقي الدين أبو علي الحسين بن عبد الرحيم بن عبد الله بن نجم بن شاس فعرفت باسمه فيما بعد، وأوقفها للشافعية[3].
- المدرسة الصاحبية: بناها الصاحب صفي الدين عبد الله بن شكر وزير الملك العادل، وكان موضعها من جملة دار الوزير الفاطمي يعقوب بن كلس ومن جملة دار الديباج، وقد أوقفها للفقهاء المالكية، وجعل فيها خزانة كتب[4].
- المدرسة القطبية: عرفت هذه المدرسة بالست عصمة الدين خاتون مؤنسة القطبية – المعروفة بدار إقبال العلائي- ابنه السلطان الملك العادل الأيوبي، وقد بنتها في حارة زويلة مما يلي في رحبة كوكاي، وقد بنتها وقفاً لأخيها قطب الدين احمد في سنة605هـ/1208م، للشافعية[5].
- المدرسة الشريفية: بناها الأمير الشريف فخر الدين أبو نصر إسماعيل بن حصن الدولة بن ثعلب، احد أمراء الدولة الأيوبية بمصر، في سنة 612هـ/1215-1216م، في القاهرة بدرب كركامه على راس حارة الجودرية، ووقفها للشافعية[6].
- المدرسة الفخرية: بناها الأمير فخر الدين أبو الفتح عثمان بن قزل البارومي، استادار الملك الكامل الأيوبي وأتمها سنة 622هـ/1225م، بالقاهرة فيما بين سويقة الصاحب ودرب العداس[7].
- المدرسة الصيرمية: بناها الأمير جمال الدين شويخ بن صيرم احد أمراء الدولة الكاملية والمتوفى سنة(636هـ/1238م)، وهذه المدرسة داخل الجملون الصغير، من رأس سويقة أمير الجيوش، فيما بينها وبين الجامع الحاكمي[8].
- المدرسة الصالحية: بناها الملك الصالح نجم الدين أيوب، في بداية سنة639هـ/1241م، وأتمها سنة641هـ/1243م في القاهرة بخط بين القصرين من جملة القصر الكبير الشرقي وهي أول مدرسة بمصر يعمل بها دروس للمذاهب الأربعة، فكان بالمدرسة أربعة أواوين لكل طائفة إيوان خاص بها[9]. ومن المصادر ما أطلقت عليها اسم

---

(1) المقريزي: الخطط،507/3.
(2) الصفدي: الوافي،197/13.
(3) المقريزي: الخطط ،442/3.
(4) ابن عبد الظاهر: الروضة البهية،89؛ المقريزي: الخطط،485/3؛ الهاشمي وآخرون: الحضارة العربية،155. العربية،155.
(5) المقريزي: الخطط، 509/3.
(6) المقريزي: الخطط، 463/3-464.
(7) ابن عبد الظاهر: الروضة البهية، 87؛ المقريزي: الخطط، 448/3.
(8) المقريزي: الخطط،475/3؛ مبارك: الخطط التوفيقية، 129/3، 210.
(9) ابن واصل: مفرج الكروب، 87/6؛ ابن عبد الظاهر: الروضة البهية، 85-86؛ المقريزي: الخطط،465/3، السلوك، 38/1؛ الباشا: الفنون الإسلامية، 1069/3؛ الهاشمي وآخرون: الحضارة العربية، 155.

المدرستين الصالحيتين[1]، وهذا الأمر يعود إلى أن هذه المنشاة كانت من الناحية المعمارية وحدة واحدة من الخارج فأطلق عليها أسم مدرسة، ولكن تصميمها الداخلي مقسم إلى قسمين أحدهما: الجانب الجنوبي وبه إيوانين أولهما للحنفية والأخر للحنابلة. وثانيهما: الجانب الشمالي وبه إيوانين أيضاً أولهما للمالكية والأخر للشافعية فجاز أن يطلق عليها أسم (مدرستين)[2].

ويضاف إلى هذه المدارس مدارس أخرى كانت عبارة عن بيوت فنقلها أصحابها إلى مدارس سواء في حياتهم أو بعد مماتهم حسب وصية يوصون بها[3].

رابعاً: دار الحديث الكاملية:

أنشاء الملك الكامل الأيوبي دار الحديث الكاملية في القاهرة سنة 622هـ/1225م[4]، وقد أشار المقريزي " أن موضعها كان داراً تعرف بابن كستول بسوق الوراقين بخط بين القصرين"[5]. وقد أشارت المصادر التاريخية أن دار الحديث الكاملية هي ثاني دار عملت لدراسة الحديث الشريف، فأن اول دار للحديث بناها الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي في دمشق[6]. وبذلك يكون بناء دار الحديث الكاملية في مصر من جملة مؤثرات الشام عليها.

بالرغم من أن بعض الدراسات الحديثة قد أشارت إلى بناء دارين للحديث في الثلث الأول من القرن الرابع الهجري وهما: (دار الحديث البسطامية) و(دار السنة الصبغية) وهما يسبقان(دار الحديث) بدمشق بأكثر من قرنين وثلث، كما يسبقان(دار الحديث الكاملية) بالقاهرة بنحو ثلاثة قرون[7].

أما عن الطراز العمراني لدار الحديث الكاملية فكان مشابهاً لطراز العمارة بالنسبة للمدرسة على مايبدو، إلا أنها اختصت بدراسة الحديث الشريف دون العلوم الأخرى فتميزت عن المدرسة من حيث التسمية والنظام التعليمي فيها. وكلف بناء هذه المدرسة مبالغ كبيرة، كما أوقف عليها الربع (السوق) التي أنشاها بجوارها على باب الحرنشف، الذي يمتد إلى الطريق لجامع الأزهر[8].

وتكونت دار الحديث الكاملية من أربعة ايوانات هي الإيوان الشرقي، والإيوان الشمالي الغربي، وإيوان القبلة، والإيوان الجنوبي الغربي[9]، ويذكر الدكتور احمد فكري أن مديرية الآثار العامة حاولت في سنة 1321هـ/1903م، الكشف عن شيء جديد من خلال البحث في أثار دار الحديث هذه، فتوصلت إلى وجود " جزء من قاعة مستطيلة... طولها عشرة أمتار ونصف

---

(1) سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، 737/8؛ الداوداري: كنز الدرر، 347/7؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، 45/46؛ الجبرتي: عجائب الآثار، 28/1.

(2) سلام: المدارس الإسلامية،122.

(3) للمزيد من المعلومات عن هذا النوع من المدارس ينظر: أطروحة دكتوراه المدارس الإسلامية في مصر في العصر الأيوبي لأيمن شاهين سلام.

(4) أبو شامة: الذيل ،214؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان،81/5؛ ابن عبد الظاهر: الروضة البهية،86؛ المقريزي: السلوك، 258/1؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة،258/6؛ النعيمي: الدارس،277/2.

(5) الخطط،467/3-468.

(6) المقريزي: الخطط،468/3؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة،229/6.

(7) ناجي معروف: "مدارس قبل النظامية"، مجلة المجمع العلمي العراقي، العدد(22)، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، (1973)،105.

(8) المقريزي: الخطط،468/3.

(9) سعاد ماهر: مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية،(القاهرة، 1976)،206/2.

المتر تقريباً وعرضها تسعة أمتار ونصف المتر، وهي مسقوفة بقبة مدببة مبنية بالأجر... تتكون من مداميك أفقية تعلوها مداميك رأسية وتبلغ فتحة القبة تسعة أمتار ونصف المتر تقريباً، ويبلغ ارتفاعها عند مستوى منبتها (انحناؤها) ستة أمتار تقريباً ... وجدران القاعة مبنية من الحجارة، وهي سميكة يقرب سمكها من المترين، إما سمك القبة فهو متدرج يبلغ عند المنبت فوق الجدار مترا، وينخفض عند القمة إلى نصف متر..."[1].

خامساً: الخوانق والربط والزوايا:

ومن الظواهر الحضارية التي ترتبت على انتشار حركة التصوف بمصر في العصر الأيوبي معمارياً بناء الخانقاوات[2]، وقد أخذتها من بلاد الشام التي عرفتها منذ سنة 400هـ/1009م [3].

وتعطي الخانقاه والرباط والزاوية معاً واحداً في الغالب فهي معاهداً أو مؤسسات دينية أسلامية لإيواء الزهاد والمتعبدين والمنقطعين للعلم من الرجال والنساء. فالخانقاه لفظة فارسية بمعنى البيت، واما الرباط والزاوية فلفظان عربيان[4]. كما إن الرباط والزاوية على علاقة لاتنفصم مع الخانقاه، لان التصوف قد مورس في كل من هذه الأبنية جميعاً، فجاء الرباط سابقاً على الخانقاه وجاءت الزاوية لاحقة عليه[5].

وقد أشار المقريزي أن الخانقاه "جعلت لتخلى الصوفية فيها لعبادة الله تعالى" [6] أما الرباط فهو " دار يسكنها أهل طريق الله"[7]، بعد أن كان الرباط أول الأمر يطلق على الثغر الذي يرابط فيه المجاهدون[8]. وقد أسترعى كثرة الزوايا في مصر نظر ابن بطوطة وأشار إلى أنها نفسها خوانق، حيث يذكر: "وأما الزاويا فكثيرة وهم يسمونها الخوانق واحدتها خانقاه... " [9].

دخل بناء الخوانق والزوايا إلى مصر في العصر الأيوبي على يد السلطان صلاح الدين[10]، الذي بنا الخانقاه الصلاحية، المعروفة بـ "سعيد السعداء" في سنة 569هـ/1173 [11]، في القاهرة بخط رحبة العيد، وأوقف عليها بستان الحبانية، وقيسارية الشرب بالقاهرة، وناحية دهمرو من البهنساوية[12]. كما بنا السلطان صلاح الدين زوايا وربط للصوفية والمتعبدين والعلماء الغرباء المسافرين، وكانت هذه الدور مزودة بكل ما يحتاجون إليه من خدمات[13]. وقد

---

(1) مساجد القاهرة ومدارسها في العصر الأيوبي، دار المعارف،(مصر، 1969)،2/56-57.
(2) المقريزي: الخطط، 3/571؛ بهجت: أثر الحضارة السلجوقية، 1/128-129.
(3) المقريزي: الخطط، 3/567؛ الحسين: موسوعة الحضارة،276؛ طقوش: تاريخ الأيوبيين،215.
(4) طقوش: تاريخ الأيوبيين، 214.
(5) رزق: خانقاوات الصوفية، 1/98.
(6) الخطط، 3/567.
(7) الخطط ،3/600.
(8) الهاشمي وآخرون: الحضارة العربية، 158.
(9) رحلة ابن بطوطة،37.
(10) القلقشندي: صبح الأعشى ، 3/368؛ السيوطي: حسن المحاضرة ، 2/260؛ حتي وآخرون: تاريخ العرب، 2/782؛ حمزة: الحركة الفكرية، 207.
(11) ابن عبد الظاهر: الروضة البهية، 49؛ المقريزي: الخطط، 3/570؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 6/55؛ الحنبلي: شفاء القلوب، 189؛ ابن إياس: تاريخ مصر، 1/72؛ بهجت: أثر الحضارة السلجوقية، 1/122-123.
(12) ابن عبد الظاهر: الروضة البهية،49-50؛ المقريزي: الخطط،3/570؛ مبارك: الخطط التوفيقية، 4/211.
(13) سلام: الأدب في العصر الأيوبي، 65.

شاع هذا النوع من بيوت العبادة حتى صار الأمراء في القاهرة في العصر الأيوبي ومن بعده المملوكي، يتسابقون على إقامة المزيد منها[1].

أما الخانقاه الصلاحية فكانت أشبه ماتكون بالمدرسة من حيث الشكل والوظيفة[2]، وتكونت الخانقاه من مدخل بسيط يؤدي إلى صحن كبير مكشوف تتعامد عليه أربعة ايوانات هي: إيوان القبلة، والإيوان الشرقي، والإيوان الجنوبي، والإيوان الغربي المقابل لإيوان القبلة أو إيوان المحراب[3]. أما في مجال الزخرفة المعمارية في الخانقاه، فقد جاءت مشتملة على كثير من مظاهر العظمة المعمارية والفنية التي تجلت في واجهتها الداخلية والخارجية وفي محاربيها وقبابها وأرضياتها وسقوفها، وفي كل ما اشتملت عليه من منابر وكتيبات وكراسي وغيرها، فزخرت هذه الأجزاء بشتى آيات النقش ممثلا في كافة عناصر الزخرفة النباتية والهندسية والكتابية التي عرفتها الفنون العربية الإسلامية بصفة عامة[4].

كما عرفت مصر في العصر الأيوبي عدد من الربط والزوايا، فقد أشار ابن خلكان أن بهاء الدين قراقوش أنشأ رباطاً بالمقس[5]. وأنشأ الوزير صفي الدين بن شكر رباطاً بالقرب من مدرسته الصاحبية التي ذكرناها في موضوع المدارس[6]. كما انشأ فخر الدين بن قزل، أستادار الملك الكامل، رباطاً في القرافة وبجواره كتاب للسبيل[7]. أما الزوايا فمنها زاوية القصري، التي التي أنشأها الشيخ أبي عبد الله محمد بن موسى عبد الله بن حسن ألقصري، بخط المقس خارج القاهرة فعرفت به[8]. وانشأ الوزير مجد الدين أبو الأشبال الحرث بن مهذب الدين أبي المحاسن مهلب بن حسن بن بركات، الزاوية المجدية عندما كان وزيراً للأشرف موسى بن العادل بن أيوب، وموقعها بصدر الجامع العتيق داخل المقصورة الوسطى بجوار المحراب الكبير[9]. وأنشأ وأنشأ الصالح نجم الدين أيوب زاوية الشيخ أبي الخير، بخط دار النحاس بحضرة بستان العالمة مطلة على النيل في الفسطاط[10]. وأنشأ الطواشي بلال الفراجي زاوية الخدام، التي تقع خارج باب النصر فيما بين شقة باب الفتوح من الحسينية وبين شقة الحسينية خارج باب النصر[11].

أما من الناحية العمرانية للأربطة فقد شبهها بعض الباحثين بالأديرة المحصنة عند المسيحيين[12]، إلا أن الرأي الراجح عند البعض الآخر من الباحثين أن مخطط الرباط ماهو إلا نظام معماري مقتبس من القصور الأموية في بلاد الشام[13]. فهي بذلك شأنها شأن بقية المنشآت المعمارية التي ذكرناها، ذات التأثير الشامي على مصر.

---

(1) حسين: دراسات في الشعر، 64-65؛ شاندور: صلاح الدين الأيوبي، 143.

(2) رزق: خانقاوات الصوفية ، 22/1.

(3) محمد عبد العزيز مرزوق: الفن الإسلامي في العصر الأيوبي، دار القلم، (القاهرة، 1963)،39؛ رزق: خانقاوات الصوفية، 153,155/1-156.

(4) رزق: خانقاوات الصوفية، 25/1-26.

(5) وفيات الأعيان، 91/4.

(6) المقريزي: الخطط ،605/2.

(7) المنذري : التكملة ، 43/6؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، 359/45؛ الصفدي: الوافي، 331/19؛ المقريزي: الخطط، 448/3.

(8) المقريزي: الخطط،620/3.

(9) مبارك: الخطط التوفيقية، 23/4.

(10) ابن دقماق: الانتصار،103/5.

(11) المقريزي: الخطط ، 614/3.

(12) مرزوق: الفن الإسلامي، 39.

(13) أنور الرفاعي: تاريخ الفن عند العرب والمسلمين ، ط2، دار الفكر، (دمشق،1977)،107.

سادساً: البيمارستانات:

أول من أنشاء المارستان في الإسلام الخليفة الوليد بن عبد الملك (86-96هـ/705-714م) في العصر الأموي في بلاد الشام سنة 88هـ/707م وجعل فيه الأطباء، وأجرى لهم الأرزاق، وهذا المارستان خاص بالمجذومين[1]، ثم تتابع إنشاء المشافي التي عرفت باسم البيمارستان أيضاً[2].

أما مصر فكان مارستان ابن طولون أول مارستاناً يبنى فيها، ولم يكن قبل ذلك بمصر مارستان، ثم تبعه في هذا الميدان من خلفه على ولاية مصر وخلفاء الفاطميين[3]. فبذلك تكون مصر قد عرفت المارستان قبل مجيء الأيوبيين إليها، إلا أن دور الأيوبيين ومن جاء معهم من الشام في مجال عمارة المارستان يتضح عندما استحدثوا مخططاً جديداً لعمارة المارستان في مصر[4]، والراجح أن البنائين وضعوا تصميم المارستان في مصر وتخطيطه على طراز المارستان الذي أنشأه نور الدين محمود في دمشق[5]. وقد شيد السلطان صلاح الدين مارستانات مارستانات ثلاثة بالقاهرة والفسطاط والإسكندرية على التوالي[6].

كان المارستان الناصري أو ألصلاحي في القاهرة أول مارستان بناه السلطان صلاح الدين، فبعد أن استولى السلطان صلاح الدين على قصر الفاطميين سنة 567هـ/1171م، وكان في القصر قاعة بناها الخليفة الفاطمي العزيز بالله سنة 384هـ/994م، فجعل السلطان صلاح الدين منها بيمارستاناً، وهو البيمارستان المشهور بالعتيق بالقصر[7].

ويذكر القلقشندي: " أن فيها طلسما لايدخلها نمل، وان ذلك هو السبب الموجب لجعلها بيمارستانا "[8]. وأوقف عليها السلطان صلاح الدين الوقوف العظيمة[9].

أما بالنسبة للمارستان الذي أنشاه بالفسطاط، فأن المصادر التاريخية لم تحدد مكانه بالضبط، فاكتفى المقريزي بذكر إشارة عن بناء هذا المارستان، فيذكر، "... وكذلك بمصر آمر (السلطان صلاح الدين) بفتح مارستانها القديم..."[10]. ويرى نيل دي ماكنزي انه ربما أراد المقريزي بذكر المارستان القديم بالفسطاط، أن يشير إلى مارستان كافور الإخشيدي[11].

وأنشأ السلطان صلاح الدين مارستاناً في الإسكندرية، عندما سار إليها سنة 577هـ/1181م، ليتفقد أحوالها ويسمع الحديث من مشايخها[12].

سابعاً: القباب:

---

(1) المقريزي: الخطط،545/3.
(2) السباعي: من روائع حضارتنا ،107.
(3) القلقشندي: صبح الأعشى ،347/3؛ المقريزي: الخطط، 545/3- 553.
(4) عباس: تاريخ بلاد الشام، 288.
(5) حتي وآخرون: تاريخ العرب،783/2؛ الحسين: موسوعة الحضارة، 277.
(6) ربيع: النظم المالية، 73.
(7) القلقشندي: صبح الأعشى ،369/3؛ المقريزي: الخطط،160/2؛ عيسى بك: تاريخ البيمارستانات، 76-77؛ مبارك: الخطط التوفيقية، 238/2.
(8) صبح الأعشى، 369/3.
(9) ابن الأثير: الكامل،441/11؛ سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، 339/8؛ أبو شامة: الروضتين، 294/2؛ ابن واصل: مفرج الكروب، 55/2؛ الحنبلي: شفاء القلوب،189.
(10) الخطط،160/2.
(11) القاهرة الأيوبية ،238.
(12) المقريزي: السلوك، 76/1.

رغم ما نص عليه الإسلام من منع إقامة عمائر الأضرحة، إلا أن هذه العمائر قد تمت وانتشرت، وأدت دوراً هاماً في مدينة القاهرة. فقد بدأت بالظهور عندما شرعت الطبقات الحاكمة في إعداد الأضرحة لأفرادها أو لأسرهم أو الرجال الصالحين، وتحت إشرافها مباشرة، وكانت تأصلت في بلاد الشام أولا في ظل حكم الأيوبيين لها، وانتقلت إلى القاهرة في أواخر العصر الأيوبي[1]. ومن أشهر قباب العصر الأيوبي في مصر قبة الإمام الشافعي، وقبة الصالح نجم الدين أيوب، وقبة برج الظفر وقبة الخلفاء العباسيين[2].

أما قبة الإمام الشافعي التي أنشاها الملك الكامل سنة 608هـ/1211م فتعد من أهم الآثار والمنشات العمرانية[3]. وتقع في شارع الإمام الشافعي، ويحوي ضريحاً للإمام، وفيه أربعة قبور، أولها قبره الذي كان له تابوت فاخر عمل في سنة 574هـ/1178م، وهذا التابوت المصنوع من خشب الساج الهندي غطاءه هرمي الشكل، عليه نقوش وكتابات بالخط الكوفي والنسخ وخط الثلث على مهاد من زخارف التوريق العربية داخل مناطق هندسية وزخارفه وحدات نباتية دقيقة داخل مناطق هندسية[4]، وكتب عليه آيات قرآنية، وترجمة حياة الشافعي بالخطين الكوفي والنسخ الأيوبي، ومنها نقش باسم النجار الذي صنعه، وهو عبيد النجار المعروف بابن المعالي[5].وقد ورد نص على منبر المسجد الأقصى فيه أسم نجار هو نفسه الذي ورد في التابوت وهو عبيد النجار المعروف بابن المعالي العسقلاني[6]. أما القبر الثاني فيضم تابوت أم الملك الكامل، الذي أنشأه سنة 608هـ/1212م من الخشب المزخرف[7]، ويتكون من أربعة جوانب قسم إلى حشوات مستطيلة ومربعة تحيطها أفاريز مشتقة من الكتابات الكوفية وشغلها وحدات هندسية مملوءة بزخارف التوريق على غرار زخارف التوابيت الأخرى[8]. أما التابوتان التابوتان الآخران فأحدهما للسيد محمد بن عبد الحكم[9] والآخر للملك الكامل[10].

وقد أستخدم الأيوبيين في عمارة مشهد الإمام الشافعي الحجارة، فقاموا بتنظيمها وصقلها[11]، وتألف الضريح من غرفة كبيرة مربعة فوقها قبة طويلة محززة[12]. أما القبة فكانت من الخشب ومكسوة بالرصاص وكسيت جدرانها الداخلية بالرخام وفي جدارها الشرقي ثلاثة محاريب أقوامها خشبية منقوشة ثم محراب رابع أحدث لتصويب القبلة، فكانت قبة الإمام الشافعي من أجمل القباب في مصر حيث نجد القبة مكونة من ثلاث حطات مخصوصة

---

(1) كريستل كسلر: " عمارة الأضرحة في داخل مدينة القاهرة " ، أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة، دار الكتب، القاهرة، (1971)، 867/2.

(2) سامح: العمارة الإسلامية،207.

(3) ابن خلكان: وفيات الأعيان ،81/5؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة،229/6؛ النعيمي: الدارس، 277/2؛ ابن ابن عماد الحنبلي: شذرات الذهب، 172/5؛ مبارك: الخطط التوفيقية، 74/1؛ سامح: العمارة الإسلامية،15.

(4) سامح: العمارة الإسلامية، 76.

(5) زكي: قلعة صلاح الدين، 132- 133؛ عاشور: الأيوبيين والمماليك، 170.

(6) حسن: فنون الإسلام، 462، 464؛ عبد العزيز حميد وآخرون: الفنون الزخرفية العربية الإسلامية، جامعة بغداد، (بغداد، 1982)، 38.

(7) ماهر: مساجد مصر، 157/2.

(8) حميد وآخرون: الفنون الزخرفية،39.

(9) محمد بن عبد الحكم: محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله ، احد أبناء المؤرخ الشهير ابن عبد الحكم، كان فقيهاً وكاتباً معروفاً، وخلف أباه في رئاسة المالكية بمصر. توري: مادة " ابن عبد الحكم "،دائرة المعارف الإسلامية، نقلها إلى العربية: محمد ثابت الفندي وآخرون،(1933م)، 221/1.

(10) ماهر: مساجد مصر، 157/2.

(11) حميد وآخرون: الفنون الزخرفية، 14.

(12) عباس: تاريخ بلاد الشام، 288.

مزخرفة، تتكون الحطة السفلية منها من خمسة مقرنصات[1] تعلوها سبعة في المنطقة الوسطى، وثلاثة في المنطقة العلوية، وفيها من الخارج قارب برونزي يعرف بالعشاري[2] كان يوضع فيه فيه الحبوب لأكل الطيور[3].

ومن القباب الأخرى التي عرفتها مصر في العصر الأيوبي، قبة الملك الصالح نجم الدين أيوب التي انشاتها زوجته عصمة الدين شجرة الدر، ونقلت إليها جثة الملك الصالح نجم الدين في سنة 648هـ/1250م[4]، وهذه القبة بالقاهرة ملاصقة للإيوان الغربي للمدرسة الصالحية[5]، وموضعها كان قاعة شيخ المالكية[6]. وتمتاز قبة الصالح نجم الدين أيوب بالبساطة من الداخل والخارج، وأهميتها ترجع إلى تطور المقرنص فيها وزيادة حطاته وتغييرها تغييراً كلياً عن القبة الفاطمية، وطرازها يشبه قبة الخلفاء العباسيين التي تظم رفات أفراد من الخلفاء العباسيين الذين توفوا بمصر في القرنين السابع والثامن الهجري[7].

ثامناً: عمائر أخرى:

أهتم الأيوبيين بإنشاء العمائر والمباني، ففي عهد السلطان صلاح الدين توسعت القاهرة بالمباني[8]، كما أهتم السلطان بعمارة الإسكندرية[9]. وسار أمراء وخلفاء السلطان صلاح الدين على سياسته في مجال الاهتمام بالعمارة وإنشاء المباني المختلفة التي تخدم المجتمع المصري، فهذا الأمير تقي الدين عمر يقيم الفنادق وشيد سوراً طويلاً بالحجر[10] وكثرة العمارة في القاهرة وضواحي القلعة في عهد الملك العادل[11]. وأنشأ الملك الكامل مدينة المنصورة سنة 616هـ/1219م[12]، وأقام فيها الدور والفنادق والحمامات والأسواق[13]، وسار الملك الصالح نجم الدين أيوب على خطى والده فأنشأ مدينة الصالحية، وأقام بها قصوراً وجامعاً وسوقاً[14]. كما انشأ الصالح نجم الدين الميدان السلطاني بأرض اللوق[15]، وأقام به المناظر الجليلة، ويقع هذا

---

(1) المقرنصات: حليات معمارية تشبه خلايا النحل تستعمل إما كوسيلة إنشائية أو زخرفيه. سامح:العمارة الإسلامية، 176.

(2) العشاري: مركب صغير مثبت في هلال القبة وتتدلى منه سلسلة حديدية وكان يستعمله الملوك وكبار رجال رجال الدولة، ويقال إن السلسلة قد أعدت ليتسلقها الإنسان لوضع الماء والحبوب للطيور. سامح: العمارة الإسلامية،208.

(3) سامح: العمارة الإسلامية، 76-77.

(4) المقريزي: الخطط،466/3؛ العيني: عقد الجمان،37/1؛ سامح: العمارة الإسلامية،208.

(5) المقريزي: الخطط،466/3؛ سامح: العمارة الإسلامية، 208.

(6) المقريزي: الخطط، 466/3.

(7) سامح: العمارة الإسلامية، 209.

(8) المقريزي: الخطط، 61/2.

(9) أبو شامة: الروضتين، 59/3.

(10) ابن دقماق: الانتصار، 40/5، 93؛ المقريزي: السلوك، 90/1-91.

(11) مبارك: الخطط التوفيقية،1/ 73-74.

(12) الحموي: معجم البلدان، 212/5.

(13) ابن واصل:مفرج الكروب، 33/4؛ ابن دقماق: الانتصار، 71/5؛ المقريزي: الخطط،643/1، السلوك، 201/1-202.

(14) المقريزي: الخطط، 518/1، السلوك،341/1-342.

(15) ارض اللوق: هي ارض معروفة بمصر وهي أرض لينة لاتحتاج إلى حراثة لينها بل تلاق لوقاً، وكان فيها بساتين ومزروعات. المقريزي: الخطط،635/2.

الميدان على النيل[1]. فكان من نتائج اهتمام الصالح نجم الدين أيوب بالعمارة أن انتشر العمران في عهده[2].

أهتم الأيوبيين سلاطين وأمراء ببناء المساجد وترميم القديم منها، فعلى الرغم من أن المصادر التاريخية لم تذكر أن السلطان صلاح الدين قد بنى مسجداً جديداً في أي مكان من دولته ومنها مصر، إلا أنها أشارت إلى اكتفائه بإصلاح وتحسين وتوسيع الموجود منها[3]، فكان فكان مسجد عمرو بن العاص على راس اهتماماته في هذا المجال، فأعاد بناء الصدر والمحراب الكبير وكساه بالرخام وزينه ونقش عليه أسمه والمناسبة التي دعت إلى هذا التجديد، وعمر المنظرة التي تحت المئذنة الكبيرة وجعل لها سقاية[4]. كم جدد السلطان صلاح الدين جامع الحاكم بأمر الله ووقف عليه الأوقاف[5].

وقام القاضي الفاضل بناء مسجد قرب مشهد الإمام الحسين(عليه السلام) بالقاهرة[6]، وجدد بهاء الدين قراقوش جامع قيدان خارج القاهرة[7]. وبنى الأمير فخر الدين جهاركس مسجداً كبيراً في القاهرة بأعلى القيسارية التي عمرها به[8].

وقام الملك الكامل بإدخال الزيادات وترميم الجامع المجاور لقبة الإمام الشافعي، حيث اهتم به ونصب له منبرا[9]. وفوض الصالح نجم الدين أيوب، عمارة المساجد المهجورة وترميمها بمصر لعز الدين بن عبد السلام[10]. وأهم مايميز عهد الصالح نجم الدين بوجه الخاص والعصر الأيوبي بوجه عام هو تطور المئذنة التي أخذت شكلاً خاصاً يعرف "بالمبخرة" [11]. وتعتبر مئذنة جامع الصالح نجم الدين النموذج الأصلي لمآذن العصر الأيوبي، وتتكون من قاعدة مربعة تنتهي بشرفة مثمنة محمولة على كوابيل خشبية ويعلوها طابق أخر مثمن الشكل واقل ارتفاعاً من السفلى، ويعلوا المنطقة المثمنة صفان من المقرنص وفي أعلى القمة توجد قبة لها استطالة راسية ومضلعة تعرف باسم " المبخرة " وهذا الشكل هو المميز لأغلب المآذن التي بنيت في العصر الأيوبي[12]. كما انشأ الأمير سعد الدين مسعود بن بدر الدين هنس بن عبد الله – وهو احد حجاب الصالح نجم الين أيوب – مسجداً في مصر[13].

أما عن المساجد في الإسكندرية فقد تميزت بكثرتها، وهذا أمر يعبر عن غلبة النزعة الدينية في الإسكندرية في عصر سيطرت فيه الرغبة في الجهاد والرباط ومقاومة الصليبيين[14]. وخير دليل على كثرة مساجد الإسكندرية ماذكره الرحالة ابن جبير في زيارة للإسكندرية فيذكر " وهو أكثر بلاد الله مساجد، حتى إن تقدير الناس لها يطفف، فمنهم المكثر والمقلل، فالمكثر

---

(1) مبارك: الخطط التوفيقية، 79/3، 224.

(2) المقريزي: الخطط، 17/2؛ مبارك: الخطط التوفيقية، 75/1-76.

(3) طقوش: تاريخ الأيوبيين، 215.

(4) ابن دقماق: الانتصار، 69/5؛ المقريزي: الخطط، 159/3؛ الحنبلي: شفاء القلوب، 189؛ السيوطي: حسن المحاضرة، 243/2؛ قراعه: مساجد ودول، 158-159؛ مبارك: الخطط التوفيقية، 19/4.

(5) السيوطي: حسن المحاضرة، 251/2.

(6) المقريزي: الخطط، 206/2.

(7) مبارك: الخطط التوفيقية، 64/2.

(8) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 381/1؛ المقريزي: الخطط ، 560/2-561؛ مبارك: الخطط التوفيقية،253/2.

(9) المقريزي: الخطط، 270/3؛ مبارك: الخطط التوفيقية، 151/4.

(10) السبكي: طبقات الشافعية، 101/5.

(11) سامح: العمارة الإسلامية، 72.

(12) سامح: العمارة الإسلامية، 190-191.

(13) المقريزي: الخطط، 676/2.

(14) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، ط1، مؤسسة شباب الجامعة، (الإسكندرية، 1982)، 256.

ينتهي في تقديره إلى أثنى عشر ألف مسجد، والمقلل مادون ذلك لاينضبط، فمنهم من يقول ثمانية ألاف ومنهم من يقول غير ذلك وبالجملة فهي كثيرة جداً تكون منها الأربعة والخمسة في موضع... وهذه منقبة كبيرة من مناقب السلطان(صلاح الدين). إلى غير ذلك مما يطول ذكره من المآثر التي يضيق عنها الحصر " [1].

لقد كان ماقد تم تشيده من مساجد في العصر الأيوبي قليل للغاية، حيث إن التركيز كان منصب على أعادة تصحيح العقيدة وتجديد وإعادة بناء المساجد التي كانت قد أقيمت في العصر الفاطمي وما قبله [2].

كما أهتم الأيوبيين ببناء القيساريات[3] بمصر، فقد أقام السلطان صلاح الدين قيسارية عظيمة عندما بنى القلعة[4]. وهناك قيسارية الشرب في القاهرة التي أوقفها السلطان صلاح الدين على صوفية خانقاه سعيد السعداء[5]. بالإضافة إلى قيسارية ابن قريش وهو القاضي المرتضى صفي الدين أبو المجد عبد الرحمن بن علي بن عبد العزيز بن علي بن قريش أحد كتاب الإنشاء في أيام السلطان صلاح الدين، أستشهد سنة (586هـ/1180م)، وتقع هذه القيسارية في صدر سوق الجملون الكبير بجوار باب سوق الوراقين[6]. كما أنشأ القاضي الفاضل قيسارية قيسارية بمصر عرفت باسمه[7]. أما قيسارية جهاركس التي بناها الأمير فخر الدين جهاركس الذي عرف عنه الاهتمام بالأمور الاقتصادية التجارية[8]، فتعد قيساريته التي بناها بالقاهرة سنة 592هـ/1195م من كبرى القيساريات وأهمها[9]. فيذكر ابن خلكان عن أهمية هذه القيسارية " رأيت جماعة من التجار الذين طافوا البلاد يقولون: لم نر[ى] في شيء من البلاد مثلها في حسنها وعظمها وإحكام بنائها " [10].

واهتم الأيوبيين بإنشاء الجسور، لأنها تتحكم في مجرى النيل، فكانت مصر تحتاج إلى هذه الجسور للمحافظة على البلاد من الفيضان أولاً، ولتصريف مياه النيل ثانياً[11]، ولحماية البلاد من هجمات الأعداء من الخارج ثالثاً [12].

وعرفت مصر في العصر الأيوبي نوعين من الجسور هما:الجسور السلطانية[1]، والجسور البلدية[2]. وقد انشأ السلطان صلاح الدين جسر الجيزة لحماية البلاد من الغزوات

---

(1) رحلة ابن جبير، 17.

(2) ماكنزي: القاهرة الأيوبية،216.

(3) القيساريات،مفردها قيسارية: وهي لفظة يونانية معربة أطلقت على سوق مغلق بأروقة تحيط بصحن مكشوف، يضم عدداً كبيراً من الدكاكين والمشاغل وأماكن إقامة المسافرين و وهو مخصص للتجار الغرباء، يضعون بضائعهم في أعلاه. الحجازي وآخرون: النجوم الزاهرة،27؛ الحسين: موسوعة الحضارة،277.

(4) الحجازي وآخرون: النجوم الزاهرة،27.

(5) المقريزي: الخطط، 558/2؛ مبارك: الخطط التوفيقية،252/2.

(6) المقريزي: الخطط، 558/2.

(7) المقريزي: الخطط، 564/2.

(8) محمد مؤنس عوض: صلاح الدين الأيوبي بين التاريخ والأسطورة، ط1،عين للدراسات والبحوث،(الجيزة،2008)، 245.

(9) ابن عبد الظاهر: الروضة البهية،23-24؛ الداوداري: كنز الدرر، 131/7؛ المقريزي: الخطط، 560/2-561. 561.

(10) وفيات الأعيان، 381/1؛ وينظر المقريزي: الخطط،561/2؛ النعيمي: الدارس، 496/1.

(11) غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري: كتاب زبدة كشف عن مماليك وبيان الطرق والمسالك، اعتنى بتصحيحه: بولس راويس ، المطبعة الجمهورية، (باريس، 1894)، 129.

(12) ابن جبير: رحلة ابن جبير، 27؛ حسن: تاريخ الإسلام، 578/4.

القادمة من المغرب[3]. وكان الملك الكامل من أشد سلاطين الأيوبيين وأكثرهم اهتماماً بإنشاء الجسور[4]، فقد أمر فخر الدين عثمان بن إبراهيم النابلسي بالإقامة في الجيزة لحفظ الجسور بالإضافة إلى تعيينه ثلاثة أو أربعة أمراء لمساعدة المسؤول عن أقامة الجسور[5]. كما شارك مع الأمراء والجند بحفر قناة بين المقياس وبر مصر، في سنة 628هـ/1230م حيث وصلت هذه القناة بين الفسطاط وجزيرة الروضة لمساعدة الناس على نقل المياه ومقاومة جفاف نهر النيل[6]. كما أنشأ الصالح نجم الدين أيوب جسراً بين مصر والروضة، وجعل عرضه ثلاث قصبات[7].

كما عرفت مصر القناطر منذ القدم واهتم بها الأيوبيين، فيذكر المقريزي عن أهمية هذه القناطر قائلاً: "حتى إن الماء ليجري تحت منازلها وأفنيتها فيجسونه كيف شاءوا ويرسلونه كيف شاءوا" [8] والدليل على ذلك قوله تعالى عما حكى عن قول فرعون: چ چ چ چ چ چ چ چ چ چ چ چ چ چ چ چ چ[9].

اهتم السلطان صلاح الدين ببناء القناطر بغربي مصر وهي قناطر الجيزة، وقد تم بنائها مع بناء السور والقلعة واستخدم بهاء الدين قراقوش حجارة الأهرام الصغيرة وتعد هذه القناطر من الأبنية العجيبة ويقرب عددها من الأربعين قنطرة[10]. كما بنى الأمير عز الدين موسك وهو احد أقارب السلطان صلاح الدين، قنطرة عرفت باسمه على الخليج الكبير" يتوصل إليها من باب الخوخة وباب القنطرة ويمر فوقها إلى بر الخليج الغربي"[11]. وانشأ الملك الصالح نجم الدين أيوب قنطرة عرفت بقنطرة باب الخرق على الخليج الكبير، وكان سبب بناء هذه القنطرة هو عمل الميدان الذي أتخذه للتدريب والتمرين والأعمال الحربية بأرض اللوق[12].

واهتم الأيوبيين ببناء الحمامات المتقنة الصنع،والتي امتازت بأرضها المكسوة بالرخام الجميل والأحواض الواسعة التي يجري فيها الماء الساخن والبارد[13]. ومن أهم هذه الحمامات حمام سعيد السعداء الذي أنشأه السلطان صلاح الدين لصوفية الخانقاه[14]، والحمام الذي بناه زين الدين أبو الحسن علي بن نجا الواعظ الدمشقي بالقاهرة خارج باب زويلة[15]. وهناك حمام المصبغة أو القفاصين الذي أقامه نجم الدين يوسف بن المجاور وزير الملك العزيز عثمان بن

---

(1) الجسور السلطانية: وهي الجسور العامة التي يتولى أقامتها في كل سنة الديوان السلطاني، للحفاظ على البلاد كافة من خطر الفيضانات. ابن مماتي: قوانين الدواوين، 232؛ القلقشندي: صبح الأعشى،444/3.

(2) الجسور البلدية: هي الجسور الخاصة ببلد دون بلد، ويتولى أقامتها الفلاحون والمقطعون بالبلاد: من الأمراء والأجناد وغيرهم، من أموال البلاد الجارية في إقطاعهم؛ ولها ضرائب مقررة في كل سنة. ابن مماتي: قوانين الدواوين، 232؛ القلقشندي: صبح الأعشى، 445/3.

(3) حسن: تاريخ الإسلام، 578/4.

(4) الصائغ: عصر الملك الكامل، 200.

(5) النابلسي: لمع القوانين، 39-40 نقلاً عن الصائغ:عصر الملك الكامل،200.

(6) المقريزي: السلوك، 241/1.

(7) المقريزي: الخطط، 800/2-801، السلوك، 341/1.

(8) المقريزي: الخطط، 203/1.

(9) الزخرف، آية 51.

(10) البغدادي: الإفادة والاعتبار، 108؛ ابن دقماق: الانتصار، 126/5-127؛ ابن جبير: رحلة ابن جبير، 27؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، 312/42؛ المقريزي: الخطط، 722/2؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 177/6؛ مبارك: الخطط التوفيقية، 69/1-70.

(11) المقريزي: الخطط، 710/2.

(12) المقريزي: الخطط، 710/2، السلوك، 305/1؛ مبارك: الخطط التوفيقية، 76/1-77 ، 79/3.

(13) غنيم: الدولة الأيوبية، 140.

(14) ابن جبير: رحلة ابن جبير، 15؛ المقريزي: الخطط، 554/2؛ مبارك: الخطط التوفيقية، 218/2.

(15) أبو شامة: الروضتين، 50/3.

صلاح الدين[1]. وقد امتازت هذه الحمامات بجمالها مما دفع عبد اللطيف البغدادي الذي زار القاهرة في العصر الأيوبي إلى القول: " فلم أشاهد في البلاد أتقن منها وضعاً ولا أتم حكمة ولا أحسن منظراً ومخبراً " [2].

من ذلك يتضح لنا أن عجلة الفن لم تتوقف في العصر الأيوبي في مصر وبلاد الشام،وان صليل السيوف في ذلك العصر لم يوقف تيار التقدم الحضاري .ففي الوقت الذي كان الأيوبيين يخوضون أضخم معركة للجهاد دخلها المسلمون منذ قيام دولتهم الكبرى في القرن السابع الميلاد، إذا بالمدارس تفتح، والمكتبات تنشأ والحصون والقلاع تبنى، والصناعات والحرف والفنون تواصل تقدمها في أقامة أعظم بناء حضاري شهدته العصور الوسطى، وهو بناء الحضارة الإسلامية [3] .

(1) مبارك: الخطط التوفيقية، 254/2.
(2) الإفادة والاعتبار ،141-142.
(3) عاشور: مصر والشام، 150.

الملاحق

صورة لقلعة صلاح الدين نقلاً عن :www.arabspc.net

قلعة صلاح الدين(الواجهة) نقلاً عن :http://100fm6.com/vb/showthread.php?t=70268

المدرسة الناصرية(الصلاحية) نقلاً عن :www.inazhar.com

مدرسة ومسجد الصالح نجم الدين أيوب نقلاً عن :
http://www.egyptsons.com/misr/showthread.php?t=75374&page=1

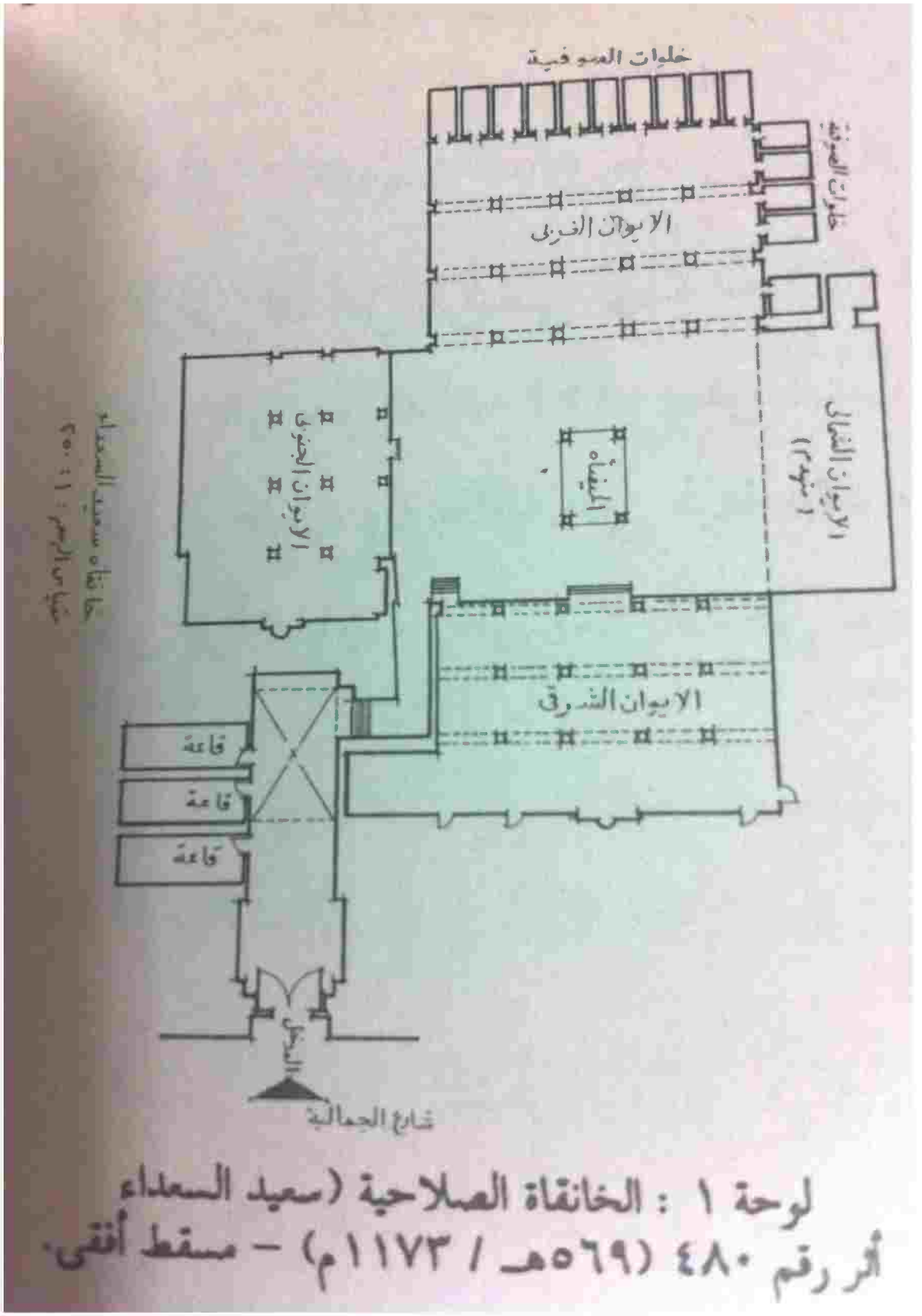

خارطة الخانقاه الصلاحية (سعيد السعداء): نقلاً عن عاصم محمد رزق: خانقاوات الصوفية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي، 153.

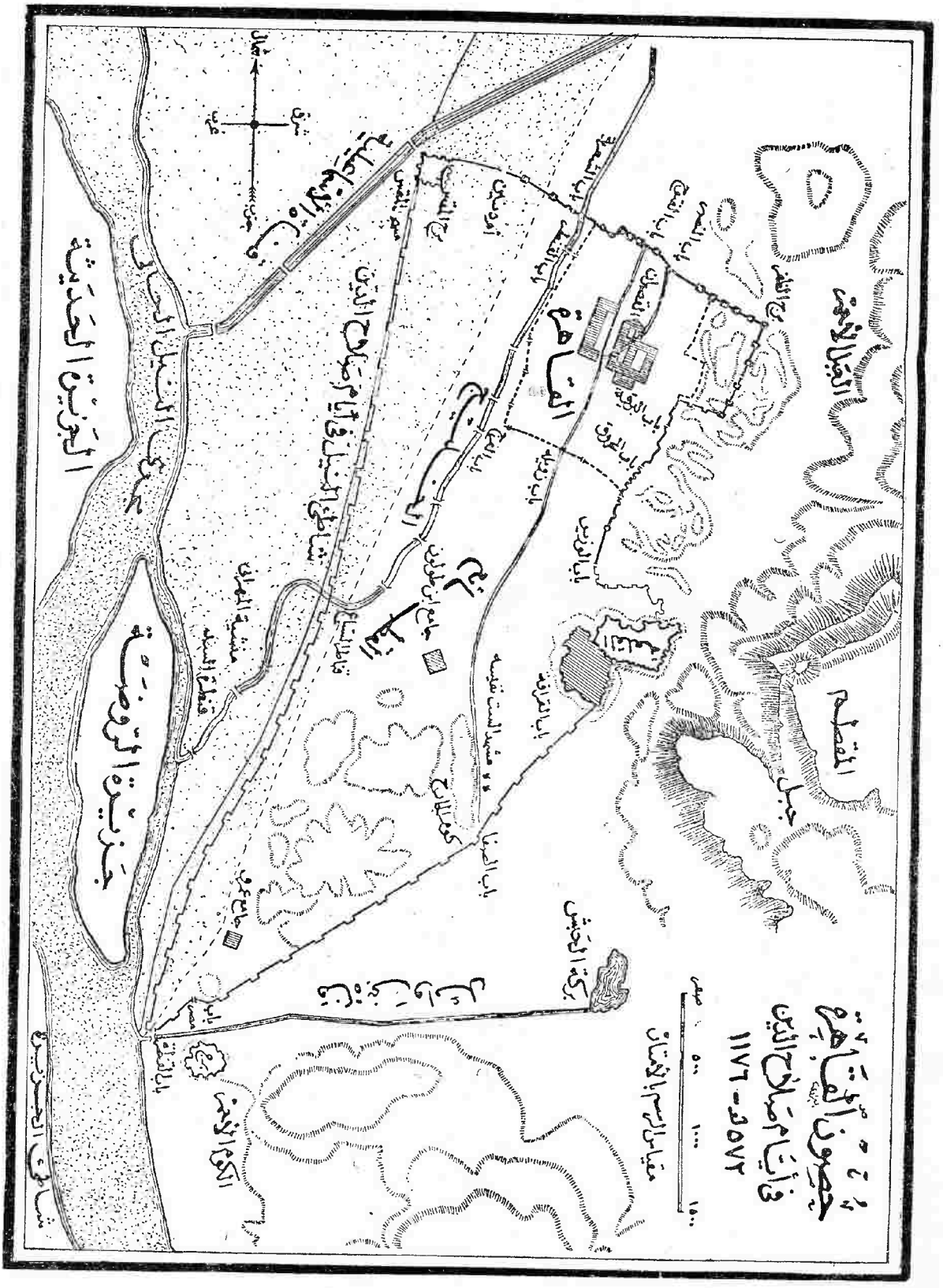

خارطة سور القاهرة: نقلا عن عبد الرحمن زكي: قلعة صلاح الدين الأيوبي وما حولها من الآثار.

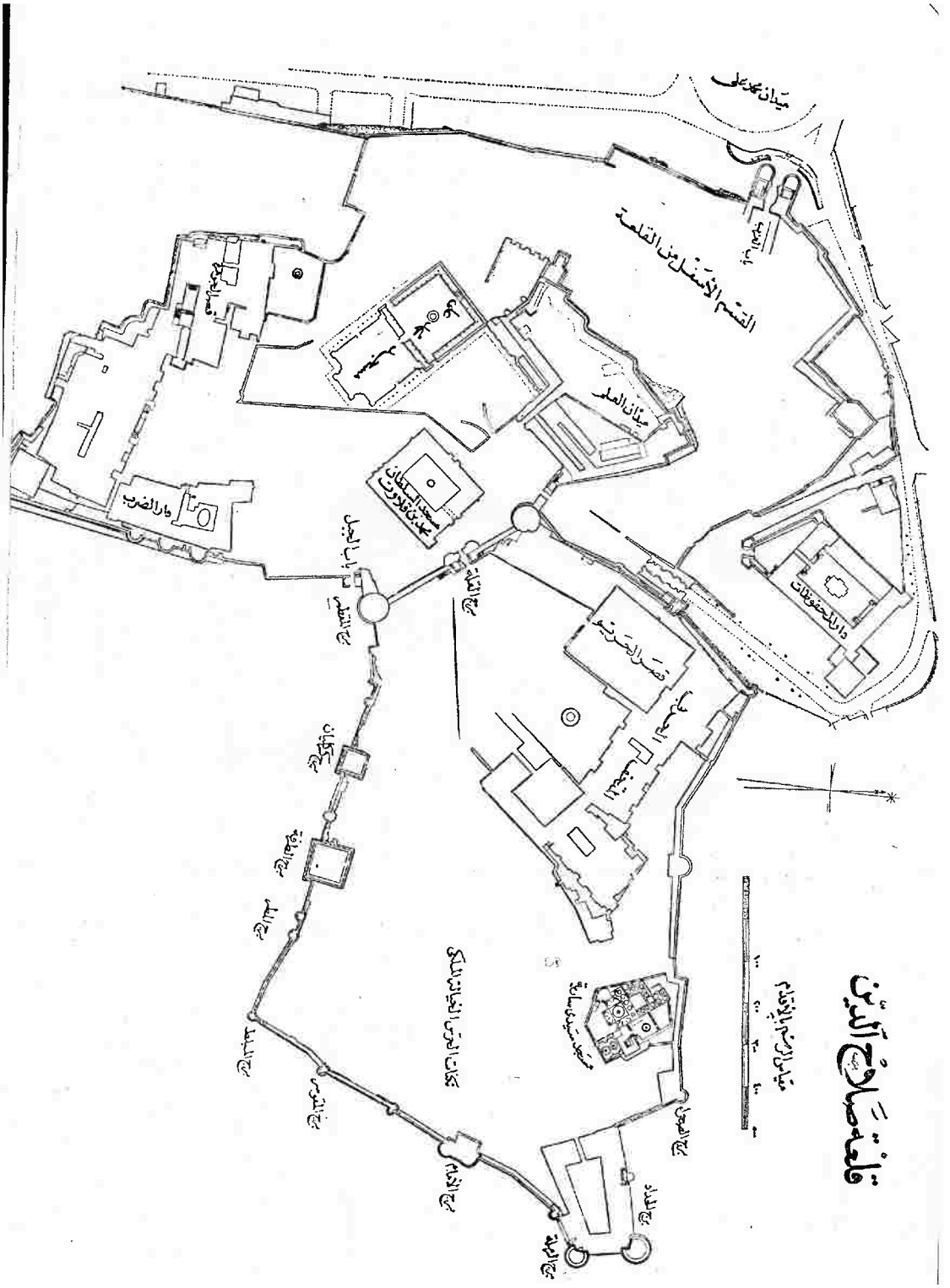

خارطة قلعة صلاح الدين : نقلاً عن عبد الرحمن زكي: قلعة صلاح الدين الأيوبي وما حولها من الآثار.

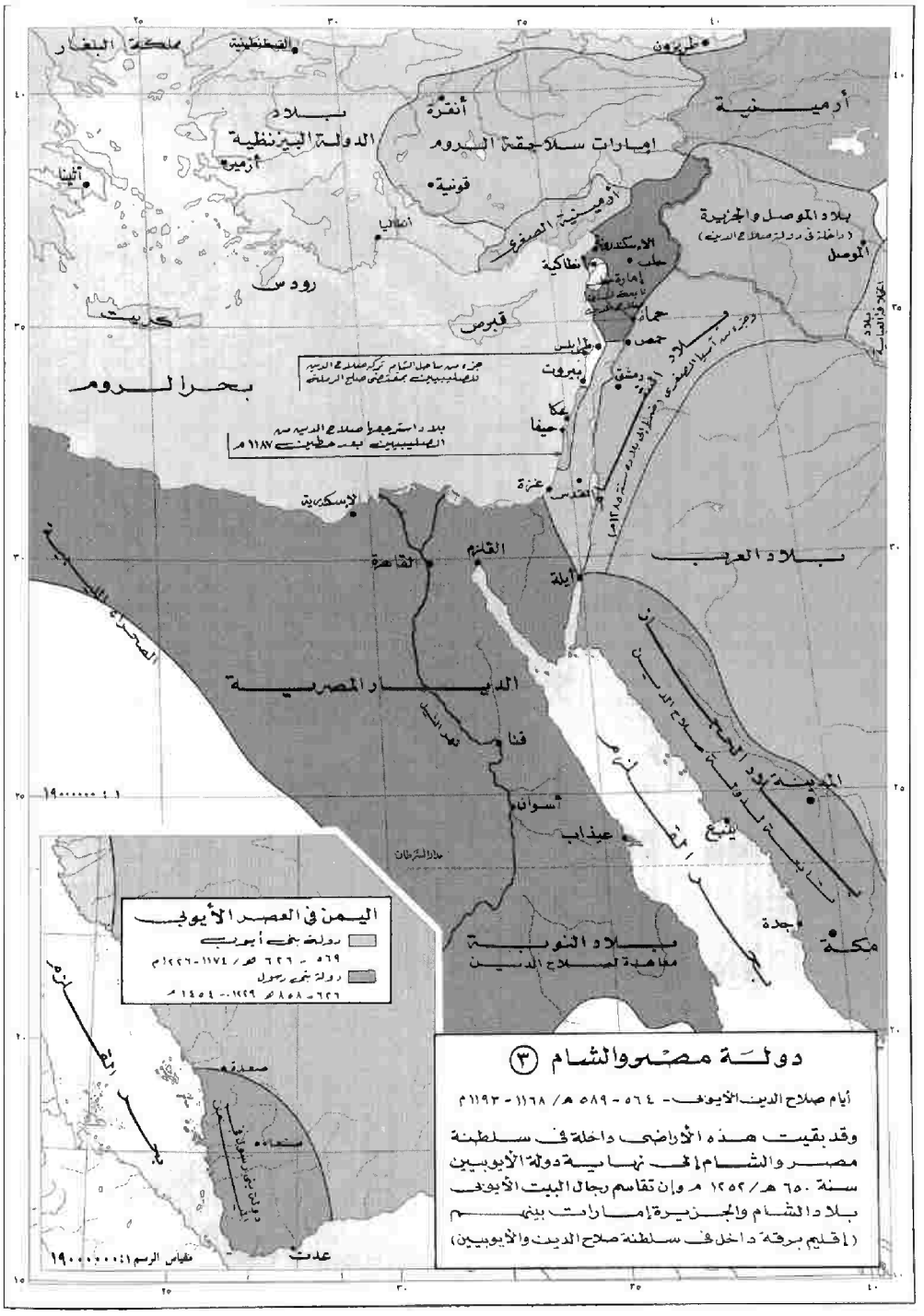

خارطة مصر وبلاد الشام في العصر الأيوبي: نقلاً عن حسين مؤنس: أطلس التاريخ الإسلامي، الزهراء للأعلام العربي، ط1، (القاهرة، 1987م)، 304.

دار الحديث الكاملية نقلاً عن:

http://www.inazhar.com/ar/?author=6&paged=17

سور القاهرة نقلا عن : www.Kidwor dmag.com.1

سور القاهرة نقلا عن :www.Kidwor 1 dmag.com

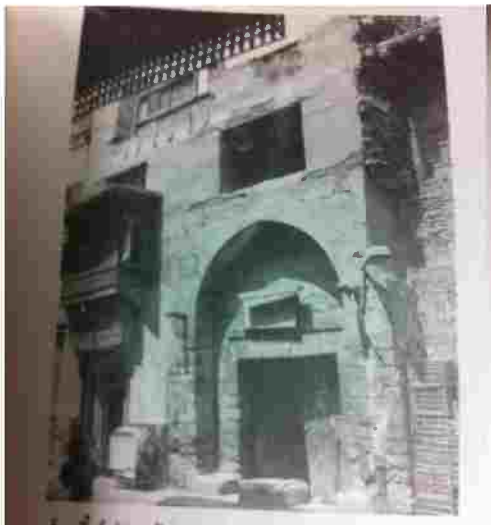

شكل ١ – الخانقاة الصلاحية (سعيد السعداء) أخر رقم ٤٨٠ (٥٦٩هـ / ١١٧٣م) – الواجهة والمدخل

شكل ٢ – الخانقاة الصلاحية (سعيد السعداء) – الايوان الشرقي.

شكل ٥ – الخانقاة الصلاحية (سعيد السعداء) – الايوان الغربى

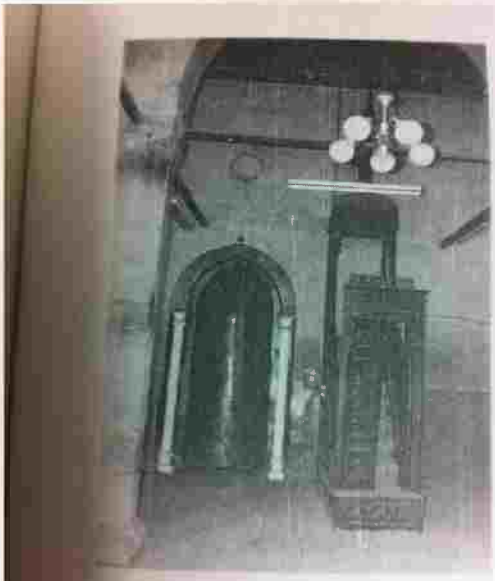

شكل ٣ – الخانقاة الصلاحية (سعيد السعداء) المحراب والمنبر

شكل ٤ – الخانقاة الصلاحية (سعيد السعداء) – الايوان الجنوبى

صور لخانقاه الصلاحية(سعيد السعداء) نقلاً عن.عاصم محمد رزق: خانقاوات الصوفية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي،153-157.

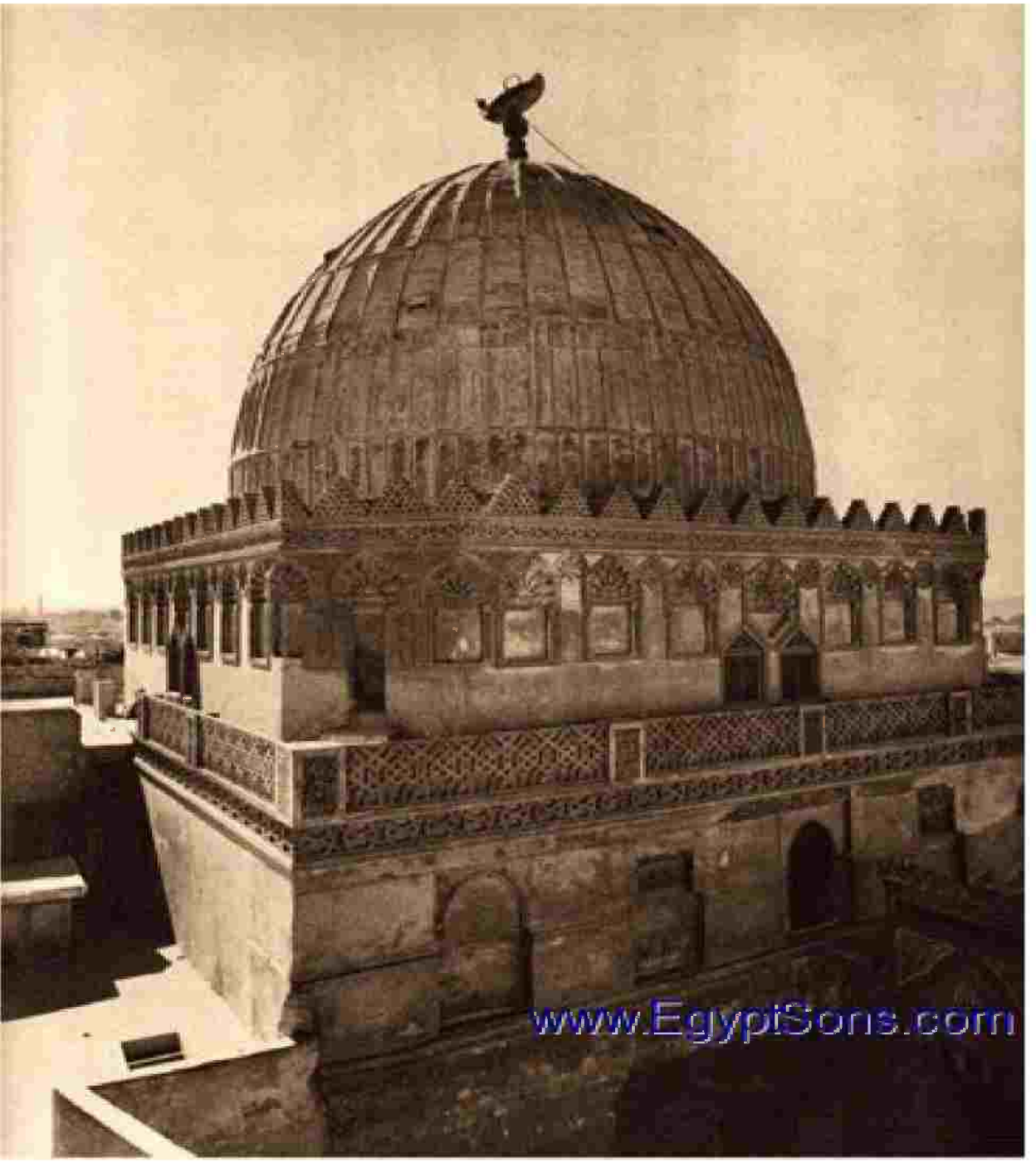

قبة وضريح الأمام الشافعي(رضي الله عنه) نقلاً عن :
http://www.egyptsons.com/misr/showthread.php?t=75374&page=1

قلعة صلاح الدين من بعيد نقلاً عن :http://100fm6.com/vb/showthread.php?t=70268

سلاطين الأيوبيين في مصر

الناصر صلاح الدين يوسف: (567-589هـ/1171-1193م)

العزيز عثمان بن صلاح الدين: (589-595هـ/1193-1198م)

المنصور محمد بن عثمان: (595-597هـ/1198-1200م)

العادل سيف الدين أخو صلاح الدين: (597-615هـ/1200-1218م)

الكامل محمد بن العادل: (615-636هـ/1218-1238م)

العادل الثاني بن الكامل: (636-638هـ/1238-1240م)

الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل: (638-647هـ/1240-1249م)

المعظم توران شاه بن الصالح أيوب: (647-648هـ/1249-1250م)

الأشرف مظفر الدين موسى حفيد الكامل: (648-650هـ/1250-1252م)

الخاتمة

- على الرغم من حالة الصراع السياسي والعسكري التي تميزت بها الدولة الأيوبية في بلاد الشام و مصر منذ الأيام الأولى لقيامها على الصعيدين الداخلي والخارجي، إلا إن عجلة التقدم الحضاري في بلاد الشام و مصر لم تتوقف و لم يركن لها جنب بل زادت توهجا و عطاءاً، فكانت مصر مركز التحول في هذا العصر بكل الجوانب الحضارية بعد سقوط دولة وقيام دولة جديدة على خلاف معها في العقيدة والنظم والثقافة، مع ما حملته دولة الأيوبيين معها من مؤثرات شامية إلى مصر.
- كان من نتائج الوحدة السياسية بين الإقليمين أن أصبحت مصر- سواء في العصر الأيوبي أو العصور اللاحقة- ميدانا خصبا لتلقي هذه المؤثرات وتطبيقها على أرض الواقع وبكل الميادين والمجالات التي ذكرناها، كما وأصبحت مصر مركزاً علمياً وثقافياً يلتقي فيه العلماء من كافة البلدان الإسلامية ليستقوا منه علومهم.
- لم يحمل حكّام الدولة الأيوبية هذه المؤثرات على عاتقهم فحسب، بل كان لأبناء الشام من رجال إدارة، وتجار، وعلماء، وفقهاء، وأطباء، ومعماريين، دوراً مهما في بعث النهضة الحضارية بمصر والعمل على تشكيلها على وفق النموذج الحضاري السائد في بلاد الشام.
- كان أثر الشام الحضاري على مصر في العصر الأيوبي كبيرا شمل مختلف الميادين، إلا انه لم يكن تغيراً جوهرياً في بعض الأحيان نظرا لطول المدة التي حكم فيها الفاطميون مصر والتي قاربت من الثلاثة قرون، فكان هذا التأثير تدريجياً تطويرياً أو تجديدياً مع وجود تغيير جذري في أحيان أخرى.
- شهدت مصر في هذه الفترة استحداث نظام جديد للحكم، ألا وهو السلطنة وما يلحق بها من نواب، وتم إلغاء وظائف أهمها الوزارة، كما تم تطوير واستحداث وظائف أخرى تتلائم وطبيعة المرحلة الجديدة للبلاد كلها كانت على نمط النظم الإدارية السائدة في بلاد الشام.
- وفي مجال القضاء فقد ساد مصر العمل بأحكام الفقه الشافعي، وتم تعيين قاضي شافعي على الرغم من إن الدولة الزنكية في بلاد الشام كانت على المذهب الحنفي، لأن شيوخ صلاح الدين وأساتذته في بلاد الشام كانوا على المذهب الشافعي وهذا أيضاً أثراً شامياً نقله صلاح الدين ورجال الشام إلى مصر.
- تطور نظام الإقطاع في مصر بحيث أثر كثيرا على الحياة الاجتماعية والاقتصادية، بالرغم من بعض السلبيات التي رافقت هذا التطور، وأبرز ما ميز الإقطاع في هذا العصر، أن مصر عرفت الإقطاع الحربي الذي عمل به في المشرق ثم طبق بالشام، وأنتقل بعدها إلى مصر.
- كانت الرحلات الشامية إلى مصر على مر العصور التاريخية مستمرة تعددت أسباب هذه الرحلات والهجرات التي نقلت معها عاداتها وتقاليدها التي عرفتها في بلاد الشام إلى مصر.
- شهدت الحياة الاقتصادية عند المصريين حالة انفراج وتنفس بعد أن ألغى السلطان صلاح الدين أو خفف العديد من الضرائب على السلع التجارية والمحاصيل الزراعية والمنتجات الصناعية.
- أما عن الحياة الثقافية فقد أسهمت الشام برجالاتها في الميدان الثقافي في مصر من خلال انتقال الكثير من الفقهاء والقراء والمحدثين واللغويين والأطباء وغيرهم إلى مصر. وقد شهدت العلوم الدينية اهتماما بالغاً من قبل هؤلاء العلماء،لكونها تدفع المسلمين باتجاه حفظ العقيدة من الفساد والحثّ على الجهاد ومقاتلة أعداء الإسلام والحفاظ على هيبة الأمة

الإسلامية. وارتبطت بالعلوم الشرعية العلوم اللغوية وآدابها التي شهدت اهتماماً وعناية من قبل سلاطين وأمراء الدولة الأيوبية شأنها شأن العلوم الأخرى، فكان لهذه العلوم مجتمعةً دوراً في بعث النشاط الثقافي بين علماء مصر وعامتها.

- ويلاحظ عودة النشاط الفقهي للمذاهب الأربعة بعد فترة ركود زمن الفاطميين الذين أبطلوا العمل بها واكتفوا بالعمل بمذهب دولتهم دون المذاهب الأخرى، فكان المذهب الشافعي الأكثر قبولاً في مصر لأنه المذهب الرسمي للدولة الأيوبية، ويليه المذهب الحنفي مذهب الدولة الزنكية في الشام، ثم المذهب المالكي، وأخيرا المذهب الحنبلي الذي دخل مصر في أواخر أيام الدولة الأيوبية.
- شهد التصوف نقلة جديدة في مصر في العصر الأيوبي، خاصة بعد انتقال عدد من المتصوفة إليها من مختلف البلدان الإسلامية ومنها الشام، حيث ظهرت الخانقاه التي جمعت المتصوفة في مكان واحد بعد أن كانوا يمارسون نشاطهم متفرقين في تكايا أو جبل أو في وادي أو في البرية، وليظهر بذلك مايعرف بالتصوف الجماعي.
- كما شهدت مصر في العصر الأيوبي نقلة جديدة في عالم البناء من خلال دخول نظام بناء التحصينات والقلاع والأسوار والمدارس والقباب وغيرها، حيث كانت بلاد الشام قد سبقت مصر في تشييد هذه المنشآت في عهد نور الدين محمود، ولما قامت دولة الأيوبيين في مصر عملت على نقل هذه الطرز المعمارية على وفق ما كان سائداً في بلاد الشام، هذا بالإضافة إلى إجراء بعض التعديلات والترميمات وزخرفة عدد من العمائر والمباني التي كانت موجودة في مصر من قبل.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

المصادر الأولية:

- ابن الأثير، عزالدين علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم (ت:630هـ/1232م)

1- الباهر في الدولة الأتابكية، تحقيق:عبد القادر احمد طليمات، دار الكتب الحديثة، (القاهرة، 1383هـ/1963م).

2- الكامل في التاريخ، تحقيق:جوهانس تورنبرغ، دار صادر، (بيروت، 1386هـ/1966م).

- الأدفوي، كمال الدين جعفر بن ثعلبين بن جعفر(ت:748هـ/1347م)

3- الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة على الصعيد، ط1، المطبعة الجمالية، (مصر، 1322هـ/1904م).

- الأزهري، أبي المنصور محمد بن احمد (ت:370هـ/980م)

4- تهذيب اللغة، تحقيق: فاطمة محمد أصلان، ط1،دار إحياء التراث العربي، (بيروت، 1422هـ/2001م).

- الأسنوي، جمال الدين عبد الرحمن بن الحسن بن علي (ت:772هـ/1370م)

5- طبقات الشافعية، تحقيق: عبد الله الجبوري، ط1،مطبعة الإرشاد، (بغداد، 1390هـ/1970م).

- الأصفهاني، عمادالدين محمد بن محمد (ت:579هـ/1200م)

6- البرق الشامي، تحقيق: مصطفى الحياري، ط1، مؤسسة عبد الحميد شومان، (عمان، 1408هـ/1987م).

7- تاريخ دولة آل سلجوق، اختصار: الفتح بن علي بن محمد البنداري، ط3،دار الأفاق الجديدة، (بيروت، 1399هـ/1978م).

8- خريدة القصر وجريدة العصر،قسم شعراء الشام، تحقيق: شكري فيصل، المطبعة الهاشمية، (دمشق، 1388هـ/1968م).

9- الفتح القسي في الفتح القدسي، مطبعة الموسوعات، (مصر، 1321هـ/1903م).

- ابن أبي أصيبعة، موفق الدين احمد بن القاسم (ت:668هـ/1269م)

10- عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق: نزار رضا، دار مكتبة الحياة، (بيروت، 1385هـ/1965م).

- ابن إياس، أبو البركات محمد بن احمد (ت:930هـ/1523م)

11- تاريخ مصر المعروف ببدائع الزهور في الوقائع والدهور، مطبعة بولاق، (مصر، 1311هـ/1893م).

- الأيوبي، محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه (ت:617هـ/1220م)

12- مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق: حسن حبشي، عالم الكتب، (القاهرة، 1388هـ/1968).

- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم (ت:256هـ/869م)

13- صحيح البخاري، مطبوعات محمد علي صبيح وأولاده بميدان الأزهر، (مصر، د.ت).

- ابن بسام، محمد بن احمد (ت:884هـ/1479م)

14- نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق: حسام الدين السامرائي، مطبعة المعارف، (بغداد، 1388هـ/1968م).

- ابن بطوطة، محمد بن عبد الله بن محمد (ت:779هـ/1377م)

15- رحلة ابن بطوطة، تحقيق: كرم البستاني، دار صادر، (بيروت، 1413هـ/1992م).

▪ البغدادي، موفق الدين أبي محمد عبد اللطيف (ت:629هـ/1231م)
16- الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، تحقيق: علي محسن عيسى مال الله، دار الحكمة، (بغداد، 1408هـ/1987م).
▪ البنداري، الفتح بن علي بن محمد (ت:642هـ/1244م)
17- سنا البرق الشامي، تحقيق: فتحية البزاوي، مكتبة الخانجي، (مصر، 1400هـ/1979م).
▪ ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف (ت:874هـ/1469م)
18- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، (القاهرة، د.ت).
▪ التهانوي، محمد علي الفاروقي (ت:في القرن 12هـ/18م)
19- كشاف اصطلاحات الفنون، تحقيق: لطفي عبد البديع، ترجم النصوص الفارسية: عبد المنعم محمد حسنين، مطبعة السعادة، (مصر، 1383هـ/1963م).
▪ الجبرتي، عبد الرحمن بن حسن (ت:1237هـ/1821م)
20- تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار،دار الجيل، (بيروت، د.ت).
▪ ابن جبير، أبو الحسين محمد بن احمد (ت:614هـ/1217م)
21- رحلة ابن جبير، دار صادر، (بيروت، 1379هـ/1959م).
▪ الجرجاني، علي بن محمد (ت:816هـ/1413م)
22- التعريفات، الدار التونسية للنشر، (تونس، 1391هـ/1971م).
▪ ابن الجزري، محمد بن محمد (ت:833هـ/1429م)
23- غاية النهاية في طبقات القراء، عنى بنشره: ج.برجستر، ط2، دار الكتب العلمية، (بيروت، 1401هـ/1980م).
24- النشر في القراءات العشر، دار الكتب العلمية، (بيروت، د.ت).
▪ ابن جني، أبو الفتح عثمان (ت:392هـ/1004م)
25- الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، (بيروت، 1372هـ/1952م).
▪ الجوهري، إسماعيل بن حماد (ت:393هـ/1002م)
26- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: احمد عبد الغفور عطار، دار العلم، (بيروت، 1400هـ/1979م).
▪ ابن الحاج، أبو عبد الله محمد بن سعد (ت:737هـ/1336م)
27- المدخل، دار الفكر، (بيروت، د.ت).
▪ الحجازي،عبد الله بن إبراهيم وآخرون (ت:على التوالي في القرنين السادس والسابع الهجري/الثاني عشر والثالث عشر الميلادي)
28- النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة، تحقيق: حسين نصار، دار الكتب، (بيروت، 1390هـ/1970م).
▪ الحريري، أبو محمد القاسم بن علي (ت:516هـ/1122م)
29- مقامات الحريري، مطبعة المعارف، (بيروت، 1289هـ/1872م).
▪ الحلي، صفي الدين (ت:750هـ/1349م)
30- العاطل الحالي والمرخص الغالي، تحقيق: حسين نصار، ط2،دار الشؤون الثقافية العامة، (بغداد، 1411هـ/1990م).
▪ الحموي، أبو عبد الله شهاب الدين ياقوت (ت:626هـ/1228م)
31- إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء، مراجعة: وزارة المعارف العمومية، ط1،دار إحياء التراث العربي، (بيروت، د.ت).
32- معجم البلدان، دار صادر، (بيروت، 1398هـ/1977م).
▪ الحميري، محمد عبد المنعم (ت:900هـ/1494م)
33- الروض المعطار في خبر الأقطار، دار القلم، (بيروت، 1405هـ/1984م).

▪ الحنبلي، أبو البركات عزالدين احمد بن إبراهيم (ت:876ه/1471م)
34- شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تحقيق: ناظم رشيد، دار الحرية، (بغداد، 1400ه/1979).
▪ ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت:808ه/1405م)
35- تاريخ ابن خلدون المعروف بالعبر وديوان المبتداء والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، (بيروت، 1400ه/1979م).
36- المقدمة، تحقيق: هيثم جمعة هلال، ط1،مؤسسة المعارف، (بيروت، 1428ه/2007م).
▪ ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين احمد بن محمد بن أبي بكر (ت:681ه/1282م)
37- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان،تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، (بيروت، 1392ه/1972م).
▪ خليفة، حاجي (ت:1067ه/1656م)
38- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مكتبة المثنى، (بيروت، د.ت).
▪ الخوارزمي، محمد بن احمد (ت:387ه/999م)
39- مفاتيح العلوم، إدارة المطبعة المنيرية، (القاهرة، 1342ه/1923م).
▪ الداوداري، أبو بكر بن عبد الله بن أيبك (ت:725ه/1324م)
40- كنز الدرر وجامع الغرر، ج7 الدر المطلوب في أخبار ملوك بني أيوب، تحقيق: سعيد عبد الفتاح عاشور، دار إحياء الكتب العربية، (القاهرة، 1392ه/1972م).
▪ الداودي، محمد بن علي (ت:945ه/1538م)
41- طبقات المفسرين، تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة وهبة، (مصر، 1392ه/1972).
▪ ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن (ت:321ه/933م)
42- جمهرة اللغة، ط1، دائرة المعارف العثمانية، (حيدر اباد، 1351ه/1932م).
▪ ابن دقماق، صارم الدين إبراهيم بن محمد (ت:809ه/1406م)
43- الانتصار لواسطة عقد الأمصار، المكتب التجاري للطباعة والنشر،(بيروت، 1311ه/1893م).
▪ الذهبي، شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان (ت:748ه/1347م)
44- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، ط1،دار الكتاب العربي، (بيروت، 1417ه/1996م).
45- تذكرة الحفاظ، ط4، دار إحياء التراث العربي، (بيروت، 1378ه/1958م).
46- سير أعلام النبلاء، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط1، دار الكتب العلمية، (بيروت، 1425ه/2004م).
47- العبر في خبر من غبر، تحقيق: أبوهاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، (بيروت، 1406ه/1985م).
48- المختصر في المحتاج إليه، تحقيق: مصطفى جواد، مطبعة المعارف، (بغداد، 1371ه/1951م).
49- معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار،تحقيق: محمد سيد جاد الحق، ط1، مطبعة دار التأليف، (مصر، 1387ه/1967م).
▪ ابن رجب، زين الدين عبد الرحمن بن احمد (ت:795ه/1392م)
50- الذيل على طبقات الحنابلة، تحقيق: محمد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية، (القاهرة، 1372ه/1952م).
▪ الزركشي، محمد بن عبد الله (ت:794ه/1391م)
51- البرهان في علوم القران، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، (القاهرة، 1377ه/1957م).

- سبط بن الجوزي، شمس الدين يوسف (ت:654هـ/1256م)

52- مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ط1، دائرة المعارف العثمانية، (حيدرأباد، 1371هـ/1951).

- ألسبكي، تاج الدين عبد الوهاب بن علي (ت:771هـ/1369م)

53- طبقات الشافعية الكبرى، ط2، دار المعرفة، (بيروت، د.ت).

54- معيد النعم ومبيد النقم، ط2، دار الحداثة، (بيروت، 1406هـ/1985م).

- ابن سعد، محمد بن منيع (ت:230هـ/844م)

55- الطبقات الكبرى، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط2، دار الكتب، (بيروت، 1418هـ/1997م).

- ابن سعيد، أبو الحسن علي بن موسى (ت:685هـ/1286م)

56- الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ط2، دار المعارف، (القاهرة، 1387هـ/1967م).

- السكاكي، يوسف بن محمد (ت:626هـ/1228م)

57- مفتاح السعادة، مطبعة مصطفى ألبابي الحلبي، (مصر، 1356هـ/1937م).

- ابن سلام، أبو عبيد القاسم (ت:224هـ/838م)

58- الأموال، تحقيق: محمد خليل هراس، ط1،دار الكتب العلمية، (بيروت، 1407هـ/1987م).

- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (ت:911هـ/1505م)

59- الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية للكتاب، (القاهرة، 1395هـ/1975م).

60- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة،تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى ألبابي الحلبي، (القاهرة، 1384هـ/1964م).

61- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1،دار إحياء الكتب العربية، (القاهرة، 1387هـ/1967م).

62- طبقات الحفاظ، تحقيق: علي محمد عمر، ط1،مكتبة وهبة، (القاهرة، 1393هـ/1973م).

- أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي (ت:665هـ/1266م)

63- الذيل على الروضتين، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، ط1،دار الكتب العلمية، (بيروت، 1423هـ/2002م).

64- الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، ط1،دار الكتب العلمية، (بيروت، 1423هـ/2002م).

- ابن الشحنة، أبو الفضل محمد (ت:890هـ/1485م)

65- الدر المنتخب في تاريخ حلب، دار الكتاب العربي، (سورية، 1405هـ/1984م).

- ابن شداد، بهاء الدين يوسف (ت:632هـ/1239م)

66- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق: جمال الدين الشيال، ط1، المؤسسة المصرية العامة، (القاهرة، 1384هـ/1964م).

- الشيزري،عبد الرحمن بن نصر (ت:589هـ/1193م)

67- نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق: السيد الباز العريني، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، (القاهرة، 1366هـ/1946م).

- ألصفدي، صلاح الدين خليل بن ايبك (ت:764هـ/1362م)

68- الوافي بالوفيات، تحقيق: احمد الأرنأووط، وتركي مصطفى ،ط1، دار إحياء التراث العربي، (بيروت، 1421هـ/2000م).

- الصوري، وليم (ت:1130هـ/1717م)

69- تاريخ الحروب الصليبية الأعمال المنجزة فيما وراء البحار، ترجمة: حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة، 1415هـ/1994م).

- الظاهري، غرس الدين خليل بن شاهين (م . و)

70- زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، اعتنى بتصحيحه: بولس راويس، المطبعة الجمهورية، (باريس، 1312هـ/1894م).
- العامري، محمد بن يوسف (ت:381هـ/993م)
71- الأعلام بمناقب الإسلام، تحقيق: احمد عبد الحميد غراب، دار الكتاب العربي، (القاهرة، 1387هـ/1967م).
- ابن عبد الظاهر، محي الدين أبو الفضل عبد الله (ت:692هـ/1292م)
72- الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، ط1، الدار العربية للكتاب، (القاهرة، 1417هـ/1996م).
- ابن العديم، كمال الدين عمر بن احمد بن هبة الله (ت:660هـ/1261م)
73- بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق: سهيل زكار، دار الفكر، (بيروت، د.ت).
74- زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق: سامي الدهان، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، (دمشق، 1371هـ/1951م).
- العسقلاني، احمد بن علي بن حجر (ت:852هـ/1448م)
75- رفع الإصر عن قضاة مصر، تحقيق: حامد عبد المجيد، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، (القاهرة، 1381هـ/1961م).
- العليمي، مجير الدين الحنبلي (ت:928هـ/1521م)
76- الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، المطبعة الحيدرية، (النجف، 1388هـ/1968م).
- ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي (ت:1089هـ/1678م)
77- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي، دار الأفاق الجديدة، (بيروت، د.ت).
- ابن عنين، شرف الدين محمد بن نصر (ت:630هـ/1232م)
78- ديوان ابن عنين، تحقيق:خليل مردم بيك، مطبوعات المجمع العلمي العربي، (دمشق، 1366هـ/1946م).
- العيني، بدر الدين محمود (ت:855هـ/1451م)
79- عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق: محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة، 1408هـ/1987م).
- الفارابي، محمد بن محمد (ت:339هـ/951م)
80- إحصاء العلوم، تحقيق: عثمان أمين، ط3، مكتبة الأنجلو المصرية، (القاهرة، 1388هـ/1968م).
- أبو الفدا، عماد الدين إسماعيل (ت:732هـ/1331م)
81- المختصر في أخبار البشر، دار الكتب اللبنانية، (بيروت، 1380هـ/1960م).
- ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (ت:807هـ/1404م)
82- تاريخ ابن الفرات، تحقيق: حسن محمد الشماع، دار الطباعة الحديثة، (ألبصره،1389هـ/1969).
- الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب (ت:817هـ/1414م)
83- القاموس المحيط، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، (بيروت، د.ت).
- القزويني، زكريا بن محمد بن محمد (ت:682هـ/1283م)
84- آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، (بيروت، 1380هـ/1960م).
- القزويني، محمد بن عبد الرحمن (ت:739هـ/1338م)
85- الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق: لجنة من أساتذة اللغة العربية بالجامع الأزهر، مطبعة السنة المحمدية، (القاهرة، د.ت).
- القلقشندي، أبو العباس احمد بن علي (ت:821هـ/1418م)

86- صبح الأعشى في صناعة الأنشا، المؤسسة المصرية العامة للتأليف، (القاهرة، 1383هـ/1963م).
87- نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ط2، دار الكتاب اللبناني، (بيروت، 1401هـ/1980م).
- القنوجي، صديق بن حسن (ت:1307هـ/1889م)
88- أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم، تحقيق: عبد الجبار رزكار، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، (دمشق، 1399هـ/1978م).
- ألكتبي، محمد بن شاكر بن احمد (ت:764هـ/1362م)
89- عيون التواريخ، تحقيق: نبيلة عبد المنعم داؤد وفيصل السامر، دار الحرية للطباعة، (بغداد، 1405هـ/1984م).
90- فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، (بيروت، 1393هـ/1973م).
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر (ت:774هـ/1372م)
91- البداية والنهاية، دار الفكر، (بيروت، 1403هـ/1982م).
- الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف (ت:355هـ/965م)
92- كتاب الولاة وكتاب القضاة، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل واحمد فريد المزيدي، ط1، دار الكتب العلمية، (بيروت، 1424هـ/2003م).
- ابن ماجة، أبو عبد الله محمد بن يزيد (ت:275هـ/888م)
93- سنن ابن ماجة، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب العلمية، (بيروت، د.ت).
- الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد (ت:450هـ/1058م)
94- الأحكام السلطانية والولايات السلطانية، ضبطه وصححه: احمد عبد السلام، ط3، دار الكتب العلمية، (بيروت، 1427هـ/2006م).
- مسلم، ابو الحسين بن الحجاج القشيري (ت:261هـ/874م)
95- صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، (بيروت، 1374هـ/1954م).
- ابن المعتز، أبو العباس بن محمد (ت:296هـ/908م)
96- البديع في البديع، ط1، دار الجيل، (بيروت، 1411هـ/1990م).
- المقريزي، تقي الدين احمد بن علي (ت:845هـ/1441م)
97- اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق: محمد حلمي احمد احمد، لجنة إحياء التراث الأسلامي، (القاهرة، 1393هـ/1973م).
98- البيان والأعراب عما بأرض مصر من الأعراب، تحقيق: عبد المجيد عابدين، ط1، عالم الكتب، (القاهرة، 1381هـ/1961م).
99- السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، ط1، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، (القاهرة، 1376هـ/1956م).
100- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، تحقيق: محمد زينهم ومديحه الشرقاوي، ط1،مكتبة مدبولي، (القاهرة، 1419هـ/1998م).
- ابن مماتي، الأسعد (ت:606هـ/1209م)
101- قوانين الدواوين، تحقيق: عزيز سوريال عطية، ط1، مكتبة مدبولي، (القاهرة،1412هـ/1991م).
- ألمنذري، زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي (ت:656هـ/1258م)
102- التكملة لوفيات النقلة، تحقيق: بشار عواد معروف، مطبعة الآداب، (النجف، 1388هـ/1968م).
- ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم (ت:711هـ/1311م)
103- لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، (القاهرة، د.ت).

▪ النابلسي، فخر الدين عثمان بن إبراهيم (كان حياً سنة 632هـ / 1234م)
104- تاريخ الفيوم وبلادها، دار الجيل، (بيروت، 1394هـ/1974م).
▪ ناصر خسرو،(عاش في القرن 5هـ/11م)
105- سفر نامة، تحقيق: يحيى الخشاب، دار الكتاب الجديد، (بيروت، 1414هـ/1993م).
▪ ابن النديم، محمد بن إسحاق (ت:385هـ/995م)
106- الفهرست، تحقيق، رضا تجدد بن علي المازندراني، (طهران، 1391هـ/1971م).
▪ ألنعيمي،أبو المظفر عبد القادر بن محمد (ت:927هـ/1520م)
107- الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق: جعفر الحسني، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، (القاهرة، 1427هـ/2006م).
▪ ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم (ت:697هـ/1297م)
108- مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج1- 2- 3،تحقيق:جمال الدين الشيال، مطبعة جامعة فؤاد الأول، (القاهرة، 1373هـ/1953م)،المطبعة الأميرية، (القاهرة، 1377هـ/1975م)،ج4-5،تحقيق: حسنين محمد ربيع، دار الكتب، (القاهرة، 1392- 1395هـ/1972-1975م)،ج6،تحقيق: عمر عبد السلام تدمري ،ط1، المكتبة العصرية، (القاهرة، 1425هـ/2004م).
▪ اليونيني، موسى بن محمد بن احمد (ت:726هـ/1325م)
109- ذيل مرآة الزمان، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، (حيدرآباد، 1375هـ/1955م).

المراجع الثانوية:

▪ الأسكندري، عمر و أ.ج.سفدج
1- تاريخ مصر إلى الفتح العثماني، ط2، مكتبة مدبولي، (القاهرة، 1417هـ/1996م).
▪ أمين، احمد
2- فجر الإسلام، ط10، دار الكتاب العربي، (بيروت، 1389هـ/1969م).
▪ الأنصاري، ناصر
3- المجمل في تاريخ مصر(النظم السياسية والإدارية)، ط2،دار الشروق، (القاهرة، 1418هـ/1997م).
▪ الباشا، حسن
4- الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، الدار الفنية للنشر، (القاهرة، 1410هـ/1989م).
5- الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، دار النهضة العربية، (القاهرة، 1385هـ/1965م).
▪ باشا، عمر موسى
6- أدب الدول المتتابعة عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك، ط1، دار الفكر الحديث، (القاهرة، 1387هـ/1967م).
▪ بدوي، احمد احمد
7- الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، ط2، دار نهضة مصر، (القاهرة، 1424هـ/2003م).
8- الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، مطبعة نهضة مصر، (القاهرة، د.ت).
▪ بروكلمان، كارل
9- تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله للعربية: نبيه أمين وفارس منير البعلبكي، ط5، دار العلم للملايين، (بيروت، 1388هـ/1968م).
▪ بهجت، منى محمد بدر محمد

10- أثر الحضارة السلجوقية في دول شرق العالم الإسلامي على الحضارتين الأيوبية والمملوكية بمصر، ط1، مكتبة زهراء الشرق، (القاهرة، 1423هـ/2002م).
- بيكر
11- مادة"الأيوبيين"، دائرة المعارف الإسلامية، نقله إلى العربية: محمد ثابت الفندي وآخرون، (د. م، 1352هـ/1933م).
- بيومي، علي
12- قيام الدولة الأيوبية في مصر، ط1، دار الفكر الحديث، (القاهرة، 1372هـ/1952م).
- الترمانيني، عبد السلام
13- أحداث التاريخ الإسلامي بترتيب السنين، ط1، دار طلاس، (القاهرة، 1415هـ/1994م).
- تشنر، فرانتس وآخرون
14- تاريخ العالم العربي، دار صادر، (بيروت، 1395هـ/1975م).
- التكريتي، محمود ياسين احمد
15- الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة، دار الرشيد، (بغداد، 1402هـ/1981م).
- توري
16- مادة"ابن عبد الحكم"، دائرة المعارف الإسلامية، نقلها إلى العربية: محمد ثابت الفندي وآخرون، (د . م، 1352هـ/1933م).
- جب، هاملتون
17- دراسات في حضارة الإسلام، ترجمة: إحسان عباس وآخرون، ط2، دار العلم للملايين، (بيروت، 1394هـ/1974م).
18- صلاح الدين الأيوبي، حررها: يوسف أيبش، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، (بيروت، 1393هـ/1973م).
- الجمعة، احمد قاسم وآخرون
19- الفنون الزخرفية العربية الإسلامية، جامعة بغداد، (بغداد، 1403هـ/1982م).
- جومار
20- وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل، ترجمة: أيمن فؤاد سيد، ط1،مكتبة الخانجي، (القاهرة، 1409هـ/1988م).
- حتي، فيليب وآخرون
21- تاريخ العرب (مطول)، ط4، دار الكشاف، (بيروت، 1385هـ/1965م).
- أبو حديد، محمد فريد
22- أمتنا العربية، دار المعارف، (القاهرة، 1381هـ/1961م).
- حسن، حسن إبراهيم
23- تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ط14، دار الجيل، (بيروت، 1417هـ/1996م).
24- تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية وبلاد الشام، د. ن، (د. م، د. ت).
- حسن، حسن إبراهيم، وعلي إبراهيم حسن
25- النظم الإسلامية، مكتبة النهضة المصرية، (القاهرة، 1390هـ/1970م).
- حسن، زكي محمد
26- فنون الإسلام، دار الرائد العربي، (بيروت، 1402هـ/1981م).
- حسن، صفوان طه
27- تاريخ الأيوبيين والمماليك، ط1، دار الفكر، (عمان، 1431هـ/2010م).
- حسن، علي إبراهيم
28- مصر في العصور الوسطى، ط5، مكتبة النهضة المصرية، (القاهرة، 1384هـ/1964م).
- الحسين، قصي

29- موسوعة الحضارة العربية الإسلامية العصر الفاطمي والأيوبي، ط1، مكتبة الهلال، (بيروت، 1426هـ/2005م).
- حسين، محمد كامل
30- دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين، دار الفكر العربي، (د. م/د. ت).
31- الموجز في تاريخ الطب والصيدلة، د. ن، (طرابلس، د. ت).
- حمادة، محمد ماهر
32- وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي، ط2، مؤسسة الرسالة، (بيروت، 1403هـ/1982م).
33- الوثائق السياسية والإدارية للعهود الفاطمية والأتابكية والأيوبية، مؤسسة الرسالة، (بيروت، 1398هـ/1977م).
- حمزة، عبد اللطيف
34- الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول، ط8، دار الفكر الحديث، (القاهرة، 1388هـ/1968م).
- الحويري، محمود محمد
35- الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر من الميلاد، دار المعارف، (القاهرة، 1400هـ/1979م).
36- مصر في العصور الوسطى، ط1، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، (القاهرة، 1417هـ/1996م).
- الخربوطلي، علي حسني
37- مصر العربية الإسلامية، مكتبة الأنجلو المصرية، (القاهرة، د. ت).
- دفتري، فرهاد
38- الإسماعيليون في العصر الوسيط، ترجمة: سيف الدين القصير، ط1، دار المدى للثقافة والنشر، (دمشق، 1420هـ/1999م).
- الذهبي، محمد حسين
39- التفسير والمفسرون، دار القلم، (بيروت، 1408هـ/1987م).
ربيع، حسنين محمد
40- النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين، مطبعة جامعة القاهرة، (القاهرة، 1384هـ/1964م).
- رزق، عاصم محمد
41- خانقاوات الصوفية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي، ط1، مكتبة مدبولي، (القاهرة، 1418هـ/1997م).
- الرفاعي، أنور
42- تاريخ الفن عند العرب والمسلمين، ط2، دار الفكر، (دمشق، 1398هـ/1977م).
- الزركلي، خير الدين
43- الأعلام، ط15، دار العلم للملايين، (بيروت، 1423هـ/2002م).
- زكي، عبد الرحمن
44- قلعة صلاح الدين الأيوبي وما حولها من الآثار، الهيئة المصرية العامة، (القاهرة، 1391هـ/1971م).
- زيدان، جرجي
45- تاريخ التمدن الإسلامي، ط2، دار مكتبة الحياة، (بيروت، د. ت).
- زيود، محمد احمد
46- حالة بلاد الشام الاقتصادية منذ العصر الطولوني حتى نهاية العصر الفاطمي، دار الفكر، (دمشق، 1413هـ/1992م).
- سالم، سحر عبد العزيز

47- العراقيون في مصر في القرن السابع الهجري، مؤسسة شباب الجامعة، (الإسكندرية، 1412هـ/1991م).
- سالم، عبد العزيز
48- تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي،ط2، مؤسسة شباب الجامعة، (الإسكندرية، 1403هـ/1982م).
- سامح، كمال الدين
49- العمارة الإسلامية في مصر،مطبعة مصر، (القاهرة، د. ت).
- السامرائي، خليل إبراهيم
50- دراسات في تاريخ الفكر العربي، مطبعة جامعة الموصل، (الموصل، 1404هـ/1983م).
- السباعي، مصطفى
51- من روائع حضارتنا، ط1، دار السلام، (القاهرة، 1419هـ/1998م).
- سلام، محمد زغلول
52- الأدب في العصر الأيوبي، دار المعارف، (القاهرة، 1388هـ/1968م).
53- الأدب في عصر صلاح الدين، ط1، مؤسسة الثقافة الجامعية، (الإسكندرية، 1379هـ/1959م).
- سلطان، عبد المنعم عبد الحميد
54- الحياة الاجتماعية في العصر الفاطمي، دار الثقافة العلمية،(الإسكندرية، 1420هـ/1999م).
- أبو سليمان، صابر حسن محمد
55- مورد الضمان في علوم القرآن، ط1، الدار السلفية، (بومباي، 1405هـ/1984م).
- سيد الأهل، عبد العزيز
56- أيام صلاح الدين،المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، (القاهرة، 1384هـ/1964م).
- سيد، احمد فؤاد
57- تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بني أيوب، ط1، مكتبة مدبولي، (القاهرة، 1423هـ/2002م).
- سيد، أيمن فؤاد
58- الدولة الفاطمية تفسير جديد، ط1، الدار المصرية اللبنانية، (القاهرة، 1413هـ/1992م).
- شاندور، البير
59- صلاح الدين الأيوبي البطل الأنقى في الإسلام، ترجمة: سعيد أبو الحسن، تحقيق: نديم مرعشلي، ط2، دار طلاس، (دمشق، 1414هـ/1993م).
- شكيل، هادية دجاني
60- القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني العسقلاني دوره التخطيطي في دولة صلاح الدين وفتوحاته، ط2، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، (بيروت، 1420هـ/1999م).
- شلبي، احمد
61- موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، ط2، مكتبة النهضة المصرية، (القاهرة، 1392هـ/1972م).
- شميساني، حسن
62- مدارس دمشق في العصر الأيوبي، ط1، دار الآفاق الجديدة، (بيروت، 1404هـ/1983م).
- الصالح، صبحي
63- مباحث في علوم القرآن، ط7، دار العلم للملايين، (بيروت، 1392هـ/1972م).
- الصلابي، علي محمد
64- صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير بيت المقدس، ط2، دار المعرفة، (بيروت، 1429هـ/2008م).
- ضيف، شوقي

65- تاريخ الأدب العربي(عصر الدول والأمارات مصر)، ط2، دار المعارف، (القاهرة، 1411هـ/1990م).
66- المدارس النحوية، ط2، دار المعارف، (مصر، 1392هم1972م).
- طرخان، إبراهيم علي
67- النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، دار الكتاب العربي، (القاهرة، 1388هـ/1968م).
- طقوش، محمد سهيل
68- تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة، ط2، دار النفائس، (بيروت، 1429هـ/2008م).
- عاشور، سعيد عبد الفتاح
69- الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، دار النهضة العربية، (القاهرة، 1417هـ/1996م).
70- مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية، (بيروت، 1392هـ/1972م).
71- "نظم الحكم والإدارة في عصر الأيوبيين والمماليك"، موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، ط1، دار الفارس، (عمان، 1416هـ/1995م).
- عاشور، سعيد عبد الفتاح وآخرون
72- دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية، ط2، منشورات ذات السلاسل، (الكويت، 1407هـ/1986م).
- العبادي، احمد مختار وعبد العزيز سالم
73- تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، دار الأحد، (بيروت، 1392هـ/1972م).
- عباس، إحسان
74- تاريخ بلاد الشام في عهد الأتابكة والأيوبيين، منشورات لجنة تاريخ بلاد الشام في الجامعة الأردنية، (عمان، 1419هـ/1998م).
- عبد القادر، علي
75- "الفقه الإسلامي- القضاء والحسبة"، موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، ط1، دار الفارس، (عمان، 1316هـ/1995م).
- عبد المقصود، سمير
76- الشوام في مصر منذ الفتح العثماني حتى أوائل القرن التاسع عشر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة، 1324هـ/2003م).
- عبد المنعم، صبحي
77- تاريخ مصر السياسي والحضاري من الفتح الإسلامي حتى عهد الأيوبيين، دار العربي، (القاهرة، د. ت).
- عبد المولى، محمود
78- أنظمة المجتمع والدولة في الإسلام، مطبعة الإتحاد العام التونسية، (تونس، 1393هـ/1973م).
- العريني، الباز
79- الشرق الأدنى في العصور الوسطى(الأيوبيون)، دار النهضة العربية، (بيروت، 1387هـ/1967م).
- عوض، محمد مؤنس
80- صلاح الدين الأيوبي بين التاريخ والأسطورة، ط1، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، (الجيزة، 1429هـ/2008م).
- عوف، احمد
81- أحوال مصر من عصر لعصر، دار العربي للطباعة والنشر، (القاهرة، د. ت).

- عيسى بك، احمد

82- تاريخ البيمارستانات في الإسلام، المطبعة الهاشمية، (دمشق، 1358هـ/1939م).

- غنيم، أسمت

83- الدولة الأيوبية والصليبيون، دار المعرفة الجامعية، (الإسكندرية، 1411هـ/1990م).

- فرغلي، إبراهيم

84- الحركة التاريخية في مصر وسوريا خلال القرن السابع الهجري، ط1، دار العربي للنشر، (القاهرة، 1421هـ/2000م).

- فروا، م. غود

85- النظم الإسلامية، ترجمة: فيصل السامر وصالح الشماع، ط2، دار النشر للجامعيين، (بيروت، 1381هـ/1961م).

- فروخ، عمر

86- تاريخ الأدب العربي، ط4، دار العلم للملايين، (بيروت، 1405هـ/1984م).

87- تاريخ العلوم عند العرب، ط3، دار العلم للملايين، (بيروت، 1401هـ/1980م).

- فكري، احمد

88- مساجد القاهرة ومدارسها في العصر الأيوبي، دار المعارف، (مصر، 1389هـ/1969م).

- فييت، جاستون

89- القاهرة مدينة الفن والتجارة، ترجمة: مصطفى العبادي، مكتبة لبنان، (بيروت، 1388هـ/1968م).

- قاسم، قاسم عبده وعلي السيد علي

90- الأيوبيون والمماليك(التاريخ السياسي والعسكري)،عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، (القاهرة، د. ت).

- قراعه، سنيه

91- مساجد ودول، ط1، مكتبة الصحافة الدولية، (د. م، 1378هـ/1958م).

- كحالة، عمر رضا

92- العلوم العملية عند العرب، المطبعة التعاونية، (دمشق، 1392هـ/1972م).

- كحيلة، عبادة بن عبد الرحمن رضا

93- العقد الثمين في تاريخ المسلمين، ط1، دار الكتاب الحديث، (الكويت، 1417هـ/1996م).

- كرامرز

94- مادة"سلطان"، دائرة المعارف الإسلامية، نقلها إلى العربية: محمد ثابت الفندي وآخرون، 1352هـ/1933م.

- الكيلاني، ماجد عرسان

95- هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، ط3، دار الفرقان، (عمان، 1424هـ/2003م).

- لينبول

96- سيرة القاهرة، ترجمة: حسن إبراهيم حسن وآخرون، ط2، مكتبة النهضة المصرية، (القاهرة، 1320هـ/1902م).

- ماجد، عبد المنعم

97- تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، ط2، مكتبة الأنجلو المصرية، (القاهرة، 1393هـ/1973م).

- ماهر، سعاد

98- البحرية في مصر وآثارها الباقية، دار الكتاب العربي، (القاهرة، 1387هـ/1967م).

99- مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، (القاهرة، 1396هـ/1976م).

- ماكنزي، نيل دي

100- القاهرة الأيوبية، ترجمة: عثمان مصطفى عثمان، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، (القاهرة، 1428هـ/2007م).

- مبارك، علي باشا

101- الخطط التوفيقية لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة، ط2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة،1401- 1403- 1404هـ/1980- 1982- 1983م).

- محمد، احمد رمضان احمد

102- المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، مؤسسة روزا ليون، (القاهرة، 1398هـ/1977م).

- مردم بك، خليل

103- الشعراء الشاميون، تحقيق: عدنان مردم بك، دار صادر، (بيروت، د. ت).

- مرزوق، محمد عبد العزيز

104- الفن الإسلامي في العصر الأيوبي، دار القلم، (القاهرة، 1383هـ/1963م).

- مصطفى، شاكر

105- التاريخ العربي والمؤرخون، ط1، دار العلم للملايين، (بيروت، 1400هـ/1979م).

- المعاضيدي، خاشع

106- دراسات في تاريخ الحضارة العربية، مطبعة واوفسيت الحديثة، (بغداد، 1400هـ/1979م).

- المعاضيدي، خاشع ورشيد عبد الله ألجميلي

107- تاريخ الدويلات العربية الإسلامية في العصر العباسي(في المشرق والمغرب)، ط1، مطبعة واوفسيت الحديثة، (بغداد، 1400هـ/1979م).

- مؤنس، حسين

108- أطلس التاريخ الإسلامي ،ط1، الزهراء للأعلام العربي، (القاهرة، 1408هـ/1987م).

- نوار، عبد العزيز سليمان

109- تاريخ مصر الاجتماعي، دار الفكر العربي، (القاهرة،د. ت).

- نوري، دريد عبد القادر

110- سياسة صلاح الدين الأيوبي في بلاد مصر والشام والجزيرة، مطبعة الإرشاد، (بغداد، 1396هـ/1976م).

- الهاشمي، رحيم كاظم محمد وعواطف محمد العربي شنقا رو

111- الحضارة العربية الإسلامية، الدار المصرية اللبنانية، (القاهرة، د. ت).

- هايد، ف

112- تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ترجمة: احمد محمد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (عمان، 1390هـ/1985م).

- هنتس، ڤالتر

113- المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة: كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، (عمان، 1390هـ/1970م).

- هونكه، زيغريد

114- شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة: فاروق بيضون وآخرون، ط2، المكتب التجاري للطباعة والنشر، (بيروت، 1389هـ/1969م).

115- الوزارة نشأتها وتطورها في الدولة العباسية، مطبعة الإرشاد، (بغداد، 1390هـ/1970م).

الرسائل والأطاريح العلمية:

- احمد، احمد رضا

1- المدارس في بلاد الشام في العصر الأيوبي(570- 648هـ/1174- 1260م)، رسالة ماجستير غير منشورة،(كلية التربية، جامعة الموصل)، 1429هـ/2008م.
- أليأس، عبد الوهاب خضر

2- الإقطاع في العصر العباسي دراسة في أنماطه وأدارته(132- 447هـ/749- 1055م)، أطروحة دكتوراه غير منشورة، (كلية الآداب، جامعة الموصل)، 1412هـ/1991م.
- ألبدري، محمد نجيب مصطفى نعمان

3- بهاء الدين قراقوش، رسالة ماجستير غير منشورة، (كلية التربية أبن رشد، جامعة بغداد)، 1426هـ/2005م.
- خلف، غانم عبد الله

4- الحياة العلمية في بلاد الشام على عهد الأيوبيين، أطروحة دكتوراه غير منشورة،(كلية الآداب، جامعة الموصل)، 1416هـ/1995م.
- الزبيدي، منال محمود رشيد احمد

5- الرحلات العلمية من بلاد الشام وأليها في العصرين الزنكي والأيوبي(521- 661هـ/1127- 1262م)، رسالة ماجستير غير منشورة، (كلية الآداب، جامعة الموصل)، 1416هـ/2006م.
- سلام، أيمن شاهين

6- المدارس الإسلامية في مصر في العصر الأيوبي ودورها في نشر المذهب السني، أطروحة دكتوراه غير منشورة، (كلية الآداب، جامعة طنطا)، 1420هـ/1999م.
- الصائغ، ذكرى عزيز محمد صالح

7- عصر الملك الكامل الأيوبي، رسالة ماجستير غير منشورة، (كلية الآداب، جامعة الموصل)، 1409هـ/1988م.
- عباس، علي سلطان

8- مدينة عكا في العهدين الأيوبي والمملوكي دراسة سياسية واقتصادية(497- 728هـ/1104- 1327م)، رسالة ماجستير غير منشورة، (كلية الآداب، جامعة الموصل)، 1418هـ/1997م.
- عبد الرحمن، خالد سليمان حمد بني

9- أدارة بلاد الشام في العصر الأيوبي، أطروحة دكتوراه غير منشورة، (كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية)، 1418هـ/1997م.
- العكيدي، خالد كلي عبد

10- التنظيمات العسكرية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية في مصر أبان حكم صلاح الدين الأيوبي، رسالة ماجستير غير منشورة، (معهد التاريخ العربي والتراث العلمي، بغداد)، 1421هـ/2000م.
- عيسى، علي نجم

11- حلب في العهد الأيوبي(579- 658هـ/1183- 1258م)، دراسة سياسية حضارية، أطروحة دكتوراه غير منشورة، (كلية الآداب، جامعة الموصل)، 1420هـ/1992م.
- اللبدي، نزار وصفي

12- صورة فن الحرب في أدب الدولتين الزنكية والأيوبية في مصر والشام، أطروحة دكتوراه في اللغة العربية غير منشورة، (كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية)، 1413هـ/1992م.
- مجيد، ميسون هاشم

13- علاقة الخلافة العباسية بدويلات المشرق في القرن الثالث الهجري نهاية القرن الخامس الهجري، رسالة ماجستير غير منشورة، (كلية الآداب، جامعة الموصل)، 1404هـ/1983م.
- المياحي، مشتاق كاظم عاكول

14- الحركة الفكرية في مصر في العصر الأيوبي(567- 648هـ/1171- 1250م)، أطروحة دكتوراه غير منشورة، (كلية الآداب، جامعة بغداد)، 1427هـ/2006م.

الدوريات والبحوث:

- أحمد، عبد الجبار حامد

1- "أبناء الشهر زوري ودورهم السياسي والقضائي والعلمي في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي" ،مجلة آداب الرافدين، العدد(18)، كلية الآداب، جامعة الموصل، (1409هـ/1988م).

- البيطار، أمينة

2- "التعليم في دمشق في القرن السادس الهجري" ،مجلة آداب الرافدين، العدد(11)، كلية الآداب، جامعة الموصل، (1400هـ/1979م).

- حسن، محمد صديق

3- "سياسة الأيوبيين الزراعية" ،مجلة آداب الرافدين، العدد(48)، كلية الآداب، جامعة الموصل، (1428هـ/2007م).

- خلف، غانم عبد الله

4- "مهذب الدين الدخوار رئيس الأطباء في عهد الأيوبيين 565- 628هـ" ،مجلة آداب الرافدين، العدد(27)، كلية الآداب، جامعة الموصل، (1416هـ/1995م).

- خليل، عماد الدين

5- "الجانب الإداري في مملكة نور الدين محمود(541- 569هـ/1146- 1173م)" ،مجلة آداب الرافدين، العدد(8)، كلية الآداب، جامعة الموصل، (1398هـ/1977م).

- رشيد، ناظم

6- "التعليم في ظل الدولتين الزنكية والأيوبية في الشام" ،مجلة آداب الرافدين، العدد(10)، كلية الآداب، جامعة الموصل، (1400هـ/1979م).

7- "النشاط العلمي والأدبي في عهد الأسرة الأيوبية" ،مجلة آداب الرافدين، العدد(8)، كلية الآداب، جامعة الموصل، (1395هـ/1975م).

- زكي، عبد الرحمن

8- "امتداد القاهرة من عصر الفاطميين إلى عصر المماليك(969- 1517م)" ،أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة، دار الكتب، القاهرة، (1391هـ/1971م).

- ساتو، توجيتاكا

9- "نظام الإقطاع في مصر والشام في العصر الأيوبي" ،المجلة العربية للعلوم الإنسانية، العدد(38)، جامعة الكويت، الكويت، (1411هـ/1990م).

- السامر،فيصل

10- "نهضة التجارة العربية في العصور الوسطى الإسلامية" ،مجلة المؤرخ العربي، العدد(17)، مجلة تصدرها الأمانة العامة لإتحاد المؤرخين العرب، بغداد، (1402هـ/1981م).

- سلطان، سلطان جبر

11- "جهود العلماء المسلمين في دعم مؤسسات المجتمع المدني في عصر الحروب الصليبية(490- 690هـ/1096- 1391م)" ، مجلة آداب الرافدين، العدد(40)، كلية الآداب، جامعة الموصل، (1426هـ/2005م).

- كسلر، كريستل

12- "عمارة الأضرحة في داخل مدينة القاهرة" ،أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة،دار الكتب، القاهرة، (1391هـ/1971م).

- معروف، ناجي

13- "مدارس قبل النظامية" ، مجلة المجمع العلمي العراقي، العدد(22)، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، (1393هـ/1973م).

الإنترنت:

1. www.100 fm6.com
2. www.arabspc.net
3. www.egeptsons.com
4. www.inazhar.com
5. www.kidwor 1 dmag.com

المراجع الأجنبية:

Cahen , claude:

1- "Ayyubids" ,The Encyclopedia of Islam ,Vol 1, London, 1960.

Cook , M.A:

2- Studies in The Economic History of The Middle East From The Rise of Islam to The Present day , University Press , London ,1970.

Lane- Poole , Stanley:

3- A history of Egypt in The Middle Ages, 4th .ed, Frank Cass & CO , London, 1968.